روايات الهلال

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثاني

نيقولاى جوجول



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٦٥ - مايو ١٩٧٩ - جمادى الثانى ١٣٩٩
No. 365 — May 1979

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »
الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
تمـاضر محمـد تركى

أمسيات قرب قرية ديكانكا

الجزء الثانى



نيقولاى جوجول



إبراهيم زكى خورشيد

دار الهلال

الجـزء الثانى



مقدمة

هاكم الجزء الثانى ، وخير لى ان أقول الجزء الأخير ! ولم تكن بى رغبة فى ان أخرجه الى الناس ، اجل لم أكن أريد ان أخرجه قط ، ذلك انه لايجوز للمرء ان يطيل حتى يثقل ، ولا اخفى عليكم ان أهل القرية بدءوا يسخرون منى قائلين : « لقد اختل عقل الرجل العجوز ، فراح يتسلى بلعب الأطفال فى شيخوخته!» ، والحق انه قد آن لى ان استريح ، ولعكم أيها القراء الأعزاء تظنون اننى انما أدعى الكبر، فكيف بى ولم يبق فى فمى سن واحدة ! وانا الآن اذا وقعت على شىء لين أحاول أن أمضغه ، ولكننى لا أستطيع أمرا اذا أصبت شيئا يابسا .

وهأنذا ادفع اليكم بكتاب آخر ! وكل ما اريده ، الا تتناولونى باللوم ، فليس اللوم من شيمة الكرام عند الفراق ، فما بالك اذا جهلوا متى يكون اللقاء ، وما يعلمه الا الله ؟ وستجدون فى هذا الكتاب قصصا رواها قوم لا تعرفهونهم على الاطلاق ، اللهم الا اذا كنتم تعرفون منهم فوماجريجوريفتش الذى لم يلم بهذه الناحية منذ وقت طويل ، اجل ذلك السيد الذى كان يرتدى سترة فى لون البازلاء ، ويتحدث بتلك اللغة الفصيحة التى كانت تند عن أفهام كثير من ذوى العقول الراجحة بمن فيهم اهل موسكو انفسهم . انه لم يزرنا منذ تشاجرنا جميعا ، وانى لأحسب اننى لم أحدثكم بأمر هذا الشجار ام تروننى حدثتكم به ، لقد كان مهزلة ولاشك .

فقدحل بى فى يوم من أيام الصيف الماضى ضيوف جاءوا لزيارتى ، وكان ذلك على ما اظن فى عيد القديس شفيعى . ولا اخفيكم أيها القراء الأعزاء أن جيرانى ، متعهم الله بالصحة والعافية ، لاينسون الرجل العجوز . لقد انقضى خمسون عاما منذ بدات احتفل بعيد القديس شفيعى ، أما عمرى ، فلا أنا ولا زوجتى العجوز نستطيع

أن نحدده ، ولاشك انه نحو السبعين . أما الذى يعلم تاريخ مولدى فهو الأب خارلمبى ، القسيس الذى كان فى ديكانكا ، على انه يؤسفنى ان اقول انه توفى منذ خمسين عاما . اذن فقد حل بى ضيوف جاءوا لزيارتى وهم زخاركيريلوفتش شوخوبونكو ، وستيفان ايفانوفتش كوروشكا ، وتاراس ايفاتوفتش سماتشننكى ، ومساعد القاضى خارلمبى كيريلوفتش خلوسطا ، وكان بينهم زائر آخر نسيت اسمه .. اوسيب .. اوسيب .. تالله ان كل من فى ميرجورود يعرفه ! فانه ما ان يبدأ فى الكلام حتى يفرقع بأصابعه ويضع ذراعيه فى خاصرتيه ، ولكن دعونا من هذا ! ولأذكرن اسمه حالا . وجاء ايضا ذلك السيد البلتاوى الذى سبق أن عرفتم امره . أما فوماجريجوريفتش فلم أدخله فى عداد الضيوف لأنه واحد منا . وراح كل من الحاضرين يتحدث ، ولا أخفيكم اننا لا نتحدث ابدا فى توافه الأمور ، ذلك اننى دائما احب الحديث اللائق الظريف حتى اجمع بين المتعة والمنفعة كما يقولون ، وكان حديثنا يدور حول تخليل التفاح ، وقالت زوجتى : ان التفاح يجب ان يغسل أولا غسلا جيدا ثم ينقع فى الجعة الخفيفة ، ثم ..

وهب السيد البلتاوى يقاطعها وهو يضرب يده فى جيب سترته التى فى لون البازلاء ويذرع الغرفة فى رصانة ووقار : « لا غناء فى ذلك كله على الاطلاق ! بل يجب أولا ان تذرى حشيشة الدود على التفاح ثم .. » ولكننى أسألكم ايها القراء الأعزاء : «هل سمعتم بتفاح يذر بحشيشة الدود؟ ان الناس قد يستعملون أوراق الزبيب الأسود وعشب الخنزير والحندقوق ، اما ان يضاف على التفاح حشيشة الدود فشىء لم اسمع به من قبل ، وانى لأحسب انه ما من احد يعرف فى هذه الشئون أكثر مما تعرف زوجتى ، ولكن هذا هو ما حدث ! » وانتحيت بالرجل جانبا فى هدوء كما يفعل الجار الطيب وقلت له : « على رسلك يامقارنازاروفتش ، ولكن لاتجعل الناس يضحكون منك ! فانك رجل ذو شأن ، وقد تناولت عشاءك على المائدة التى تناول عليها المحافظ عشاءه على حد قولك انت نفسك ، ولئن قلت شيئا من هذا القبيل جعلت القوم جميعا يسخرون منك ! » فكيف كان جوابه فيما تظنون ؟ انه لم يجر

جوابا ! بل بصق على الأرض وتناول قبعته ثم مضى . لقد كان خليقا به ان يلقي بكلمة وداع الى انسان ،او يومىء الينا براسه ايماءة واحدة ، ولـكن كل ما سمعناه هو صوت عربته بجرسـها المثبت فوقها ، ثم وقفت عند الباب فركبها وسارت به ، ثم .. مع السلامة أيضا !

ذلك اننا لانريد ضيوفا على شاكلته ،ولا اجد مفرا أيها القراء الاعزاء من ان أقول لكم انه ليس فى هـذا العالم أسوأ من اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا . ان الرجل يشمخ بأنفه على كل انسان لأن عمه كان مأمورا فى يوم من الأيام ، كأنما لا يوجد فى العالم طبقة أعلى من طبقة المأمور ! ولاشك ان من الناس من هم أعظم من المأمير . كلا ! اننى لا أحب اولئك الناس الذين ينتمون الى الطبقة العليا ، ولـكن مثلا فوما جريجوريفتش ، فهـو ليس من هذه الطبقة ،ولكن انظروا اليه ،ان وجهه ينم عن العزة والكرامة فى هدوء ووقار ، ولا يسـعك الا أن تحبه وتحترمه ، حتى حين يصيب قدرا من السعوط المألوف . ويعجز القلم عن وصف مايبلغه صوته من أثر فى النفس عندما ينشد مع فرقة المرنمين فى الكنيسة ، ان قلوبكم لخليقة بأن تذوب ذوبانا عند سماعكم هـذا الصوت ! على حين ان الرجل الآخر ، ولـكن دعونا منه ، فانه يظن الا غنى لنا عن قصصه ، ولا عليكم فهاكم كتابا من القصص لاشأن له به .

وانى لأذكر اننى كنت قد وعدتكم بأن اضمن هذا الكتاب قصتى انا أيضا ، وقد صـح عزمى على أن أدخلهـا فيه فعلا ، الا اننى وجدت انها سوف تقتضينى ثلاثة كتب من هذا الحجم على الأقل، فاستقر رايى على ان اطبعها على حدة ، وقـد فـكرت فى الأمر مليا ؛ فانى قد خبرتكم ، ولو اننى فعلت هذا لسخرتم من الرجل العجوز ، كلا ! لن أطبعها ! ووداعا ! وليمضين وقت طويل قبل ان نلتقى مرة اخرى اذا قـدر لنا أن نلتقى ، ولكنكم لن تعبئـوا بهذا ، بل لن تعبئوا بوجودى أبدا ، ولسوف تتوالى الأعوام عاما فى اثر عام ولن يذكر احدكـم مربى النحل العجوز أو يحزن عليه !

بانكو الأحمر الشعر

ليلة عيد الميلاد



ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد ، وأسدل الظلام ستاره ، وحلت ليلة من ليالى الشتاء صافية الأديم ، وبصبصت النجوم ، وطلع القمر مهيبا جليلا يظل بنوره أهل الصلاح ، بل يظل القوم جميعا حتى ينعم الكل بانشاد أناشيد الكوليادكى (١) ويسبحون بحمد الله ، واخذ الصقيع يشتد عما كان فى الصباح ، وازداد السكوت شمولا حتى كان صوت الجليد يترامى الى الأسماع وهو يقرقع تحت وطء الحذاء على بعد نصف ميل ، ولم تك قد ظهرت بعد جماعة واحدة من جماعات الفتيان تحت النوافذ ، وانما كان القمر يختلس النظر اليهم كأنما يهيب بالفتيات اللواتى كن يرتدين اغلى ما عندهن من ثياب ، أن يعجلن ويركضن على الجليد المقعقع ، وانبعث الدخان فى تلك اللحظة يرتفع حلقات من مدخنة كوخ ويسبح كالسحاب فى اجوازالفضاء ، وارتفعت فى الجومع الدخان ساحرة تمتطى مكنسة .

ولو أن مساعد القاضى فى بلدة سوروتشينتسى قد برز بقبعته التى حليت أطرافها بجلد الشاة وسويت على طراز قبعة

---

(١) من عاداتنا أن ننشد تحت النوافذ ليلة عيد الميلاد أناشيد تسمى « كوليادكى » وتلقى ربة البيت أو ربة اى شخص بقى فيه من أهل الدار ، فى كيس المنشد دائما بعض السجق أو الخبز أو قطعة من النقود النحاسية أو ما استطاع اليه سبيلا ، ويقال : انه اتفق يوما ان كان ثمة شخص غبى يقال له كوليادا فحسبه الناس الها ، ومن ثم نسبت هذه الاناشيد اليه ، ومن يدرى ؟ لعله لا يجوز لقوم بسطاء من أمثالنا أن يدلوا برأيهم فى موضوع كهذا ، وقد حرم الاب أوسيب على الناس فى العام الماضى أن ينشدوا الكوليادكى فى المزارع قائلا : انهم انما يمجدون الشيطان بفعلهم هذا ، مع أن هذه الاناشيد قد خلت من كلمة واحدة تشير الى كوليادا ، وهى تدور فى كثير من الاحيان حول مولد المسيح ، ثم يتمنى القوم فى نهايتها الصحة السابغة لرب البيت وربته واطفالهما وأفراد الاسرة جميعا .

« تعليق مربى النحل »

الأوغلان (١) ، ومعطفه الأزرق القاتم المبطن بفراء استراخان الأسود ، ومر فى تلك اللحظة بعربته المشدودة الى جياده الثلاثة المستأجرة وسوطه المجدول جدلا جهنميا الذى الف ان يستحث به حوذيه ، لرآها بلا شك ، ذلك انه ما من ساحرة فى العالم تستطيع ان تفلت من عين مساعد قاضى سوروتشينتسى ، فهو يستطيع أن يعد على أصابعه عدد ماوضعته خنزيرة كل فلاحة من صغار ، ومقدار ما تحتفظ به فى صندوقها من كتان ، واى ثوب من اثوابهم او متاع من امتعة المنزل يرهنه القوم الصالحون فى الحانة يوم الأحد ، ولكن مساعد قاضى سوروتشينتسى لم يمر بهذا المكان فى عربته ، واى شأن له فيه حتى يمر ؟ لقد كان حسبه ان يعنى بشئون ناحيته .

ولم تلبث الساحرة فى هذه الأثناء ان شقت أجواز الفضاء حتى غدت نقطة سوداء صغيرة فى كبد السماء ، وكلما ظهرت هذه النقطة السوداء اختفت النجوم واحدا فى اثر آخر ، وسرعان ماجمعت الساحرة منها ملء ردنها ، وبقى من النجوم ثلاثة أو أربعة ظلت تتألق ، ثم ظهرت فجأة نقطة صغيرة أخرى من مكان آخر ، وأخذت تكبر وتكبر ثم تستطيل وتستطيل ، فلم تعد نقطة فحسب ، وما كان لشخص قصير النظر ان يعرف قط ما الذى صارت اليه ولو وضع على انفه عجلتى عربة المأمور بدلا من النظارات . لقد كان الشكل الذى انتهت اليه يبـدو من الأمام كالألمانى القح (٢) وكان وجهه الصغير الطويل ، الذى راح يتلوى ويتلفت ويتشمم كل شىء فى الحاح لاينقطع ، ينتهى بزر كالزر الذى تنتهى به خطم خنازيرنا ، وبلغت ساقاه من النحافة مبلغا لو قدر لشيخ قرية ياريسكى أن يكون له مثلهما لكسرهما ولاشك فى أول رقصة قوزاقية يؤديها ، اما من الخلف فقد بدا فى نظر الناس جميعا وكيلا للنيابة فى زيه الرسمى ، فقـد كان له ذيل طويل مستدق الطرف كالسترات

---

(١) الاوغلان هم رجال الحرس من التتر .

(٢) لقد اصطلحنا على ان نطلق على اى شخص قادم من بلد أجنبى اسم الالمانى ، فهو المانى عندنا حتى لو كان فرنسيا أو هنغاريا او سويديا .

المؤلف

الرسمية فى هذه الأيام ، وانما كانت لحية التيس التى فى اسفل ذقنه والقرنان الصغيران البارزان فى جبهته ولونه الذى لايزيد فى بياضه عن لون كناس المداخن ، اجل كان ذلك كله هو الذى يجعل المرء ينكر انه كان المانيا أو وكيلا لنيابة ناحية من النواحى ، ويجزم انه من الشيطان . وقد بقيت له ليلة واحدة فحسب يطوف فيها بهذا العالم الفسيح ليقود القوم الصالحين الى المعصية ؛ ولكن ما ان ينبلج الصبح ، وتدق الأجراس دقاتها الأولى تدعو الناس الى صلاة الفجر ، حتى يضع ذيله بين ساقيه ويمضى الى وكره لايلوى على شيء .

واسترق الشيطان الخطا فى هذه الأثناء صاعدا الى القمر . ومد يده ليمسك به ، ولكنه استردها بسرعة كأنما لسعه القمر بحرارته، ومص اصابعه ، وراح يرقص هنا وهناك ، ثم طار ملتفا به من الجانب الآخر، ثم انقلب مرة أخرى وقد رد يده ، الا ان الشيطان الخبيث لم يكف عن الاعيبه بالرغم مما أصابه من خيبة فوق خيبة، فقد طار مصعدا وامسك بالقمر فجأة بكلتا يديه ، وراح يقذف به بيد ليلقاه بالأخرى وهو يقطب حاجبيه وينفخ فيهما كما يفعل الفلاح اذ يلتقط جذوة نار لغليونه بأصابعه المجردة ، ولم يلبث ان وضعه فى جيبه آخر الأمر ، ومضى فى طريقه كأن لم يحدث شيء البتة .

ولم يلحظ احد من اهل ديكانكا ان الشيطان قد سرق القمر ، صحيح ان كاتب الناحية راى القمر ، وهويخرج من الحانة يدب على اربع ، يتراقص فى السماء لغير ما سبب ، وأقسم على ذلك للقرية بأسرها ، ولكن الناس هزوا رءوسهم بل سخروا منه . ترى ما الذى دعا الشيطان الى ان يسلك هذا المسلك الشائن ؟ لقد دعاه الى ذلك انه علم ان القندلفت كان قد دعا شوب القوزاقى الثرى الى وليمة عشاء من العصيدة يرتدى فيها قريب من أقرباء القندلفت ، يعمل مع فرقة المرنمين التابعة للأسقف ، سترة زرقاء قاتمة ويستطيع ان يؤدى اغلظ القرارات من النغم ، وقد دعى الى هذه الوليمة أيضا شيخ القرية وسفير بيجوز القوزاقى وغيرهما ، واعد العشاء بحيث يشتمل على الفودكا الطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران ، وأطايب المأكولات من كل لون ، فضلا عن عصيدة عيد الميلاد ، ولسوف

تترك ابنته وهى فتنة القرية ، وحيدة فى المنزل فى أثناء ذلك .

ولم يك ثمة شك فى ان الحداد ، ذلك الفتى الوسيم العظيم القوة سيزوورها ، وكان الشيطان يكرهه أكثرمما يكره عظات الآب كوندرات. وكان الحداد يصرف أوقات فراغه فى النقش حتى عده الناس أبرع الفنانين فى الناحية ، ولا أدل على ذلك من ان الضابط القوزاكى ب ـ كو الذى كان لايزال على قيد الحياة فى تلك الأيام ، قد أرسل فى طلبه من بلتاوة خصيصا لينقش له السور الذى يحيط بمنزله ، وكانت جميع الطاسات التى يتناول فيها قوزاق ديكانكا عشاءهم من الحساء من نقش ذلك الحداد .

لقد كان رجلا يخشى الله وكثيرا ما نقش الأيقونات ، بل انك لترى حتى اليوم الصورة التي صنعها للوقا الأنجيلى فى كنيسة ت ، ولكن اروع آثاره هى الصورة التى رسمها على جدار الكنيسة فى الهيكل الذى الى اليمين ، وقد صور فيها بطرس الرسول يطرد الشيطان من جهنم يوم الحساب ، وتملك الشيطان الفزع وهو يتكهن بمصيره فأخذ يجرى على غير هدى ، على حين شرع أهل المعصية الذين اطلق سراحهم يطاردونه ، ويضربونه بالسياط وقطع الخشب وكل ما يقع فى أيديهم . وبينما كان الفنان يصنع هذه الصورة ويرسمها على لوح كبير من الخشب ، راح الشيطان يبذل كل ما فى وسعه ليعوقه عن عمله ، فلكزه فى ذراعه خفية ونفخ بعض الرماد من الكور الى دكان الحداد ونثره على الصورة ، الا ان الحداد أنجز الصورة بالرغم من ذلك ثم حملت الى الكنيسة وركبت فى جدار الهيكل الجانبى ، فأقسم الشيطان لينتقمن من الحداد .

ولم تك قد بقيت للشيطان الا ليلة واحدة يجوس فيها خلال الأرض ، وكان يبحث عن وسيلة يصب بها جام غضبه على الحداد فى تلك الليلة ، ولذلك صح عزمه على سرقة القمر مقدرا ان شوب العجوز كان بليدا بطىء الحركة وان كوخ القندلفت كان بعيد الشقة. وكان الطريق يمر بالطواحين وبالمقبرة التى فى خارج القرية ويلتف حول اخدود ، وكانت الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران خليقتين باغراء شوب اذا كانت الليلة مقمرة ، اما اذا كانت ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة فقد كان من المشكوك فيه ان يستطيع انسان

جره من أريكة الموقد واخراجه من الكوخ ، وما كان الحداد الذى ساءت علاقته به منذ وقت طويل ، ليجرؤ مهما كانت الحال ، ومهما بلغ من قوته ، على زيارة الابنة وابوها مقيم فى المنزل .

وهكذا كان ، فما ان اخفى الشيطان القمر فى جيبه حتى ساد الظلام العالم كله فجأة فتعذر على أى امرىء ان يشق طريقه الى الحانة ، فما بالك اذا كان مقصده هو كوخ القندلفت . واطلقت الساحرة صرخة عندما وجدت نفسها فى الظلام فجأة وهرع اليها الشيطان ، وهو يكثر لها من الانحناء والابتسام ، وامسك بذراعها واخذ يهمس فى أذنها بتلك العبارات التى الف الرجال ان يهمسوا بها فى آذان النساء جميعا . الا ما اعجب تدبير الأمور فى عالمنا هذا ! ان كل من يعيشون فيه يحاولون دائما ان يقلد بعضهم بعضا كأنهم القردة ! لقد كان القاضى والعمدة فى الأيام الخالية هما الوحيدين من أهل ميرجورود اللذين الفا ارتداء معاطف من النسيج مبطنة بجلد الماعز فى الشتاء ، على حين كان صغار الموظفين يرتدون جلد الماعز العادى .

اما اليوم فان مساعد القاضى وملاحظ الأراضى قد اكتسيا بالمعاطف الجديدة المصنوعة من النسيج والمبطنة بفراء استراخان . وقد اشترى كاتب المركز وكاتب الناحية فى العام الأسبق جلد بط ازرق قاتما ودفعا فى الياردة منه ستين كوبكا ، واكتسى سادن الكنيسة بسروال صيفى من النسيج المعروف باسم « نانكين » ، وصديرى مخطط من الصوف المغزول .

وصفوة القول ان كل انسان كان يحاول ان يكون صاحب شأن ، وا عجبا ! متى يكف الناس عن الغرور ؟ انى لعلى استعداد أن اراهن بأن كثيرا منهم تنتابهم الدهشة اذا هم راوا الشيطان يسلك هذا المسلك . ومما تضيق له النفس اشد الضيق انه يخال نفسه بلاشك فتى وسيما بالرغم من ان منظره مشين معيب ، اما وجهه فأشنع من الشناعة كما يقول فوما جريجوريفتش ، ومع ذلك فهو يصطنع الظرف والرقة ! الا ان الظلام كان قد أسدل ستاره على السماء وما تحت السماء ، فعز على الأنظار ان ترى ما وقع بين الشيطان والساحرة من بعد !

ووجه شوب القوزاقي ، وهو يخرج من باب كوخه ، سؤالا الى فلاح طويل القامة نحيل يرتدي جلد ماعز قصيرا : « اذن فانك لم تذهب لزيارة القندلفت في كوخه الجديد باصاح . » وبدا على لحية الفلاح الكثة انه لم تمسسها ، منذ أسبوعين على الأقل ، قطعة مكسورة من منجل الف الفلاحون ان يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم الى الموسي ، ومضى شوب يقول وهو يبتسم ابتسامة كشف بها عن نواجذه : « لتكونن سكرة طيبة هناك الليلة ، وارجو الا تكون قد تأخرنا ! »

وشرع شوب في اصلاح شأن الحزام الذي كان يطوق به في احكام جلد الماعز الذي كان يرتديه ، واحكم القبعة على رأسه وأمسك بسوطه الذي كانت ترتعد منه الكلاب المزعجة ، ولكنه رنا ببصره الى السماء ثم توقف .

«يا للشيطان ! انظر ، انظر يا باناس ! »

وسأله صديقه وهو يرنو ببصره أيضا الى السماء : « ما الخبر؟»

« ما الخبر ، عجبا ! ليس ثمة قمر ! »

« يا له من امر مزعج ! ليس ثمة قمر حقا ! »

وقال شوب وقد نمت لهجته عن شيء من الضيق لما أظهره صديقه من عدم اكتراث يتسم بالهدوء والرزانة : « صدقت كل الصدق ! فليس ثمة قمر ! ولاشك عندى انك لا تحفل بالأمر ! »

« وى : وماذا استطيع ان افعل ؟ »

واسترسل شوب يقول وهو يمسح شاربه بردنه : « لاشك ان شيطانا تدخل في الأمر . الا فليحرم هذا الكلب حرمانا حتى لايجد قدحا يصيبه من الفودكا صباحا ! لعمرى ، كأنه يريد ان يسخر منا ! لقد كنت اجلس داخل الكوخ ثم تطلعت من النافذة ، فوجدت الليل غاية في السحر والفتنة ! كان الضوء يفيض والجليد يتألق في ضوء القمر ، حتى لترى كل شيء كأنك في وضح النهار، وهأنذا لا استطيع ، ولما أبارح باب الكوخ ، ان ارى يدى وهي مبسوطة امامي!»

وراح شوب يدمدم ويلقي باللوم وقتا طويلا ، الا انه كان في الوقت نفسه يفكر فيما عساه ان يصنع . لقد كان يتوق الى الثرثرة بلغو الحديث على جميع اشكاله وضروبه في كوخ القندلفت ، حيث كان

شيخ القرية ولاشك جالسا الآن ، هو وذلك المنشد الجهير الصوت وميكيتا تاجر القطران الذى ألف ان يقصد مرة كل اسبوعين سوق بلتاوة ويلقى من الملح والنكات ما تشق له جنوب القرويين جميعا من الضحك ، وكان شوب يرى بعين الخيال الفودكا المطيبة على المائدة ، وفى هذا من الاغراء ما فيه ، ولكن حلكة الليل ذكرته بحلاوة الكسل الذى يميل اليه كل قوزاقى من كل قلبه . الا ما امتع ان يستلقى الآن على اريكة الموقد ، وقد طوى ساقيه تحته ، وأخذ يدخن غليونه فى هدوء منصتا فى نشوة النعاس اللذيذ الى الأغانى والكوليادكى التى ينشدها فتيان وفتيات فاضت قلوبهم بالبشر ، والتأم شملهم جماعات تحت النوافذ ! ولوكان وحده لاستقر رأيه ولاشك على هذا المسلك، اما وهما اثنان معا فلم يكن التماس الطريق فى ظلمة الليـل بالأمر الذى يدعو الى كل هـــذا الخوف والفزع ، زد على ذلك انه كان لايحب ان يظهر بمظهر الكسول أو الجبان فى اعين الآخرين ، وما ان فرغ من اللوم حتى التفت الى صديقه قائلا :

« اذن فليس ثمة قمر يا صاح ؟ »

« أجل »

« ما اعجب هذا حقا ! اسمح لى بنشقة من السعوط ، فان سعوطك لرائع يا صاح ، من اين لك به ؟ »

فأجاب صديقه وهو يغلق صندوق السعوط المصنـوع من لحاء شجر البتولا والمحلى ببعض الرسوم البارزة : « ارائع هو حقـــا ؟ عجبا ! انه لايحمل دجاجة عجوزا على العطس ! »

فقال شوب : « اذكر ان زوزوليا صاحب الحانة اتى لى ببعض السعوط من نزين ، آه ، لقد كان سعوطا بحق ! اجل كان سعوطا طيبا ! والان مارأيك ياصاح ؟ ان الظلام حالك كما تعلم »

فأجابه صديقه وهو يمسك بمقبض الباب : « اذن ، فخير لنــا فيما أظن ان نلزم الدار » .

ولو لم يقل صديقه هذا لاستقر راى شوب ولاشك على ان يلزم الدار ، الا ان شيئا كان يستحثه الآن فيما يظهر على معارضته : « كلا ياصـــاح فلنذهب ! فانه لا يليق بنا التخلف ، بل يجب ان نذهب »

واحس شوب حتى وهو يقول ما قال ، بالغيظ من نفسه لانه اقدم على هذا الفعل ، ذلك انه كان يكره كل الكره ان يخرج فى ليلة كهذه ، على انه احس بالرضا والغبطة ، فقد كان هو صاحب القرار ولم يستمع فى ذلك لنصح أحد .

وتلفت صديقه حوله وحك كتفيه بمقبض سوطه ولم تبد على وجهه اية علامة تدل على الضيق شأن من لايبالي : الزم الدار أم بارحها ؟.. وهكذا شرع الصديقان فى رحلتهما .

ولنر الآن ماذا كان من أمر ابنة شوب الجميلة وهى وحيدة فى كوخها . لقد كان الناس جميعا قبل ان تبلغ أوكسانا السابعة عشرة، لايكادون يتحدثون الا عنها سواء فى هذا الجانب من ديكانكا أو فيما وراءه ، وقد أجمع الفتيان على ان القرية لم تشهد ولن تشهد فتاة اجمل منها . وكانت اوكسانا تسمع وتعرف كل ما يقال عنها ،كما كانت كغيرها من الحسان متقلبة الأهواء ، ولو انها ارتدت من الملابس ماترتديه السيدات الفاضلات بدلا من النقبة المخططة والمئزر، ما استطاعت ان تحتفظ قط بخادم . وكان الفتيان يهرعون خلفها زرافات ، الا ان صبرهم كان ينفد ، فينصرفون عن هذه الفاتنة العنيدة واحدا بعد واحد ، ويتحولون الى غيرها من الفتيات اللواتى لم يكن فى مثل دلالها ، ولم يبق منهم الا الحداد الذى ظل يلاحقها بغزله بالرغم من انها لم تكن تعامله البتة خيرا مما تعامل سواه .

وما ان خرج ابوها حتى قضت اوكسانا وقتا طويلا ترتدى افخر ثيابها ، وتتزين وتتأنق أمام مرآة صغيرة فى اطار من الزنك ، الا انها لم ترض عن زينتها وحسنها كل الرضا .

وقالت كأنما شرد منها الفكر، فأرادت ان تتحدث الى نفسها بشىء وحسب : « ما الذى القى فى روع الناس ان يذيعوا عنى اننى جميلة؟ انهم يكذبون ، فلست جميلة على الاطلاق ! »

الا ان الوجه الصبوح الذى انطبع فى المرآة ، بشبابه النضير البرىء وعينيه السوداوين المتألقتين وابتسامته الفاتنة التى تجل عن الوصف وتهز النفس هزا ، كان ينقض ما تزعم فى الحال .

ومضت الفتاة تقول وهى لاتزال ممسكة بالمرآة : « ايمكن ان يكون حاجباى الأسودان وعيناى بهذا الجمال الذى لايعرف له فى

العالم مثيل ولا ضريب ؟ اى جمال فى هذا الأنف المرفوع وفى هذين الخدين وهاتين الشفتين ؟ وما بال ضفيرتى السوداوين ؟ اجميلتان هما ايضا ؟ أف ! انهما خليقتان بأن تدخلا الرعب فى قلب المرء اذا جن الليل ، فهما تلتويان وتلتفان حول راسى كأنهما الأفاعى الطويلة، وانى لأرى الآن اننى لست جميلة على الاطلاق ! » ، ثم ابعدت المرآة قليلا وصاحت : « اى نعم ، انى لجميلة ، آه ، ما اروع حسنى ! ان جمالى لعجيب ، ولأكونن قرة عين من يتزوجنى من الرجال ! ولشد ما يعجب بى زوجى ! ليستخفنه الطرب ، فيقبلنى ويقبلنى حتى ليزهق منى الأنفاس ! »

وهمس الحداد وهو يدخل الكوخ فى رفق وهدوء : « يا لها من فتاة عجيبة ! ثم الم ينل منها الغرور شيئا ؟ لقد ظلت واقفة أمام المرآة ساعة لا تستطيع ان تنتزع نفسها منها ولا تكف أيضا عن اطراء نفسها جهارا نهارا ! »

ومضت الفتاة الجميلة ذات الدلال قائلة : « أو كفء انا لكم ايها الفتيان ؟ انظروا الى وتأملوا رشاقة خطوى ان قميصى مطرز بالحرير الأحمر ، ويا للشرائط التى تزين رأسى ! لن تقع عينكم ابدا على أثمن من هذه الشرائط ، لقد اشترى لى أبى كل هذا ليزوجنى زينة شباب العالم طرا » ، ثم قهقهت والتفتت فرات الحداد .

فاطلقت صرخة ووقفت تواجهه ساكنة رابطة الجاش .

وسقطت يدا الحداد الى جنبيه فى يأس .

وليس من اليسير ان نصف التعبير الذى لاح على وجه الفتاة الضارب الى السمرة ، لقد كان فيه صرامة تلمح من خلالها لونا من الوان السخرية بالحداد الذى ظهر عليه الارتباك . وشابت وجهها فى الوقت نفسه مسحة رقيقة لا تلحظ من الخجل الدال على الغضب، واختلط هذا كله ، فأكسبها حسنا يجل عن الوصف ، ولا تستطيع حياله الا أن تمطرها لتوك بفيض من القبلات لايحصى ولايدرك له عدد.

وانشات اوكسانا تقول : « لماذا جئت ؟ اتريد منى ان القى بك من الباب بمجرفة ؟ ما ابرعك فى تخير الوقت لزيارتنا ! انك لتتنسم من فورك اللحظة التى يغيب فيها الآباء عن المنازل . واها لك ، فانى اعرفك ! هل اتممت صنع صندوقى ؟ »

« لأنجزنه بعد عيد الميلاد ياقرة عينى ، آه لو تعلمين مقدار ما انفقت من جهد فى صنعه ، اننى لم أبارح الدكان ليلتين ، وهيهات ان تحظى ابنة قس بصندوق مثله . ان الحديد الذى طوقته به لأفضل من الحديد الذى وضعته فى عربة الضابط عندما كنت أعمل فى بلتاوة ، ويا للطلاء الجميل الذى سأطليه به ! لن تجدى له مثيلا وان فتشت فى الناحية بأسرها سعيا على قدميك البيضاوين الصغيرتين، ولأنثرن عليه الأزهار الحمر والزرق ، فيتوهج توهج النار ، فلا تغضبى منى ، واسمحى لى على الأقل بأن احدثك وأن انظر اليك! »

« لتحدثنى وتنظرن الى ماشئت .. فما من احد يمنعك »

وجلست على الأريكة وتطلعت فى المرآة مرة اخرى ، واخذت تصلح شعرها ، ونظرت الى عنقها والى قميصها الجديد المطرز بالحرير الأحمر ، وتلألأت شفتاها ووجنتاها الناضرتان بشعور خبيث بالرضا تجلى اثره فى عينيها .

وقال الحداد : « اسمحى لي ان اجلس بجوارك »

فقالت اوكسانا ، وما زال الشعور نفسه يتلألأ على شفتيها وفى عينيها الراضيتين « اجلس »

وقال الحداد وقد ازداد جراة : « ما اروع حسنك اى اوكسانا الجميلة ! اسمحي لى ان اقبلك ! » ، وجذبها نحوه وقد اعتزم ان يختلس منها قبلة ، ولكن أوكسانا اشاحت عنه بخدها الذى كان قريبا من شفتيه كل القرب ، ودفعته بعيدا عنها .

« أو تريد شيئا آخر؟ لن تنال الشهد حتى تلتمس الوسيلة اليه! اغرب عنى ، فان يديك اقسى من الحديد ، ورائحة الدخان تفوح منك ، وانى لأحسب انك لوثت جسمى كله بالسناج الذى ينضح منك »

ثم تناولت المرآة ، واخذت تتأمل نفسها فيها مرة اخرى .

وقال الحداد يحدث نفسه وقد مال راسه : « انها لاتحبنى ! وانما هى تعبث فى كل هذا الأمر ، على حين اقف انا امامها كالأبله لا استطيع أن احول عينى عنها ، بل احب ان اقف امامها دائما لا ارد عنها بصرى ابدا ! يا لها من فتاة غريبة الأطوار! وانى لأبذل النفس والنفيس لأعلم ما فى قلبها ومن تحب ، ولكنها لا تبالى احدا، وانما هى تعجب بنفسها . انها تعذبنى انا المسكين ، فينفطر قلبى من

الحزن حتى لأجد نفسي في ظلام ليس بعده ظلام . انى احبها حبا لم يكابده أحد من قبل ولا من بعد »

وقالت اوكسانا : « أصحيح ان امك ساحرة ؟ » ، ثم ضحكت ، وشعر الحداد بأن كل ما فيه يضحك ، وبدا له ان هـذا الضحك يتردد صداه فى قلبه وفى عروقه التى أخذت تختلج اختلاجا عذبا ، الا ان نفسه كانت بالرغم من هذا كله قلقة لأنه لم يكن يحق له ان يقبل ذلك الوجه الضاحك البديع .

« وماذا يهمنى من امر امى ؟ انما انت ابى وامى بل كل ما هو عزيز فى هذا العالم ، ولو ان القيصر ارسل طلبى وقال لى : « أيها الحداد فاكولا تمن على أعز ما فى مملكتى اعطك اياه ــ لآمرنهم ان يصنعوا لك كورا من الذهب تعمل فيه بمطارق من الفضة ، أجل لو أن القيصر قال لى هذا لأجبته : « لست أبالى الأحجار الكريمة أو مملكتك وحسبى أن تهب لى فتاتى أوكسانا » .

فقالت اوكسانا وهى تبتسم فى مكر ودهاء :« يا لك من فتى ان أبى ليس أيضا بالفر الأحمق ! ولتعلمن هذا عندما يحجم عن الزواج من امك ! ولكن الفتيات لم يحضرن بعد ، فما بالهن ؟ لقد كان أولى بنا ان نبدأ فى انشاد الكوليادكى منذ زمن طويل ، فانى قد مللت الانتظار ! »

« خير لنا أن ينأين عنا يا فاتنتى ! »

« آه ، كلا ! وانى لأحسب ان الفتيان سيأتون معهن ، فنستطيع أن نلهو ونمرح ، وانى لأتخيل القصص التى سوف يروونها ! »

« اذن ستمرحين معهم ؟ »

« أجل ، وليكونن مرحى معهم اكثر من مرحى معك ، آه ! ان بعضهم يقرع الباب ، ولابد انهم الفتيان والفتيات »

وقال الحداد بينه وبين نفسه : « فيم بقائى بعد ؟ انها تسخر منى ، ولست عندها بأكثر قيمة من حدوة حصـان قديمة علاها الصدأ . ولكن اذا كان الأمر كذلك فلن ادع رجلا آخر يهزأ بى ، فلئن تبين لى انها تعجب بشـخص اكثر مما تعجب بى ، لأؤدبنه حتى يبتعد عنها »

ودوت طرقة على الباب وصيحة مجلجلة فى الصقيع ، تهتف :

« افتحى : » فقطعت عليه تأملاته .

وقال الحداد : « انتظروا ! وسأفتح الباب » ، ثم خرج وقد تملكه الغضب حتى نوى أن يكسر ضلوع أى شخص الم بالباب .

وزاد الصقيع حدة ، واشتد البرد فى الطبقات العليا من الجو حتى أخذ الشيطان ينط على ظلف تارة وعلى الظلف الآخر تارة اخرى ، وينفخ فى قبضتيه محاولا ان يبعث الدفء فى يديه المتجمدتين، واى عجب فى أن يشعر بالبرد وهو الذى الف ان يجوس فى أرجاء الجحيم يوما بعد يوم ، حيث لا تبلغ البرودة ، على ما نعرف جميعا ، مبلغ الشتاء عندنا ، وحيث يضع قبعته على رأسه ويقف أمام الموقد ، كأنه الطاهى الحق ، يشوى أهل المعصية مغتبطا اغتباط الفلاحة وهى تقلى المقانق « السجق » فى عيد الميلاد .

وشعرت الساحرة ايضا ببرودة الجو ولو انها كانت ترتدى من الملابس ما يبعث فى أوصالها الدفء ، فقذفت بذراعيها الى أعلى ووقفت تمد قدما من قدميها واتخذت هيئة رجل يسابق الريح على قبقاب التزحلق دون أن تحرك عضلة واحدة من عضلات جسمها ، ثم انزلقت فى الهواء كأنها تهبط منحدرا من الثلج ، ودخلت مدخنتها لا تلوى على شىء .

وتبعها الشيطان على هذا النحو نفسه ، ولكن هذا المخلوق كان اخف حركة من اى رجل متعاجب يرتدى الجوارب ، فلا غرو انه وقع على عنق خليلته عند قمة المدخنة ، ووجد كلاهما نفسه بين القدور فى فرن رحب فسيح الأرجاء .

وزحزحت الساحرة باب الفرن خلسة لترى : ادعا ابنها فاكولا بعض الضيوف الى الكوخ ، أم لم يدع ؟ ولكنها لم تر أحدا ، الا الأكياس الملقاة على الأرض ، فتسللت من الفرن وخلعت عنها معطفها الدافىء وعادت الى حالتها الطبيعية ، وما كان لأحد ان يذهب فى القول الى انها كانت تمتطى مكنسة منذ لحظة .

وكانت أم فاكولا لاتجاوز الأربعين من عمرها ، ولم تك بالوسيمة ولا بالدميمة ، والحق ان من العسير ان يكون اى مخلوق وسيما فى تلك السن ، على انها كانت بارعة جدا فى غواية القوزاق ، فلايمتنع عنها خيرهم استقامة وصلاحا « ولا يفوتنا ان نذكر ان هؤلاء

القوزاق كانوا لايحفلون بالجمـــال كثيرا » حتى ان شـــيخ القرية واوسيب نيكيفوروفتش والقندلفت « عندما تغيب زوجته من الدار بطبيعة الحال » ، والقوزاقى كورنى شوب والقوزاقى كاسيان سفير بيجوز قد الفوا زيارتها ، ومن آياتها انها كانت تسوسهم فى براعة عجيبة ، فلا يدور بخلد أحد ان له منافسا ، ولو ان سيـــدا او فلاحا ممن يخافون الله « كما يصف القوزاق انفسهم » يطرح على كتفيه دثارا ذا قلنسوة قد قصد الكنيسة يوم الأحد او الم بالحانة، مافاته قط ان يزور سولوخا ويأكل لقيمات القاضى المصنوعة من الجبن والقشدة المتخثرة ، ويثرثر فى الكوخ الدافىء مع ربته المحدثة اللبقة الأنيسة .

وكان القوزاقى يتعمد أن يلف ويدور طويلا قبل أن يبلغ الحانة ، ويسمى هذا « التطلع اثناء الطريق » ، وعندما كانت سولوخا تذهب الى الكنيسة فى يوم من ايام الراحة مرتدية النقبات ذات الخطوط الزاهية اللون ومئزرا من القطن ، ومتشحة فوق ذلك بدثار أزرق قاتم طرز على ظهره وشى من ذهب ، وتتخذ موقفهـــا بالقرب من الجانب الأيمن من فرقة المنشدين ، كان القندلفت لايفوته ان يسعل، وان يزر عينيه مومئا اليها فى غير فطنة . أما شيخ القرية فكان يسوى شاربه ويلف قنزعة رأسه خلف اذنه ، ويقـــول للرجل الذى يجاوره : « آه ، هاك امراة بمعنى الكلمة ، بل داهية من الدواهى!» ، وكانت سولوخا تنحنى لهما ، فيظن كل منهما انها انما تنحنى له وحده .

وما من امرىء مشغوف بأن يدس انفه فى شئون الناس الا لاحظ ان سولوخا كانت تعامل القوزاقى شوب معاملة غاية فى الكرم واللطف، ذلك ان شوب كان أرمل ، تقوم أمام كوخه دائما ثمانية اكداس من القمح ، وتطل رءوس زوجين من الثيران القوية من مخزن الحبوب المسور الى جانب الطريق ، وتخور الثيران فى كل مرة ترى فيهـــا صاحبتها الوفية البقرة أو عمها الثور الربل وهو يمر بها ، وقد الف تيس ملتح ان يتسلق الى السقف ويثغو فى صوت اجش كصوت العمدة ، زاجرا الديكة الرومية وهى تخطر فى الفناء ، مدبرا اذا شاهد اعداءه الصبيان الذين جروا على السخرية بلحيته . وكانت صناديق شوب تضم ذخيرة وافرة من الكتان وكثيرا من السترات

والمعاطف العتيقة قد طرزت بالمخرمات الذهبية ، فقد كانت زوجته مغرمة بالملابس النفيسة ، وكانت قطعتان من حديقة خضره تزرعان كل عام تبغا ، علاوة على الخشخاش والكرنب وعباد الشمس . وكانت سولوخا تراود نفسها قائلة « الا ضير لو ضمت كل هذا الى مزرعتها » ، وراحت بالفعل تضاعف ما تغدقه على شوب العجوز من أفضال ومنن وهى تفكر فيما تكون عليه مزرعة شوب من نظام حسن عندما تئول اليها .

وارادت ان تمنع ابنها فاكولا من مغازلة ابنة شوب والاستيلاء على مزرعته والاستئثار بها « ولو قد تم ذلك لمنعتها على الأرجح من التدخل فى أى أمر» ، فلجأت الى تلك الحيلة التى تلجأ اليها عادة السيدات فى سن الأربعين ــ وهى أن تثير شوب على الحداد كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ،ولعل هذه الحيل الخبيثة وتلك التدابير التى تنطوى على الدهاء هى التى جعلت العجائز من النساء يرمين بالقول هنا وهناك اذا أفرطن فى الشراب بعض الافراط فى اجتماع مرح ، بأن سولوخا ساحرة ولاشك ، وان الفتى كيزيا كولوبينكو قد راى ذيلا ينبت فى ظهرها لايزيد طوله على طول مغزل الفلاحة ، وانها عبرت الطريق مسرعة منذ وقت قريب يرجع الى يوم الخميس الماضى متخذة صورة هرة سوداء ، وان خنزيرة قصدت مرة زوجة القس ، وصاحت كالديك ، ثم وضعت قبعة الأب كوندرات على راسها ، وركضت لا تلوى على شىء .

وقد اتفق أن مر بالمكان تيميش كوروستيافى حين كانت العجائز يروين هذه الروايات ، ولم يفته ان يقص عليهن كيف اتفق له فى الصيف ، قبل صيام بطرس الرسول تماما ، ان استلقى لينام فى حظيرة البقر مسندا راسه الى شىء من القش فراى بعينى رأسه ساحرة مرسلة الشعر لاترتدى من الملابس الا قميصا ، وقد شرعت تحلب البقر. وشلت اوصال الرجل وعجز عن الحركة ، فقد نال منه الذهول مناله ، ولطخت الساحرة شفتيه بشىء كريه جدا جعله يبصق اليوم التالى بأسره ، الا ان ذلك كله كان أمرا تحيط به الشكوك ، ذلك ان مساعد قاضى سوروتشينتسى كان هو الوحيد الذى يستطيع ان يرى ساحرة من الساحرات ، لذلك كان أعيان

القوزاق جميعا يلوحون بأيديهم وهم يسمعون هذه الروايات تلويحا ينم عن نفاد الصبر، وقد الفوا ان يجيبوا على مثل هذه الأقاويل: « انهن يكذبن ، أولئك العاهرات ! » .

ولما تسللت سولوخا من الفرن وعادت الى حالها الطبيعية اخذت ترتب شئون الدار وتضع كل شيء فى مكانه شأن ربة البيت الصالحة ، ولكنها لم تلمس الأكياس ، وقالت تحدث نفسها : «لقد جاء فاكولا بهذه الأكياس ، فعليه ان يخرجها بنفسه » ، وفى هذه الأثناء اتفق ان التفت الشيطان وهو يطير مندسا فى المدخنة ، فلمح شوب يتأبط ذراع جاره وهما يسيران على مسافة كبيرة من دارهما، فخرج من المدخنة طائرا وقطع عليهما الطريق وراح يثير اكواما من الجليد المتجمد ،فهبت عاصفة ثلجية ، وساد البياض الجو، وكان الجليد يدور بسرعة خلف الصديقين وامامهما حتى أوشك ان يطمس عيونهما وآذانهما وفمهما ، وعاد الشيطان طائرا الى المدخنة وهو مقتنع كل الاقتناع بأن شوب سيعود الى داره بصحبة صديقه ، وسيجد الحداد فى بيته ، ولعله يؤدبه تأديبا يكفه عن ان يمسك فرشاة الرسم زمنا طويلا حتى يمتنع عليه أن يرسم صوره الهزلية الساخرة .

والحق انه ما ان بدات العاصفة الثلجية فى الهبوب واخذت الريح تصك وجهيهما صكا ، حتى تمنى شوب أن لم يشرع فى رحلته ، ثم شد قبعته المصنوعة من الفراء على رأسه شدا محكما وراح يصب اللعنات على نفسه وعلى الشيطان وعلى صديقه ، غير ان غضبه كان مفتعلا ، ذلك ان هبوب العاصفة الثلجية افعم قلبه بالسرور ، فقد كان لايزال امامهما من الطريق ثمانية امثال ما قطعوه منه حتى يبلغا كوخ القندلفت ، فعادا أدراجهما ، وكانت الريح تلفح مؤخر رأسيهما ، الا انهما لم يستطيعا أن يريا شيئا فى غمرة الجليد الذى كان يدور بسرعة .

وقال شوب بعد ان سارا قليلا : « قف ياصاح ! فانى لأحسب اننا ضللنا الطريق ، اذ لا ارى امامى كوخا واحدا ، يا لها من عاصفة ثلجية ! امض قليلا فى ذلك الاتجاه ، وانظر انكنت تستطيع ان تجد الطريق ، اما انا فسأرقب الناحية الأخرى ، وما هذا الا

من فعل الشيطان الملعون الذى هيأ لى ان اضرب فى هذه العاصفة، لا تنس أن تنادى عندما تجد الطريق ، آه ، يا لكوم الجليد الذى القى به الشيطان فى عينى ! »

على ان الطريق غاب عن انظارهما ، فقد ابتعد صـديق شوب عنه ، واخذ يتخبط على غير هدى منتعلا حذاءه الطويل ، ووقع آخر الأمر على الحالة المعهودة ، وسرته هـذه اللقيـة الموفقة حتى نسى كل ما عداها ، ونفض الجليد عن ملابسه ، ودخـل الحانة لتوه ، غير عابىء مثقال ذرة بصديقه الذى تركه فى الخارج. وخيل الى شوب فى الوقت نفسه انه قد وجد الطريق ، فوقف وصـاح باعلى صوته ، الا ان صديقه لم يظهر، فاستقر رايه على ان يسير وحده ، ومضى قليلا فشاهد كوخه تحيط به أكوام الثلج من كل جانب وتعلو سقفه ، وصفق بيديه المتجمدتين ، ثم قرع الباب وصاح فى لهجة حازمة هاتفا بابنته أن تفتح له الباب .

وصـاح الحداد فى تجهم وعبـوس وهو يخـرج اليه : « فيم مجيئك الى هنا ؟ »

وعرف شوب صوت الحداد فتراجع قليلا ، وقال يحدث نفسه: « آه ، اذن فهذا ليس كوخى ، وما كان الحداد ليهبط على كوخى، على اننى قد تبينت بعد ان انعمت النظر انه ليس بكوخ الحداد ايضا . ترى كوخ من هذا ؟ لقد عرفته ! ولم اك قد تبينته بعد ! انه الكوخ الذى يقيم فيه ليفشنكو الأعرج الذى تزوج شـابة فى مقتبل العمر منذ عهد قريب ، ذلك ان كوخه هو الوحيـد الذى يشبه كوخى ، اذن فما الذى جاء بالحداد الى هنا ؟ وى ! لقد جاء يزور زوجة ليفشنكو الشابة ! وهذا هو السر فى الأمر! مرحى لقد فهمت الآن ! »

وقال الحداد وهو يدنو من شوب وقد ازداد تجهما وعبوسا : « من انت ؟ وما الذى يدعوك الى التسكع على أبواب الناس ؟ »

وقال شوب يحدث نفسه : « لن اكشف له عن شخصيتى والا ضربنى ابن الخنازير ضربا موجعا » ، ثم غير صوته واجابه بقوله: « اننى انا ايها الرجل الصالح ! لقد جئت أروح عنكم بانشـــــاد الـكوليادكى تحت نوافذكم »

فصاح فاكولا غاضبا : « اذهب الى الشيطان انت واناشيدك ، لماذا تقف هناك ؟ اتسمعنى ؟ اغرب عنى ! »

وكان شوب قد عزم بالفعل على سلوك هذا المسلك الفطن ، الا ان احساسه بالاضطرار الى الرضوخ لأوامر الحداد أثار فيه الضيق والحنق ، ويظهر ان روحا شريرة قد لكزت ذراعه واكرهته على الاعتراض ، فقال ملتزما الصوت الذى حدثه به أولا : « لم تصرخ هكذا ؟ انما اريد أن انشد الكوليادكى، وهذا هوكل ما فى الأمر!»

« وى ! ارى ان الكلام لايكفيك ! » ، ولم يلبث شوب أن شعر بضربة موجعة تصيب ذراعه .

فقال وهو يرتد قليلا : « أرى انك قد بدأت القتال ! »

وصاح الحداد وهو يدفع شوب دفعة أخرى : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! »

فقال شوب فى صوت ينم عنالألم والتبرم والوجل : «ماذا تفعل؟ ارى انك تقاتل بحرارة ، وتضرب أيضا ضربا موجعا »

فقال الحداد : « اغرب عنى ! اغرب عنى ! » ثم صفق الباب .

وقال شوب عندما أصبح وحيدا خارج الباب : « انظر كيف يتبختر ويختال ! بل حاول أن تدنو منه ! يا له من فتى ! انه ليحسن الظن بنفسه ! أو تحسب اننى لن انالك بسطوة القانون ؟ كلا ياصاحبى العزيز، فلأذهبن من فورى الى المأمور ، والقىعليك درسا ! ويستوى عندى ان تكون حدادا أو نقاشا ، ولكن لا محيص من ان القى نظرة على ظهرى وكتفى ، فانى أظن انه قد شابهما الآن السواد والزرقة . لاشك ان ربيب الشيطان كان يضربنى بقوة ، ويؤسفنى ان الجو بارد يمنعنىمنان اخلع معطفى. صبرا أيها الحداد الشرير، وليحطمنك الشيطان ، انت ودكانك معك ، ولاحملنك على الرقص ! آه ، يا للوغد اللعون ! ولكنى لا اظن انه فى داره الآن ، بل انى لأحسب أن الدار قد خلت الا من سولوخا . ايه ، انها ليست بعيدة علىكل حال ، وانى لمستطيع أن أمضى اليها، ثم ان الجو ممعن فى السوء ولن يفاجئنا احد ، وقد تواتينا الفرصة .. واها لى ! لقد اشتد هذا الحداد فى ضربى ! »

وحك شوب ظهره ثم سلك طريقا آخر، وخفف من المه بعض

الشيء ما كان يتوقعه من فرص مواتية فى لقائه المنتظر لسولوخا ، وأفقده ذلك الاحساس بالصقيع الذى كان صوت قرقعته يطغى فى جميع الطرق على هدير العاصفة ، وكانت ترتسم على وجهه من حين الى حين سمة كريهة من الرضا ، وان كانت العاصفة الثلجية قد غطت لحيته وشاربه بزبد من الجليد اخف وقعا من اى حلاق يمسك بأنف ضحيته فى تجبر واستبداد . ولو لم تكن غاشية الجليد قد اخفت كل شيء لرايت شوب يقف بعد ذلك بوقت طويل ويحك ظهره مغمغما : « لقد ضربنى الحداد الملعون فأوجع ! » ثم يمضى فى طريقه .

وبينما كان المخلوق المتعاجب الخفيف الحركة ، يطير من المدخنة بذيله ولحيته التى تحاكى لحية التيس ثم يعود اليها ، اذا بالجيب المتدلى من حمالة الى جانبه ، اجل الجيب الذى كان يضع فيه القمر الذى سرقه ، قد علق بشيء فى الموقد فانفتح ، وانتهز القمر هذه الفرصة فانطلق من مدخنة كوخ سولوخا وسبح فى سهولة ويسر يشق اجواز الفضاء ، وغمر الضوء كل شيء ، كأنما لم تفش الجو عاصفة ثلجية ، وتألق الجليد سهلا فضيا فسيح الأرجاء مرصعا بنجوم كأنها البللور ، وبدا ان الصقيع قد خفت برودته ، وظهرت للعيان جماعات الفتيان والفتيات يحملون الأكياس ، وانسابت الأناشيد ، وانبعثت جماعات المنشدين تصدح بالكوليادكي تحت النوافذ لا تكاد تترك كوخا الا حيته بالغناء .

وما كان أروع ضوء القمر! وأين أين القلم الذى يستطيع ان يجد من الكلمات ما يستطيع ان يعبر به عن مقدار مايتملك النفس من سرور فى مثل هذه الليلة؟ اذ يختلط المرء بجماعة الفتيات المنشدات الضاحكات ويندمج وسط هؤلاء الفتيان الذين لايجدون ضربا من ضروب اللهو والمرح توحى اليهم به هذه الليلة الباسمة المرحة الا التمسوه . ان الدفء ليسرى فى الأوصال تحت العباءة السميكة ، وتزداد الوجنتان من الصقيع وهجا فوق وهج ، ويغرى ذلك الشيطان الخبيث نفسه بالأذى والضرر .

واقتحمت جماعات من الفتيات يحملن الأكياس كوخ شوب ، واجتمعن حول اوكسانا ، واصاب أذنى الحداد وقر من صياحهن

وضحكهن وماكن يروينه من قصص ، ورحن يتنافسن فى رواية نبأ من الأنباء للغادة الفاتنة وفى افراغ أكياسهن والمفاخرة بالأرغفة الصغيرة والمقانق « السجق » ولقيمات القاضي المصنوعة من الجبن التى جمعن منها عددا لابأس به بانشادهن الأناشيد ، ولاح السرور على وجه اوكسانا ، فأخذت تحدث هذه تارة ، ثم تحدث تلك تارة أخرى ، وتضحك ضحكا متصلا لاينقطع .

وكان الحداد ينظر بعين الحسد والغضب الى هذا المرح ويلعن ما أخذ به القوم انفسهم من انشاد الكوليادكى ،وان كان هو شخصيا مولعا به

وصاحت الغادة التى استخفها المرح ملتفتة الى فتاة من الفتيات: « آه يا اوداركا ! انك ترتدين خفا جديدا ! ما أجمله ! وى ، وعليه وشى من ذهب أيضا ! يالك من فتاة سعيدة يا اوداركا ، فقد وهب الله لك رجلا يشترى لك كل شيء ، اما أنا فأين من يشترى لى مثل هذا الخف البديع ؟ »

وقال الحداد : « لا تحزنى ياحبة قلبى اوكسانا ، فسآتيك بخف لم تحظ به الا القليلات »

فقالت اوكسانا وهى ترمقه بنظرة سريعة تنم عن الاباء والاستعلاء: « انت ؟ بودى ان أعرف من أين تأتى لى بخف ارضى بأن انتعله فى قدمى؟ من يدرى لعلك توافينى بالخف الذى تنتعله القيصرة نفسها!»

وصاحت الفتيات ضاحكات : « انظرن اى خف تريد ؟ »

ومضت الفاتنة تقول فى زهو: « أجل ! ولتشهدن على جميعا ، لو ان فاكولا الحداد اتى لى بالخف الذى تلبسه القيصرة نفسها فاننى أعدكن وعدا صادقا بأن اتزوجه فى اليوم نفسه ! »

وخرجت الفتيات وفى صحبتهن هذه الفتاة الفاتنة المتقلبة .

وقال الحداد يحدث نفسه وهو يتبعهن : « اضحكن اذا شئتن ! فانى أسخر من نفسى ! ولست أدرى ماذا دهانى ! انها لاتحبنى ـ وى ! واى ضير فى هذا ؟ كأن العالم قد خلا الا من اوكسانا ، احمد الله فان القرية لحافلة بغيرها من الفتيات الجميلات ، وماذا تكون اوكسانا ؟ انها لن تكون أبدا ربة بيت صالحة ، فهى لاتحسن

الا التانق ، ولاضعن حدا لهذا حقا ، فقد آن لى ان أكف عن السخرية بنفسى ! »

واعتزم الحداد ان يصطنع الحزم ، ولكن روحا شريرة اطلقت فى النحظة نفسها طيف اوكسانا يسبح امامه ، وتمثلت له الفتاة ضاحكة ساخرة وهى تقول :« ائتنى بخف القيصرة أيهاالحداد اتزوجك!»، فثارت مشاعره كلها ولم يستطع ان يفكر الا فى اوكسانا .

وانبعثت حشود المترنمين بالكوليادكى زمرا من الفتيان والفتيات يسعون مهرولين من شارع الى شارع . الا ان الحداد مضى فىطريقه لايرى شيئا ، ولم يشترك فى المرح الذى كان يحبه اكثر من أى انسان آخر .

وكان الشيطان فى هذه الأثناء يطارح سولوخا الغرام بحرارة فيقبل يدها فى رقة كما يفعل مساعد القاضى حين يقبل يد ابنة القس ، ويضع يده على قلبه ويتأوه ، ويقول لها فى غلظة : « انها ما لم ترض باشباع هواه وتجزيه على اخلاصه الجزاء الحسن هان عليه كل أمر ، ومن يدرى ؟ لعله يلقى بنفسه فى الماء ويجعل روحه تنطلق الى الجحيم لا تلوى على شىء . ولم تكن سولوخا قد بلغت من القسوة هذا المبلغ ، ثم ان الشيطان كان كما نعلم يسايرها كل المسايرة ، فقد كانت مولعة بأن تحيط بها جمهرة من الناس ، ويندر ان تراها بغير صحبة ، على انها كانت تتوقع ان تقضى هذا المساء وحيدة ، ذلك ان أعيان القرية جميعا كانوا قد دعوا للاحتفال بليلة عيد الميلاد فى كوخ القندلفت ، غير ان الأمور جرت على غير ما تشتهى : فما ان بدا الشيطان يلح فى طلبه حتى سمعا فجأة قرعا على الباب وطرق آذانهما صوت شيخ القرية البدين ، وهرعت سولوخا لتفتح الباب ، على حين تسلل الشيطان الخفيف الحركة الى كيس ملقى على الأرض .

ونفض شيخ القرية الجليد عن قبعته وشرب قدحا من الفودكا من يد سولوخا ، ثم انبأها بأن العاصفة الثلجية قد حالت بينه وبين الذهاب الى كوخ القندلفت ، فلما رأى ضوءا فى كوخها جاء لزيارتها معتزما ان يقضى السهرة معها .

وما ان اتم شيخ القرية قوله هذا حتى سمعا طرقا على الباب

كما سمعا صوت القندلفت .

فهمس الشيخ يقول : « اخفينى فى اى مكان فانى لا أريد ان القى القندلفت الآن »

وفكرت سولوخا لحظة فى مكان تستطيع ان تخفى فيه هذا الزائر الضخم الجثة ، واختارت آخر الأمر اكبر كيس للفحم ، وأفرغت الفحم فى برميل ، ثم تسلل الشيخ الى الكيس بشاربه وقبعته وفرائه وكل ما عليه !

ودخل القندلفت الكوخ وفرك يديه ثم أخبر سولوخا بأنه لم يحضر حفلته أحد ، وما اسعده بأن اتيحت له هذه الفرصة لينعم بزيارتها ! اما العاصفة الثلجية فهو لا يخشاها ، ثم دنا منها ولمس بأصابعه الطويلة ذراعها العارية البضة ، وهو يسعل ويتكلف الابتسام، ثم قال فى لهجة تنم عن الدهاء والرضا جميعا :

« وما هذا الذى حبيته به هنا اى سولوخا الرائعة ؟ » .، وما ان قال هذا حتى ارتد قليلا .

فأجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا أوسيب‌نيكيفوروفتش؟»

فصاح القندلفت وقد سرته براعة استهلاله كل السرور: « آه ! ذراعك ، اليس كذلك ؟ ها ــ ها ــ ها ! » وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

ثم قال مصطنعا اللهجة نفسها وهو يدنو منها مرة أخرى ، ويلمس عنقها لمسا خفيفا ، ويرتد مرة ثانية كما فعل فى المرة الأولى: « وهذا اى سولوخا ياحبة القلب ؟ »

فأجابت سولوخا: «ماذا تعنى؟ اذراعى يا أوسيب‌نيكيفوروفتش؟ انه عنقى وقلادتى ! »

« آه ! قلادتك ، ها ــ ها ــ ها ! » وراح القندلفت يذرع الغرفة مرة اخرى وهو يفرك يديه .

« وهذا اى سولوخا يازينة النساء ؟ » ، ولم يك يدرى أحد ما الذى اعتزم القندلفت أن يلمسه بعد ذلك بأصابعه الطويلة لو لم يسمعا فجأة قرعا على الباب وصوت شوب القوزاقى .

وصاح القندلفت فى فزع : « يا الهى ! فضولى ! ماذا يكون من

امر رجل فى مكانتى لو ضبط هنا ! تالله ليبلغن ذلك مسامع الاب كوندرات ! »

الا ان مخاوف القندلفت كانت ، فى حقيقة الامر ، متجهة الى ناحية اخرى ، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يتصل نبأ افعاله بمسامع شريكة حياته التى نحلت يدها القاسية قفاه الكث أو كادت .

فقال وقد ارتعدت أوصاله جميعا « بالله عليك اى سولوخا الطاهرة النقية ! ان شفقتك الحانية كما يقول انجيل لوقا الاصحاح الثالث و .. أواه ياعزيزتى ان شخصا يقرع الباب ، أجل ان شخصا يقرع الباب ! اخفينى فى مكان ما ! » .

وقلبت سولوخا الفحم من كيس آخر، وتسلل اليه القندلفت ، ولم يك ضخم الجثة ، واستقر فى صميم قاعه حتى كان من اليسير ان تهيل عليه ملء نصف غرارة من الفحم .

وقال شوب وهو يدخل الكوخ : « طاب مساؤك ياسولوخا ! لقد جئت على غير انتظار ، أليس كذلك ؟ وما كنت تتوقعين قدومى، أو كنت تتوقعينه ؟ » ، ومضى شوب يقول ، وقد انشرح صدره وعلى وجهه تعبير له مغزى يوحى بأن عقله البليد كان يعمل متأهبا لالقاء ملحة ساخرة مسلية : « لعلى تطفلت عليك ، أو لعلك كنت تستضيفين شخصا هنا ، أو لعلك اخفيت أحدا فى هذا المكان ، ايه ! » ، وضحك شوب وقد فتنته ملاحظته هذه ، الا انه كان يحس فى قرارة نفسه بالانتصار ، فقد ظن انه هو الرجل الوحيد الذى سوف يحظى برعاية سولوخا .. « والآن ياسولوخا على بكأس من الفودكا التو واللحظة ، فانى لأحسب ان حلقى قد تجمد وجف بفعل هذا الصقيع الملعون ، يا للجو الذى ساقه الله الينا فى ليلة عيد الميلاد هذه ! ويا لها من عاصفة ثلجية يا سولوخا ! آه ، لقد تجمدت يداى فلا استطيع فك ازرار جلد الماعز الذى ارتديه يا لها من عاصفة ثلجية ! »

ودوى صوت فى الشارع يهتف : « افتحى الباب ! » ، وصحبته طرقة على الباب .

فقال شوب وقد توقف عن الحركة : « ان شخصا يقرع الباب»

ودوى الصوت وقد ازداد علوا : « افتحى ! »

فصاح شوب وهو يتناول قبعته : « انه الحداد ، هلا تخفينى يا سولوخا حيث شئت ! فما من شىء فى العالم يغرينى بأن أظهر أمام ابن الخنازير الملعون هذا ! الا فليبله الله بثؤلول ككومة القش تحت كل عين من عينيه ابن الشيطان هذا ! »

وانتاب الفزع سولوخا نفسها، فأخذت تجرى هنا وهناك كالمتخبط المسلوب اللب ، ونسيت ما كانت تنوى القيام به ، ثم أشارت الى شوب بأن يندس فى الكيس الذى كان القندلفت يجلس مختبئا فيه بالفعل ، ولم يجرؤ القندلفت المسكين ان يفصح عن المه بالسعال أو التأوه حين استوى القوزاقى الثقيل فوق رأسه او كاد ، ووضع كل فردة من فردتى حذائه المتجمد على جانب وجهه .

ودخل الحداد الكوخ دون ان ينطق بكلمة واحدة أو يخلع قبعته، وهوى على الأريكة أو كاد ، وقد لاح للأنظار انه ثائر منفعل الى أقصى حد .

وما ان همت سولوخا باغلاق الباب وراءه حتى طرق طارق الباب مرة أخرى ، وكان الطارق هو القوزاقي سفير بيجوز ، ولم يكن من المستطاع اخفاء الرجل فى كيس ، فقد خلا المكان كله من كيس كبير يسع هذا الرجل الذى كان أضخم من شيخ القرية وأطول من باناس جارشوب ، فقادته سولوخا الى حديقة الخضر لتسمع منه كل ما كان يريد ان يقصه عليها .

واخذ الحداد يقلب الطرف شارد الفكر فى انحاء كوخه ، منصتا بين الفينة والفينة الى أصوات المنشدين تنساب بعيدا مجتازة القرية ، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس « ما بال هذه الأكياس ملقاة هنا ؟ لقد كان من الواجب ان تنقل من هذا المكان منذ وقت طويل ، لقد سلب هذا الحب الطائش منى اللب ، وجعلنى كالأبله سواء بسواء ، فان غدا لعيد الميلاد ولا تزال النفايات من كل نوع باقية فى الكوخ ، لأنقلنها الى الدكان ! »

وانحنى الحداد من فوره على الأكياس الضخمة وربطها ربطا محكما وتأهب لرفعها على كتفيه ، على ان فكره كان قد شرد فيما يظهر، ولا يعلم الا الله أين شرد ، ولا سمع كيف راح شوب يلهث عندما التف بشعر رأسه الخيط الذى كان الكيس مربوطا به ،

وكيف شرع شيخ القرية البدين فى الفواق بصوت واضح كل الوضوح.

وكان الحداد يقول : « اما من حيلة تخرج اوكسانا الشقية من راسى ؟ لا اريد ان أفكر فيها ، ولكنى لا انقطع عن التفكير فيها ، ويشاء الحظ الا افكر الا فيها ، ترى ما بال الأفكار تتسلل الى رأسى بالرغم منى ؟ يا للعنة ! يخيل الى ان الأكياس قد ازدادت ثقلا عما كانت عليه ، ولاشك ان شيئا آخر غير الفحم قد وضع فيها ، يا لى من أحمق ! لقد نسيت ان كل شىء يبدو لى الآن اثقل مما كان ، وكنت فى سالف الأيام أستطيع ان اثنى قطعة نحاسية من النقود اوحدوة حصان بيد واحدة ، أما الآن فلااستطيع ان ارفع بعض أكياس الفحم ، ولعل الريح تحملنى من بعد » ، ثم صاح مستجمعا أطراف شجاعته بعد ان سكت لحظة : « كلا ! لست جبانا ! لن أدع مخلوقا يسخر منى ! لو ان امامى عشرة اكياس كهذه لرفعتها جميعا » ، ورفع بخفة الكيسين اللذين كان ينوء بحملهما رجلان قويان ووضعهما على كتفيه ، ثم مضى يقول وهو يتناول الكيس الصغير الذى انكمش الشيطان قابعا فيه : « لأحملن هذا ايضا ، فاننى لأحسب اننى وضعت فيه أدواتى » ، وما ان فرغ من قوله هذا حتى غادر الكوخ وهو يصفر لحن الأغنية : « لن تطيب لى الحياة مع اية زوجة ! »

واخذ الغناء والضحك والصياح يعلو ثم يعلو فى طرقات القرية ، وزاد القادمون من القرى المجاورة فى جماهير القوم المتزاحمة المتدافعة ، وامتلأت جعبة الفتيان بما فيها من معاكسات ودعابات حمقاء ، وما أكثر ما كانت تنبعث من بين اناشيد الكوليادكى أغنية مرحة يهتف بها شاب من شباب القوزاق على البديهة ! وتنطلق فجأة عقيرة واحدة من الجماعة بأنشودة يحيى بها السنة الجديد بدلا من أنشودة عيد الميلاد صائحا بأعلى صوته :

ها هو ذا عيد الميلاد يولى !

فلا تدخروا شيئا !

وجودوا علينا بكعكة او فطيرة !

او طاس من العصيدة !

او حبل من المقانق !

وكان هذا الماجن يكافأ بعاصفة من الضحك ، وتفتح النوافذ على مصاريعها وتمتد يد ذابلة لامراة عجوز بواحد من الفانق أو بقطعة من الفطير « ذلك انه لم يك يبقى فى الأكواخ الا عجائز النســاء والآباء من أهل الرزانة والوقار » ..

وكان الفتيان والفتيات ينافس بعضهم بعضا فى فتح أكياسهم وتلقى غنائمهم ، ويجتمع الفتيان من كل حدب وصوب فى صعيد واحد يحيطون بجماعة من الفتيات فيعلو صخبهم ويرتفع ضجيجهم ، وكان أحدهم يلقى كرة من الثلج ويخطف آخر كيسا مليئا بأطايب المأكولات على اختلاف اشكالها ، وراحت الفتيات فى مكان آخــر يقبضن على فتى ويدفعنه فينكفىء على وجهه هو وكيسه فى الجليد، وبدا أن الجميع كانوا على استعداد للمرح طوال الليل ، فقد كانت الليلة رائعة كل الروعة ! وقد تجلى ضوء القمر وزاده بريق الجليد تألقا .

ووقف الحداد بأكياسه لايبدى حراكا ، وخيل اليه انه سمع بين زحمة الفتيات صوت اوكسانا وضحكتها الرنانة فأخذ كل عرق فيه ينبض ، والقى بالأكياس على الأرض فتأوه القندلفت الذى كان يقبع فى قرار احدها مما ناله من رضوض وفاق شيخ القرية فواقا عاليا، ثم سار الحداد متمهلا والكيس الصغير على كتفيه صحبة طائفة من الفتيان يلاحقون جمهرة من الفتيات سمع بينهن صوت أوكسانا .

« أجل انها هى ! وقد وقفت كالملكة وعيناها السوداوان‌تتألقان، وراح فتى وسيم يلقى على مسامعها شيئا ، ولابد ان هذا الشيء يبعث على الضحك لأنها تضحك ، بيد انها تضحك دائما » ، ولم يدر الحداد كيف شق طريقه وسط زحمة الناس ووقف الى جوارها ، وان كان فى هذا من قلة الفطنة ما فيه .

وقالت الحسناء والابتســامة التى سلبت لب فاكولا أو كادت لاتزال تداعب شفتيها ، « آه انت هنا يا فاكولا ! طاب مساؤك هل اصبت الكثير لقاء أناشيدك ؟ وى ! ما أصغر الكيس الذى‌تحمله! أو جئت بالخف الذى تلبسه القيصرة ؟ ائتنى بالخف أتزوجك!» ، ثم ضحكت وجرت مع الفتيات الأخريات .

ووقف الحداد كأنما سمر فى مكانه ، ثم غمغم آخر الأمرقائلا :

« كلا ، لا أستطيع ان أجتمل هذا ، فانه فوق طاقتي ، ولكن ، يا الهي ! لم وضعت فيها هذه الفتنة الطاغية ؟ ان عينيها وكلماتها وكل ما فيها يلسعني لسعا ، اى والله يلسعني ، كلا لا استطيع ان اتمالك نفسي ،وقد آن لي ان اضع حدا لكل هذا ، الا فلتحل بي اللعنة ! ولأذهبن واغرق نفسي فى فجوة بين الثلوج ، وعندئذ ينتهي الأمر كله ! »

ثم سار فى خطا حازمة ولحق بجماعة الفتيات حتى وقف بحذاء اوكسانا ، وقال فى صوت ينم عن العزم : « وداعا يا اوكسانا ! ولتبحثي لك عن اى حبيب شئت ، واسخرى بمن شئت ، اما انا فلن يقع على بصرك مرة أخرى فى هذا العالم » .

وبدت الدهشة على الحسناء ، وهمت بأن تقول شيئا لولا ان الحداد مضى مهرولا وهو يلوح بيده .

وصاح الفتيان وهم يرون الحداد يجرى : « الى اين يا فاكولا؟»

فصاح الحداد مجيبا : « وداعا ايها الفتيان ! اسأل الله ان يكتب لنا اللقاء فى العالم الآخر، ولكننا لن نعود للمرح فى هذا العالم ، وداعا ! واذكروني بالخير ! وقولوا للأب كوندرات ان ينشد قداسا على روحى الآثمة ، فقد عصيت الله وآثرت عرض الدنيا علىانجاز رسم الشموع لأيقونات القديس والعذراء البتول ، وكل ما تجدونه فى صندوقى من سلع هبة منى للكنيسة ، وداعا ! »

وما ان فرغ الحداد من قوله هذا حتى انطلق يحمل الكيس .

وقال الفتيان :« لقد ذهب عقله ! »

وغمغمت امراة عجوز كانت تمر بالمكان فى لهجة تنم عن التقى والورع : « نفس ضالة ! ولأذهبن واقول للقوم : ان الحداد قد شنق نفسه ! »

وكان فاكولا فى هذه الأثناء قد توقف ليسترد انفاسه بعد أن جرى مجتازا بعض الطرقات ، وقال يحدث نفسه : « فيم انطلاقى هكذا كأننى فقدت كل شيء ؟ ولألتمسن وسيلة أخرى واحدة ، ولأمضين الى باتسيوك الزابورجاوى ذى الكرش ، فانه يعرف فيما يقال الشياطين جميعا ، ويستطيع ان يفعل مايريد ، أجل لأمضين اليه ، فقد ضلت روحى على كل حال .

وعندئذ اخذ الشيطان يقفز فرحا فى الكيس ، وكان قد قبع فى مكانه وقتا طويلا لا يأتى بحركة ، الا ان الحداد ظن انه لوى الكيس بيده على نحو ما ، فأثار هذه الحركة ، ولم يكن منه الا ان لكز الـكيس بقبضته القوية ، وهزه على كتفيه ، ومضى ميمما شـطر باتسيوك ذى الـكرش .

وكان باتسيوك قوزاقيا زابوروجاويا فى وقت من الأوقات على انه لم يدر احد : « اطرد من المعسكر ام هرب من زابوروجى من تلقاء نفسه ؟ »

وكان الرجل يقيم فى ديكانكا منذ وقت طويل لعله يبلغ عشر سنوات او خمس عشرة سنة ، فقد راح فى صـدر حياته يعيش عيشـة الزابوروجاوى القح ، لا يقوم بأى عمل وينام ثلاثة أرباع النهـار ، ويزدرد من الطعام قدر ما تحصده ست محاصـد ، ويشرب ملء سطل من الفودكا او نحو ذلك فى وقت واحد ، على ان جسمه كان يتسع لهذا كله ، فهو وان لم يكن فارع الطول كان مبسوط الجنبين بعض الشيء ، ثم ان السروال الذى الف أن يرتديه كان من الفضفضة بحيث لا يظهر اثر لساقه مهما أفسح فى خطاه ، فاذا سار مجتازا الطريق خيل اليك انه برميل من براميل مقطرى الخمور ، ولعل هذا هو السر فى تلقيبهم اياه بذى الكرش ، وقد عرف القوم جميعا انه ساحر قبل ان يمضى وقت طويل على قدومه الى القرية ، فاذا أصيب احد بمرض استدعى باتسيوك فى الحال ، وكان حسبه ان يهمس ببضع كلمات فتزول عنه العلة ، واذا اتفق ان سيدا جائعا غص حلقه بعظم سمكة بادر باتسيوك فلطمة على ظهره ببراعة حتى يستوى العظم فى مجراه الصحيح دون ان ينال حلق السيد اى اذى ، أما فى السنوات الأخيرة فقلما كان باتسيوك يشاهد فى اى مكان وربما كان السبب فى ذلك هو الكسل ، او ربمـا كان الرجل يجد مشقة عاما بعـد عام فى أن يضغط جسـمه ضغطا حتى يسـتطيع أن يخرج من الباب ، واضطر الناس منذ عهد قريب ان يقصدوه اذا كانوا فى حاجة اليه .

وفتح الحداد الباب فى شيء من التهيب فرأى باتسيوك يجلس متربعا على الأرض امام برميل صغير عليه طاس من لقيمات القاضى ،

وكان هذا الطاس فى مستوى فمه ، كأنما وضع فى هـذا الموضع عن قصد ، وكان يحني رأسه قليلا تجاه الطـاس دون ان يحرك اصبعا ثم يرتشف المرق ، ويمسك لقيمات القاضى بين أسنانه من حين الى حين .

وقال فاكولا بينه وبين نفسه : « وى ، ان هذا الرجل لأكسل من شوب نفسه ، ذلك ان شوب يأكل بملعقة ، اما هو فيكسل ان يرفع يده ! »

وما من شـــــك ان باتسيوك قد شغلته لقيمات القاضي حتى استحوذت على تفكيره ، فقد بدا عليه انه لم يتـنبه اطـلاقا الى دخول الحداد الذى انحنى له انحناءة كبيرة بمجرد أن وطئت قدمه عتبة الدار .

وقال فاكولا وهو ينحنى مرة اخرى : « لقد جئت التمس منك فضلا يا باتسيوك » .

ورفع باتسيوك البدين رأسه ، وعاد مرة أخرى يزدرد لقيمات القاضى .

وقال الحداد وقد استجمع أطراف شجاعته : « يقول الناس عنك ـ وانا لا اقصد بذلك الاساءة ـ اجل أقول هذا ولم يخطر ببالى قط ان اسىء اليك ـ انك تمت بصلة من القربى للشيطان » .

وروع فاكولا اذ نطق بهذه الـكلمات ، فقد ظن انه عبر عن نفسه تعبيرا جافيا فظا ولم يهذب لغته تهذيبا كافيا ، وتوقع ان يتناول باتسيوك البرميل والطاس جميعا ويقذف بهما فى وجهه لايلوى على شىء ، فتنحى قليلا وغطى وجهه بردنه حتى لايصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضى الســـاخن ، الا أن باتسيوك رفع عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضى من جديد .

وتشجع الحداد وصح عزمه على ان يمضى فى حديثه .

« لقد جئت اقصدك يا باتسيوك ، متعك الله بـكل شىء ورزقك من الأطايب على اختلاف اشكالها الـكثير ، ومن الخبز ما يناسب هذا القدر! » « وكان الحداد يستطيع أحيانا ان يتألق فى عبارته : وقد ألف هذا خلال اقامته فى بلتاوة عندما كان ينقش سور الضابط » « انى لا اجد أمامى انا المذنب الا الخراب ، وليس لى فى هـذا

العالم من معين ولا نصير ! وليكن ما يكون فانى لا أجـد مناصا من التماس العون حتى من الشيطان نفسه » ثم مضي الحداد فى قوله اذ رأى باتسيوك لايزال مخلدا الى الصمت : « اى باتسيوك ، ما عسى ان أصنع ؟ »

فأجابه باتسيوك وهو ماض فى التهام لقيمات القاضى دون ان يرفع بصره : « اذا كنت فى حاجة الى الشيطان فاذهب اليه » .

فقال الحداد وهو ينحني له انحناءة أخرى : « وهذا هو ماحدا بى الى القدوم اليك ، فانى اعتقـد انه ما من مخلوق فى العالم يعرف الطريق اليه سواك »

ولم ينبس باتسيوك ببنت شفة بل اتى على مابقى من لقيمـات القاضى .

والحف الحداد فى طلبه قائلا : « اشملني بفضلك ايها الرجـل الصالح ولا ترفض طلبى ! ولن ابخل عليك اذا دعت الحاجة ولتكن شيمتنا فى ذلك ماجرى عليه كرام القوم ، ولك ماشئت من لحم الخنزير او المقانق او دقيق الحنطة السوداء أو الدقيق الأبيض أو الكتان أو الدخن ، فقل لى على الأقل كيف التمس الطريق الى الشيطان ؟ »

وقال باتسيوك فى غير ما اكتراث وهو ملازم مكانه : « أن من يحمل الشيطان على كتفيه لايذهب بعيدا فى طلبه ! »

وتعلقت انظار فاكولا بالساحر كأنما كان تفسير هـذه الـكلمات مسطورا على جبينه ، وبدت على وجه فاكولا سيماء من يتساءل فى صمت : « ترى ماذا يعنى ؟ » ، وفتح فمه متأهبا لالتقـاط اول كلمة ينطق بها الساحر كما يزدرد لقمة القاضى .

ولـكن باتسيوك كان قد اخلد للصمت .

ثم لاحظ فاكولا انه لم يكن أمام الساحر برميل ولا لقيمات قاض، وانما كان يقوم على الأرض بدلا منهما طاسـان من الخشب : أحدهما مملوء بالفطائر المحشوة بالجبن والآخر مملوء بالقشـدة ، وتعلقت عينا فاكولا وافكاره بهذه الأطايب على غير وعى منه ، وراح يحدث نفسـه قائلا : « لنر الآن كيف يأكل باتسيوك هذه الفطائر ، ولاشك ان الأمر لن يقتضيه ان ينحنى ليأتى عليها كما فعل بلقيمات

القاضي ، وما كان ليستطيع لو اراد ، فقد كان عليه ان يغمسها اولا فى القشدة »

وما ان مر بذهنه هذا الخاطر حتى فتح باتسيوك فمه ، ونظر الى الفطائر ، ثم ازداد فمه اتساعا ، وفى تلك اللحظة قفزت فطيرة من الطاس وانحطت فى القشدة ثم انقلبت على وجهها الآخر ثم قفزت الى اعلى ، وطارت مندفعة الى فمه رأسا ، واتى باتسيوك عليها ، ثم فتح فمه من جديد ، وسلكت فطيرة اخرى هذا المسلك نفسه ، ولم يك باتسيوك ليتحمل من المشقة الا مضغ الفطيرة وازدرادها .

وقال الحداد يحدث نفسه : « بالله ! اى عجيبة هذه ؟ » ، وفغر فاه دهشة وفى اللحظة نفسها أدرك ان فطيرة تنطلق فى طريقها الى فمه هو وقد لطخت شفتيه بالقشدة فعلا ، فدفع الفطيرة عنه، ومسح شفتيه ، ثم راح يفكر فى العجائب التى يحفل بها هذا العالم وما يتوصل به الشيطان من مكر ودهاء ليضل الانسان عن سواء السبيل ، محدثا نفسه بأنه ما من أحد يستطيع مساعدته الا باتسيوك .

« سانحنى له مرة اخرى ، لعله يفصح عما يبطن .. وى لبئس الشيطان ! ان اليوم يوم صيام ومع ذلك فهو يأكل الفطائر! يا لى من غبى حقا ! اقف هنا واهم بارتكاب المعصية ! » ، واندفع الحداد الورع لساعته خارجا من الكوخ لايلوى على شىء .

على ان الشيطان الذى كان قابعا فى الكيس يحدق فى فريسته لم يكن يستطيع ان يدع هذا الصيد الثمين يفلت من بين يديه فما ان وضع الحداد الكيس على الأرض حتى انفلت الشيطان منه وركب عنقه .

وسرت رعدة باردة فىجسم الحداد، وامتقع لونه، وانتابه الخوف، ولم يدر ماذا يفعل ، وهم بأن يرسم اشارة الصليب الا انالشيطان ادنى انفه الذى يشبه انف الكلب من اذن فاكولا اليمنى وقال : « اننى انا صديقك ، ولن أدخر شيئا فى سبيل صديق وزميل!» ، ثم هتف فى اذنه اليسرى قائلا : « لأعطينك من المال ما تشاء » ، ومال بانفه على اذن الحداد اليمنى مرة اخرى وهمس قائلا :

« لتكونن اوكسانا من نصيبك فى هذا اليوم بالذات » .

ووقف الحداد ساكنا لايبدى حراكا وقد استغرق فى التفكير.

ثم قال آخر الأمر : « مرحى ، مرحى ، اذا كان هذا هوالثمن فانى مستعد أن اكون طوع بنانك ! » .

ولوح الشيطان بيديه ابتهاجا ، وراح يقفز على عنق الحدادصاعدا هابطا ثم قال بينه وبين نفسه : « والآن قد قضى على الحداد ! ولأجزينك الآن على كل ما رسمته ريشتك من صور، وعلى كل ما رويته من قصص قذفت بها فى حق الشياطين ! ترى اى حديث يدور بين رفاقى حين يعلمون بأن أتقى رجال القرية جميعا قد وقع فى قبضة يدى ! »

وضحك الشيطان فرحا مسرورا وهو يفكر فيما أتيح له من تعبير زبانية الجحيم الطوال الذنب جميعا ، وكيف ان الغضب سوف يشتد بالشيطان الأعرج الذى كانوا يعدونه أدهى الشياطين طرا .

وصاح الشيطان وهو يتشبث بعنقه كأنما كان يخشى أن يهرب : « اى فاكولا ، انك لتعلم انه ما من أمر يبرم بغير عقد » .

فقال الحداد : « اننى لعلى استعداد ! وقد علمت ان العقود فى شريعتكم تمهر بالدم ، فصبرا ، ولأخرجن من جيبى مسمارا » .

وعندئذ وضع يده خلفه وأمسك الشيطان من ذيله .

فصاح الشيطان وهو يضحك : « انك لبارع فى الدعابة ! هلم ، ودعنى وشأنى ، فحسبك ما الحقته بى من أذى ! » .

وصاح الحداد :« اصبر قليلا ياصديقى ! مارأيك فى هذا ؟» ، وما أن فرغ من قوله حتى رسم اشـــارة الصليب فاذا بالشيطان يصبح فى وداعة الحمل ، ثم قال الحـــداد وهو يجذبه من ذيله الى الأرض : « اصبر قليلا ولأعلمنك كيف توقع بالصالحين والمسيحيين الصادقين فى المعصية ! »

وهنا قفز الحداد واعتلى ظهر الشيطان منفرج الساقين ورفع يده ليرسم اشارة الصليب .

فتأوه الشيطان مستجيرا : « الرحمة يا فاكولا ! ولافعلن كل ما تريد ، أى نعم كل ما تريد ، فابق على حياتى ولا ترسمن اشارة الصليب المهلكة ! » .

« آه ! أهكذا تتغير لهجتك ايها الألمانى الملعون ! انى لأعرف الآن ما سأصنع بك ، احملنى على ظهرك فى الحال ! اتسمعنى ؟ وطر كما يطير العصفور ! » .

وسأله الشيطان الحزين : « الى أين ؟ » .

«الى بطرسبرج ، الى القيصرة راسا ! » ، وكاد الحداد يغشى عليه من الرعب ،اذ أحس بأنه يشق أجواز الفضاء .

وقفت اوكسانا وقتا طويلا تفكر فى الكلمات الغريبة التى فاه بها الحداد : وانبعث من اعماقها هاتف يقول لها : « انها قست عليه فأمعنت فى القسوة ، وماذا يكون لو صح عزمه على ان يرتكب أمرا ادا ؟ لست اعجب ان هو فعل ! ولعل حزنه يؤدى به الى الوقوع فى هوى فتاة أخرى ، فيدعوها فى غضبه أجمل الجميلات فى القرية ، ولكن كلا ، فهو يحبنى وقد بلغت الغاية فى الحسن والبهاء ! لن يهجرنى لأى سبب ، وانما هو يتحايل ويتظاهر، ولن تنقضي عشر دقائق حتى يعود ليرانى ، أجل ، انى لقاسية حقا بل ممعنة فى القسوة ، ويجب أن أدعه يقبلنى كما لو كان يفعل ذلك على الرغم منى ، أفلا يسر ويرضى بذلك ؟ » . وعادت الحسناء العابثة الى المزاح مع اترابها .

وقالت احداهن : « صبرا ، فقد نسى الحداد كيسيه ، الا ما ابشعهما من كيسين كبيرين ! لقد جمع من انشاده أناشيد عيد الميلاد أكثر مما جمعنا ، ويخيل الى ان القوم قد وضعوا له ربع شاة فى كل منهما ، ولا أشك انهم دسوا له أيضا عددا لايحصى من القانق والأرغفة ، مرحى ! لسوف يتوافر لنا ما يكفى الاحتفال بأسبوع عيد الميلاد كله » .

وسألت اوكسانا : « هل هذان الكيسان للحداد ؟ اذن فلنعجل بجرهما الى كوخى ولننعمن النظر فيما وضعه فيهما » .

ووافقت الفتيات جميعا على هذا الاقتراح ضاحكات .

وصاحت لمة الفتيات كلهن وهن يحاولن نقل الكيسين : « ولكننا لا نستطيع رفعهما ! »

فقالت اوكسانا : « انتظرن لحظة ، ولنمض فى طلب زلاقة ثم ننقلهما عليها ! » . وجرت الفتيات باحثات عن زلاقة .

وكان الأسرى قد ضاقوا ذرعا ببقائهم فى الكيسين ، وان كان القندلفت قد ثقب ثقبا كبيرا يختلس منه النظر ، ولو قد خلا المكان من الناس لاستطاع ان يتسلل من الكيس ، ولكن التسلل من كيس أمام الجميع خليق بأن يجعله اضحوكة القوم .. وهذا هو ما حال بينه وبين تنفيذ ما يريد ، وصح عزمه على ان ينتظر، ولم يكن منه الا أن تأوه فى صوت خافت تحت وطأة حذاء شوب الثقيل !..

ولم يك شوب نفسه أقل رغبة منه فى الحرية ، وهو يحس بأن شيئا تحته لايستطاب الجلوس عليه أبدا ، فما أن سمع ما دبرته له ابنته حتى ارتاح باله ، واســتقر رايه على ان يكف عن محاولة التسلل من الكيس ، معتقدا ان المسافة بينه وبين كوخه لا تقل عن مائة خطوة او قل عن مائتى خطوة ، فان هو أقدم اقتضاه ذلك ان يصلح من شأنه ويزرر معطفه المصنوع من جلـد المـاعز ويثبت حزامه ، ويا للمشقة التى سوف يعانيها من ذلك ! ثم تذكر أيضــا انه ترك قبعته فى كوخ سولوخا اذن فلتجره الفتيات الآن فى الزلاقة .

على ان الأمور جرت على غير ما يحب ويشتهى ، ففى اللحظة التى جرت فيها الفتيات ليبحثن عن الزلاقة خرج من الحانة جاره النحيل باناس مضطرب الأعصاب ثائر النفس ، ذلك ان صــاحبة الحانة ابت ان تقدم له شيئا من الخمر على الحساب ، وفكرالرجل فى البقاء فى الحانة راجيا ان يأتى سيد كريم يتحفه بكأس ، ولكن شاء سوءحظه ان يلزم السادة جميعا منازلهم ويأكلوا الأرز والشهد فى أحضــان أسرهم ، كما يفعــل المسيحيون الصالحون ، وخرج باناس من الحانة وهو يفكر فيما أصاب أخلاق الناس من انحلال وما اتصف به قلب اليهودية صاحبة الحانة من قسوة وغلظ ، ثم وقع على الكيسين فوقف مشدوها .

وقال وهو يتلفت حوله : « يا للكيسين اللذين بهمـــا شـــخص فى الطريق ! يقينى ان فيهما شيئا من لحم الخنزير ، ومن حسن الطالع ان يجمع هذا المنشد لأناشيد عيد الميلاد هدايا كثيرة كهذه من جميع الألوان ، ياللكيســين! وهب انهما حافلان بالكعك والبقسماط المصنوع من الحنطة السوداء فحسب فانهمـــا جديران مع ذلك بأن استولى عليهما ، ولو قد اقتصروا على الأرغفة لرحبت بذلك ايضا،

فان اليهودية لخليقة بأن تعطيني كأسا من الفودكا عن كل رغيف ، يجب أن أسرع بنقلهما قبل ان يراهما أحد » .

ولفع على كتفه الكيس الذى كان فيه شوب والقندلفت ولكنه احس بثقله الشديد ، فقال : « كلا ، انه لأثقل من ان يستطيع رجل واحد حمله ، وها هو ذا شابوفالنكو النساج قد اقبل لحسن الحظ ، طاب مساؤك يا اوستاب ! » .

فقال النساج وهو يتوقف : « طاب مساؤك » .

« الى أين انت ذاهب ؟ »

« حيث تقودني خطاى » .

« أعني على حمل هذين الكيسين أيها الرجل الصالح ! لقد كان بعضهم ينشد اناشيدعيد الميلاد، والقى بهما فى الطريق ، ولنقتسم ما فيهما مناصفة » .

« كيسين ؟ وماذا فيهما ؟ أرغفة بيضاء ام ماذا ؟ » .

« اعتقد ان فيهما أشياء من كل لون » .

واسرعا فانتزعا بعض العصى من السياج ، ووضعا عليها كيسا من الكيسين وحملاه على اكتافهما .

وسأل النساج وهما فى الطريق : « الى أين نمضى به ؟ الى الحانة ؟ »

« هذا ما كنت أفكر فيه ولكن اليهودية الملعونة لن تثق بنا ، ولسوف يذهب بها الظن الى اننا سرقناه من مكان ما ، ثم انني قادم لتوى من الحانة ، فلنمض به الى حيث كوخي ، ولن يقف فى سبيلنا احد هناك ، فان زوجتي قد بارحت الدار » .

وسأله النساج الحذر : « أواثق انت انها ليست فى الدار ؟ »

فقال باناس : « انني والحمد لله لم أصل بعد الى حد البلاهة ، وانما الشيطان وحده هو الذى يستطيع ان يقذف بى الى حيث تكون ، واني لأحسب انها ستتجول مع النساء الأخريات حتى مطلع الفجر » .

وسمعت زوجة باناس الضوضاء الصادرة عن الرجلين والكيس فى الغرفة الخارجية ، ففتحت الباب وهتفت : « من هناك ؟ » ، وعقلت الدهشة لسان باناس .

وقال النساج فى يأس : « ها نحن أولاء قد وقعنا فى مأزق » .

وكانت زوجة باناس كنزا من ذلك النوع الذى لايعز عليك ان تجد له مثيلا فى هذا العالم ، وكانت كزوجها لا تلزم الدار الا نادرا ، وتمضى فى كل يوم تقريبا لزيارة بعض صويحباتها وعجائز النساء الثريات ، تتملقهن وتأكل « بشهية » عظيمة على حسابهن ، ولم تك تتشاجر هى وزوجها الا فى الصباح ، فقد كانت لاتراه أحيانا الا فى هذا الوقت ، وكان كوخهما أقدم بكثير من سروال كاتب الناحية او قل يزيد عنه فى العمر ضعفين ، وكانت بعض المواضع من سقفهما المعرش بالجريد خالية من القش ، ولا ترى من سياج الكوخ الا بقايا ، فقد كان كل من يخرج من داره لايرى حاجة تدعوه الى حمل عصا يطرد بها الكلاب ، وحسبه ان يمر بحديقة الخضر من كوخ باناس فينتزع عصا من سياجه . وكان الموقد يظل ثلاثة أيام متصلة بلا آحماء ، وكلما أصابت الزوجة الحنون شيئا من فيض أيدى المسيحيين الصالحين اخفته ما وسعها بعيدا عن متناول زوجها .

وكثيرا ما كانت تصطنع الخلاعة والمعابثة لتحرمه ما يكسب اذا لم يتسع لها الوقت لانفاقه على الشراب ، ولم يك باناس بالرغم مما عرف عنه من احتشام ورزانة يحب ان يرضخ لها ، فكان يغادر داره كل يوم تقريبا وقد اسود ماحول عينيه الاثنتين ، فى حين كانت شريكة حياته تتنهد وتتأوه ثم تنطلق لتخبر عجائز النساء بسوء خلق زوجها ، وما كاله لها من ضربات لم تجد بدا من التجاوز عنها .

ولتتخيل أيها القارىء مقدار ما أصاب النساج وباناس من حيرة لظهور المرأة المفاجىء ، والقى الرجلان بالكيس ووقفا أمامه وعمدا الى اخفائه باطراف معطفيهما ، ولكنهما كانا قد تأخرا كثيرا ، ذلك ان زوجة باناس لمحت الكيس بالرغم مما أصابها به الكبر من ضعف فى البصر .

وقالت ووجهها ينم عن فرح كفرح الصقر : « مرحى ، مرحى ! وجميل منكما ان تكونا قد جمعتما هذا الخير الكثير بانشاد أناشيد عيد الميلاد ! وهكذا حال المسيحيين الصالحين دائما ، ولكن كلا ، فانى لأحسب انكما سرقتماه من مكان ما ، ارياني الكيس فى الحال .

أتسمعان ؟ أريانى فى التو والساعة ! » .

وقال باناس وهو يتظاهر بالوقار : « ليرينك الكيس الشيطان الأصلع ، اما نحن فلا »

وقال النساج : « وما شأنك بالكيس ؟ اننا نحن اللذان أنشدنا الكوليادكي لا أنت ! »

وصاحت الزوجة وهى تضرب زوجها الطويل القامة على ذقنه بقبضة يدها وتقتحم طريقها اقتحاما الى الكيس : « بل سترينى الكيس أيها السكير الشقى ! » ، الا ان النساج استبسل هو وباناس فى الدفاع عن الكيس واكرهاها على الارتداد ، على ان الزوجة هرعت اليهما وفى يدها محراك النار قبل ان يستردا انفاسهما ، وضربت به زوجها فى مهارة على ذراعيه ، ثم ضربت النساج ضربة على ظهره ، وبلغت الكيس .

وقال النساج وقد افاق مما اصابه : « لم تركناها تصل اليه؟» .

وقال باناس فى برود : « لم تركناها تصل اليه ؟ بل لم تركتها انت ؟ » .

واخلد النساج الى الصمت برهة ثم قال وهو يحك ظهره : «لاشك ان محراك نارك مصنوع من الحديد ! لقد اشترت زوجتى محراكا من السوق فى العام الماضى ، ودفعت خمسة وعشرين كوبكا ثمنا له ، ولكن ذلك المحراك لا ضرر منه ، فهو لايؤلم » .

وفى هذه الأثناء وضعت الزوجة الظافرة السراج المتخذ من الخزف على الأرض ، وفكت الكيس واختلست النظر اليه ولكن عينيها الواهنتين اللتين لمحتا الكيس من قبل خدعتاها هذه المرة ولا شك .

فصاحت مصفقة بيديها فى فرح وسرور : « آه ان خنزيرا كاملا يقبع فى هذا الكيس ! »

ولكز النساج باناس قائلا : « خنزير ! هل سمعت ؟ خنزير كامل ! وانك لمسئول عن هذا الخطأ كله ! » .

وأجاب باناس وهو يهز كتفيه : « لا حيلة فى الأمر ! » .

فصاح النساج وهو يخطو الى الأمام : « أجل ، لا حيلة فى الأمر! ففيم الانتظار؟ ولنمضين بالكيس ! هلمى بنا ، اغربى عنا ! فالخنزير خنزيرنا ! » .

وقال باناس وهو يدنو منها : « اذهبى ، اذهبى أيتها المرأة الشيطانة ! فان هذا الكيس ليس ملكك ! » .

وتناولت زوجته محراك النار مرة اخرى ، ولكن شوب تسلل من الكيس فى تلك اللحظة ، ووقف وسط الغرفة وراح يتمطى كما يفعل المرء اذ يستيقظ لتوه من نوم طويل ، وصرخت زوجة باناس، ووقفوا جميعا فاغرين افواههم .

وقال باناس وهو يحدق النظر وقد اتسعت حدقتاه : « ما بال هذه المرأة الحمقاء تقول انه خنزير ؟ انه ليس بخنزير » .

وقال النساج وهو يترنح مرتدا الى الوراء فى ذعر: « يا الهى ! ويا للرجل الذى سقط فى الكيس ! الا فلتقل ما تشاء ولتنفجر ان شئت فما من ريب ان للشيطان الزنيم يدا فى ذلك ، وى ! ان الشيطان لايأتى من النوافذ ! » .

وصاح باناس وهو يدقق النظر: « انه شوب ! » .

وقال شوب ضاحكا : « ومن يكون سواه؟ مرحى ، الم اخدعكم خدعة بارعة ؟ لاشك عندى فى انكم كنتم تنوون ان تأكلونى ظانين اننى خنزير من الخنازير! فاصبروا لحظة اعوضكم عما فاتكم ، فان فى الكيس شيئا آخر ، ان لم يك خنزيرا بأكمله ، فهو بلا ريب حلوف صغير أو حيوان آخر من الحيوانات الحية ، فقد ظل شيء يتحرك من تحتى » .

واندفع النساج وباناس الى الكيس ، وتشبثت ربة البيت بالطرف الآخر منه ، وربما كان التنازع عليه خليقا بأن يتجدد لولا ان القندلفت ادرك انه لم يعد له أمل بعد فى الاختفاء ، فتسلل من الكيس بمحض ارادته .

وذهلت المرأة فتركت الساق التى كانت قد بدات تجر منها القندلفت الى خارج الكيس .

وقال النساج فى فزع : « هاكم رجلا آخر من الزمرة ! ان الشيطان ليعلم ماذا دها العالم ! لقد اختلط عقلى ، وكيف بى والرجال يوضعون فى الاكياس بدلا من الأرغفة أو المقانق ؟ » .

وقال شوب ، وقد زادت دهشته عن الآخرين : « انه القندلفت! وى ، وى ! ما ابرعك ياسولوخا ! تضعين رجلا فى كيس ! لقد

ظننت وقتئذ ان كوخها زاخر بالأكيـاس والآن ادركت الحقيقة ، لقد كانت تخفى كل رجلين فى كيس ! وكنت اظن اننى الوحيـــد الذى ... يا لها من امرأة ! » .

وتملك الفتيات شىء من الدهشة عندما وجدن ان أحد الكيسين قد اختفى .

وهتفت اوكسانا : « لا حيلة فى الأمر ، وحسبنا هذا الكيس» .

ورفعت الفتيات الـكيس والقينه على الزلاقة .

واستقر راى شـيخ القرية على التزام الهدوء ، وقال يحدث نفسـه : « انه لو أهاب بهن ان يحللن الكيس ويخرجنه منه لهربت الفتيات الحمقاوات ، ظنا منهن ان الشيطان هو الذى قبع فيه ، وظل وهو ملقى فى الطريق حتى يجىء اليوم التالى . ولم تلبث الفتيات أن طرن بالزلاقة متشابكات الأذرع ، كالعاصفة تجتـــاح الجليد المقرقع ، وجلست كثيرات منهن على الزلاقة طلبا للمتعة ، بل تسلق بعضهن واستوين على راس شـيخ القرية ، وصح عزم الشيخ على ان يتحمل كل شىء .

ووصلن آخر الأمر الى الكوخ ، وفتحن الباب المؤدى الى الغرفة الخارجية و جررن اليها الـكيس ضاحكات .

وصحن جميعا معجلات بفتحه : « فلنر ما فيه ! » .

وفى تلك اللحظـــة زاد الفواق الذى يعـذب الشيخ شـدة على شدة ، حتى اخذ صوته يعلو بالفواق والسعال جميعا .

وصرخت الفتيات مبتعدات فى فزع : « آه ، ان ثمة شخصـا يقبع فى الـكيس ! »

وقال شوب وهو يدخل عليهن : « ما بالكن ؟ لماذا تجرين كانما اصابكن جميعا مس من الشيطان ! » .

وصاحت اوكسانا : « آه يا أبت ! ان فى الكيس رجلا ! » .

« فى الكيس ؟ من اين جئتن بالكيس ؟ » .

فقلن جميعا على الفور : « لقد تركه الحداد فى الطريق » .

وراح شوب يحـدث نفســه قائلا : « اذن هـذا هو السر ؟ الم اقل هذا ؟ » .

« ما يخيفكن ؟ فلنلق نظرة عليه ، هيا أيها الرجل ، وأرجو الا

يسوءك اننا لا نخاطبك باسمك اللائق ، هلم ولتخرجن من الكيس زاحفا ! » .

وفعل شيخ القرية ذلك .

وصرخت الفتيات « آه ! » .

وقال شوب يحدث نفسه وقد انتابه الذهول وهو يتفرس فى الشيخ من قمة راسه الى اخمص قدميه : « اذن فقد اندس الشيخ فى كيس أيضا ! مرحى ، مرحى ! » ، ولم يزد

ولم يك شيخ القرية نفسه بأقل حيرة منه فلم يعرف كيف يبدأ الحديث .

ثم قال موجها الخطاب الى شوب : « اظن ان الليلة باردة » .

فأجاب شوب : « لقد الم بالجو شيء من الصقيع ، ولكن اسمح لى ان أسألك بماذا تطلى حذاءك ، أبدهن الأوز ام بالقطران ؟ » ، ولم يك شوب يقصد أن يسأل هذا السؤال ، بل كان يريد ان يقول : « كيف اندسست فى هذا الكيس ايها الشيخ ؟ » ولأمر ما سأل سؤالا مختلفا عن ذلك كل الاختلاف .

وقال الشيخ : « القطران أفضل ، طابت ليلتك ياشوب » ، وشد قبعته على رأسه وغادر الكوخ .

وقال شوب ، وهو ينظر الى الباب الذى خرج منه شيخ القرية: « ماذا دهانى حتى اسأله بم يطلى حذاءه ؟ الا ما ابرعك يا سولوخا حتى تضعى رجلا كهذا فى كيس ! تالله انها لامرأة شيطانة ! وقد ادت بى غباوتى .. ولكن اين ذلك الكيس الملعون ؟ » .

فقالت اوكسانا : « القيت به فى ركن من الأركان ، فقد خلا مما فيه » .

« اننى لأعرف قصته كلها ، ليس فيه شيء حقا ! اتى به الى هنا ، أن فيه رجلا آخر، هزيه جيدا ، ماذا وجدت فيه ؟ لاشيء ؟ يا للمرأة الملعونة ! ومع ذلك فانك اذا نظرت اليها حسبتها قديسة لم تذق قط الا طعام الصائمين » .

ولنترك الأن شوب يصب جام غضبه كما يشاء ، ولنعد الى الحداد ، فان الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير .

واستبد الخوف بفاكولا أول الأمر ، وخاصة عندما ارتفع عن

الأرض ارتفاعا أعجزه عن أن يرى شيئا مما يقع تحتـــه ، ومضى الفتى يطير كالذبابة يكاد يمس هامتـــه القمر ولو لم ينحن لعلقت قبعته به ، وما ان انقضت فترة وجيزة حتى استعاد ثقته بنفسه، بل بدا يسخر من الشـــيطان ، وكان يطرب كثيرا اذ يرى كيف يعطس الشيطان ويسعل حين يخلع صليبه الصغيرالمصنوع من خشب السرو من عنقه ويدلى به اليه ، وكان يتعمد رفع يده حتى تحك راس الشيطان ، فيظن الشيطان انه يرسل عليه اشارة الصليب، فيزيد من سرعته فى الطيران وكان الضوء باهرا فى ذلك الارتفاع ، والهواء شفافا تلتف به غلالة فضية رقيقة من الضباب ، وكان كل شيء واضحا للعيان ، حتى ان الفتى استطاع ان يرى مشعوذا يمرق مروق الســـهم بجوارهما وهو جالس فى قـــدر ، والنجوم تتجمع فى لمة لتلعب لعبة الاستخفاء ، وقد راح حشد كامل من الأرواح يدور فى سحابة مبتعدة عنهما .

واخذ شيطان من الشياطين يرقص فى ضوء القمر ويخلع قبعته حين يرى الحداد يمر به غاذا السير ، وانطلقت مكنسة تطير عائدة الى مقرها ، وكان من الجلى ان ساحرة قد ترجلت عنهـــا لتوها بعد ان بلغت مقصدها ، وصادف الفتى هو والشـــيطان كثيرا من المخلوقات البشعة ايضـــا ، وكانت جميعها تقف حين ترى الحداد لتتفرس فيه برهة ، ثم تسرع فى طريقها لا تلوى على شيء . وظل الحداد طائرا حتى لاحت له بطرسبورج فجأة وهى تتألق بالانوار « وقد اتفق ان كانت المدينة مضـــاءة فى ذلك اليوم » ، واتخذ الشيطان ، وهو يطير فوق باب المدينة ، هيئة الجواد ، ووجد الحداد نفسه يمتطى صهوة جواد أصيل يتقد غيرة وحماسة وهو ماض فى عرض الطريق .

يا الهى ! ما اعجب هـــذا الصليل وتلك الضوضاء وذلك النور البـــاهر المتألق ! لقد كانت الجدران ترتفع وتقوم على كل جانب منها أربع طبقات ، وكان وقع حوافر الخيل وقرقعة العجلات يتردد صداها ويتجاوب من كل حدب وصوب ، وبدا للأعين ان الأرض تنشق عن المنازل فى كل خطوة ، وكانت الجسور تهتز ، والعربات يستبق بعضهـــا بعضـــا وهى تمضى فى طريقهـــا ، وسائقوا الزلاقات

وسواس الخيول يصرخون ، والجليد يقرقع تحت وطء الف الزلاقة التي كانت تسرع من جميع الانحاء ، وكان المارة يتجمعون ويتكأكئون تحت المنازل التي كانت مرصعة بالمصابيح الصغيرة ، فتمرق ظلالهم الضخمة على الجدران حتى تبلغ رءوسهم الأسقف والمداخن .

وتلفت الحداد حوله فى ذهول ، وقد خيل اليه ان المنازل جميعا قد تعلقت به عيونها المتقدة التى لا حصر لها ترقبه ، ورأى عددا كبيرا من السادة يرتدون معاطف النسيج فلم يدر من منهم يرفع له قبعته ، وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما أكثر الأعيان هنا ! انى لأحسب ان كل من يجتاز الشارع فى معطف من الفراء انما هو مساعد قاض يجيء فى اثره مساعد قاض آخر ! اما اولئك الذين يركبون تلك العربات الجميلة ذات النوافذ الزجاجية فهم من العمد او هم بلا شك مآمير او لعلهم فى مركز ارفع » ، وقطع عليه حبل تفكيره سؤال وجهه اليه الشيطان :

« او اذهب راسا الى القيصرة ؟ » .

وقال الحداد يحدث نفسه : « كلا ، انني لخائف ، فان القوزاق الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا فى الخريف الماضى يعسكرون فى مكان ما هنا ، وقد جاءوا من المعسكر يحملون اوراقا من القيصرة ، فلأسألنهم الراى على كل حال » .

« ايه ايها الشـــيطان ! ادخل فى جيبى ، وانطلق بى الى الزابوروجاويين ! » —

ولم يلبث الشيطان ان استحال شيئا غاية فى الرفع والصغر حتى انه لم يجد صعوبة ما فى ان يندس فى جيب الحداد ، ووجد فاكولا نفسه قبل ان يتسع له الوقت للتلفت أمام بيت كبير ، وارتقى درجا ، وهو لايكاد يدرى ماذا يفعل ، وفتح بابا ، ثم تراجع قليلا وقد بهره الضوء المتألق ، اذ راى الغرفة الفاخرة الرياش ؛ ولكنه استرد بعض جأشه عندما أبصر الزابوروجاويين الذين اجتـــازوا ديكانكا ، وقد استووا الآن على أرائك فرشت بالحرير ودسوا تحتهم احذيتهم الملطخة بالقطران ، وراحوا يدخنون اقوى أنواع الطباق .

وقال الحداد وهو يتجه اليهم ، محييـا اياهم بانحناءة كبيرة :

« طاب يومكم أيها السادة ! وليكن الله معكم ، فقد قدر علينا ان نلتقى هنا » .

وسأل الرجل الذى كان يجلس فى مواجهة الحداد تماما صاحبا له على مبعدة منه : « من يكون هذا الرجل ؟ » .

فقال الحداد :« أو لاتعرفنى ؟ اننى انا فاكولا الحداد ، وانى لأذكر انك لك ياسيدى لبثت يومين فى ديكانكا عندما قصدت اليها راكبا جوادك فى الخريف الماضى ، متعك الله بالصحة السابغة ، ومد فى عمرك ! وقد وضعت طوقا جديدا من الحديد على العجلة الأمامية من عربتك » .

فقال ذلك الزابوروجاوى نفسه : « آه ! انه ذلك الحداد الذى يجيد النقش، طاب صباحك أيها الجار! ما الذى جاء بك الى هنا؟» .

وأجاب الزابوروجاوى وهو يشد قامته فى اعتداد بالنفس : « حسنا أيها الجار » ، ثم اردف فى لكنة اوكرانية قوية يريد ان يظهر بمظهر من يستطيع التكلم بالروسية : « حسنا ، انها لمدينة كبيرة ، أليس كذلك ؟ » .

واراد الحداد أيضا ان يثبت علو كعبه فى هذه اللغة حتى لايظهر بمظهر المبتدىء ، ثم انه كان يستطيع هو أيضا ان يتحدث بلغة الكتب على ما مر بنا من قبل .

فأجاب بالروسية أيضا فى غير ما اكتراث : « انها لمدينة عظيمة ! ولا مشاحة فى ان المنازل كبيرة جدا ، كما ان الصور المعلقة متقنة الرسم الى حد عجيب ، وقد زين كثير من المنازل بحروف وشيت بالذهب فى اسراف ، وما من ريب فى ان التناسب بين هذا وذاك رائع » .

وارتفع قدر الحداد فى نظر الزابوروجاويين ، اذ رأوه يفيض فى حديثه هذه الافاضة .

« لنواصلن الحديث معك فيما بعد أيها الجار، ذلك اننا ذاهبون الآن الى القيصرة » .

« الى القيصرة ؟ أفلا تتفضلون أيها السادة وتاخذوننى معكم؟» .

وهتف زابوروجاوى يقول فى لهجة تحاكى لهجة الرجل الناضج وهو يحدث ابنا له فى الرابعة من العمر اذا هو طلب ان يمتطى

صهوة جواد حقيقي كبير : « انت ؟ وما عسى ان تفعل هناك ؟كلا، لا نستطيع ذلك ، فاننا سنتحدث مع القيصرة فى شئوننا الخاصة » ، وشابت وجهه امارات تنبىء بخطر الأمر وجلاله .

والحف الحداد فى الرجاء قائلا : « بل خذونى معكم » ، وهمس الى الشيطان فى صوت خفيض وهو يدق على جيبه بقبضة يده : « دعهم يأخذونى ! » .

وما ان قال هذا حتى هب زابوروجاوى آخر يقول : « فلنأخذه معنا أيها الرفاق ! » .

وانضم اليه آخرون قائلون : « أجل ، فلنأخذه معنا ! » .

« اذن فعليك أن ترتدى من اللباس ما نرتديه » .

وشرع الحداد يرتدى سترة زرقاء واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل رجل تغطيه المخرمات الذهبية قائلا : « لقد حان الوقت للمضى الى القيصرة » .

وتملك الذهول الحداد مرة اخرى وهم يدفعون به فى عربة عظيمة تتأرجح على زنبركات ، واخذت البيوت ذات الطبقات الأربع تمر به سراعا على الجانبين ، بدا له ان أديم الطريق المجلجل يموج تحت وقع حوافر الخيل .

وقال يحدث نفسه : « يا الهى ! ما ابهر الضياء ! ان الضوء لايبلغ هذا المبلغ فى موطنى حتى فى أثناء النهار ! » .

ووقفت العربات امام القصر ، وترجل الزابوروجاوبون ، ودخلوا بهوا فخما ، وشرعوا يرقون درجا تتلألأ فيه الأنوار الساطعة .

وغمغم الحداد يقول بينه وبين نفسه : « يا له من درج ! ومن المؤسف ان يطأه المرء بقدميه ، يا للزخارف ! يقولون ان الحكايات تكذب، وحق الشيطان انها لاتكذب الاقليلا! يا الهى ! يا للدرابزون! وما اروعها من صنعة ! لاشك ان الحديد وحده قد تكلف خمسين روبلا سويا » .

وما ان صعد الزابوروجاويون الدرج حتى اجتازوا أول غرفة للاستقبال ، وتبعهم الحداد فى تهيب ، مشفقاان تنزلق قدماه على خشب الأرض الأملس فى كل خطوة ، ثم ساروا مجتازين ثلاث غرف للاستقبال ، والحداد لايكف عن الاعجاب الذى ملك عليه لبه،

فلما ولجوا الغرفة الرابعة لم يتمالك نفسه من المضى الى صورة معلقة على الجدار ، وكانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها بين ذراعيها .

وراح يتحدث بينه وبين نفسه قائلا : « يا لها من صورة ! ويا لهذا الرسم البديع ! انه يوشك ان ينطق ! وكأنما دبت الحياة فيه ! ثم الابن المقدس ! انه يضغط يديه الصغيرتين كل بالأخرى ثم يبتسم هذا المسكين ! والألوان ! يا الهى ! ما أروعها ! يخيل الى ان الصورة ليس فيها من تراب الحديد الا ما يساوى كوبكا واحدا، ان كل ما فيها أخضر زمردى وصباغ قرمزى ، أما اللون الأزرق فيتلألأ تلألؤا ، يا لها من قطعة فنية رائعة ! وانى لأحسب ان بطانة الصورة قد طليت بأغلى أنواع الرصاص الأبيض ، ومضى يبدىء ويعيد شاخصا الى الباب يتحسس القفل ، « وهذه الصورة على الرغم من بلوغها الغاية فى الروعة فان هذا المقبض النحاسى لأكثر منها جمالا وابداعا ، آه ، يا لجمال الصقل ! انى لأحسب ان ذلك كله قد قام به الحدادون الألمان ، وتكلف أموالا طائلة » .

ولعل الحداد كان خليقا بأن يسترسل الى تأملاته هذه وقتا طويلا لو لم يلكزه فى ذراعه خادم يرتدى لباسه الرسمى ويذكره بالا يتأخر عن رفاقه ، واجتاز الزابوروجاويون غرفتين اخريين ثم توقفوا ، وقيل لهم ان ينتظروا فى الغرفة الثالثة ، وكان فيها عدد من القواد يرتدون زيهم العسكرى الموشى بالذهب ، وانحنى الزابوروجاويون ذات اليمين وذات اليسار ، ثم توقفوا جميعا عن الحركة .

وبعد لحظة واحدة دخل الغرفة رجل أقرب الى البدانة ، عظيم الهامة فى جلال يرتدى زى زعماء القوزاق وحذاء أصفر ، وفى ركابه حاشية كاملة ، وكان اشعث الشعر يشوب عينيه شىء من الحول وتبدو على وجهه امارات الاستعلاء والاعتداد بالنفس ، تنطق كل حركة من حركاته بما الفه من اصدار الأوامر ، ودب الاضطراب بين القواد الذين كانوا يذرعون الغرفة مزهوين بزيهم الموشى بالذهب ، وبدا عليهم وهم ينحنون له انحناءات كبيرة انهم يرقبون فى لهفة اية كلمة ينطق بها ، بل اقل حركة تصدر منه حتى يهرعوا فى الحال ملبين رغباته وطلباته ، ولكن زعيم القوزاق لم يعر ذلك كله ادنى

التفات ، وكل ما فعله ان أومأ اليهم ، ثم اتجه الى الزابوروجاويين .

وانحنى الزابوروجاويون جميعا حتى مست جباههم الأرض .

فقال الرجل فى تمهل وكانت الكلمات تخرج من انفه بعض الشيء : « او حضرتم جميعا الى هنا ؟ » .

فأجاب الزابوروجاويون وهم ينحنون مرة اخرى : « جميعا يا باتكو ! » (١)

« لا تنسوا ان تتحدثوا بالطريقة التى اشرت عليكم بها » .

« لن ننسى يا باتكو ! »

وسأل الحداد واحدا من الزابوروجاويين : « هل هذا هو القيصر؟ »

فأجاب صاحبه : « القيصر حقا ! انه الأمير بوتمكين نفسه ! » .

وطرقت أذنى الحداد اصوات تنبعث من الغرفة الأخرى ، ولم يدر فى اى اتجاه يدير بصره حتى يرى رتل السيدات يلجن الغرفة مرتديات ثيابا من من الأطلس لها ذيول طويلة ، ولمة من رجال البلاط فى سترات موشاه بالذهب وقد ربطوا شعورهم فى ضفيرة تسترسل على ظهورهم ، لقد كان الفتى لا يرى فى ذلك كله الا غاشية من نور وسنا يحار فيهما البصر .

وخر الزابوروجاويون جميعا على أيديهم وركبهم وهتفوا فى صوت واحد : « الرحمة يامامو ، الرحمة ! » (٢)

واستلقى الحداد أيضا على الأرض فى غيرة وحماسة شديدتين ، وان كان لم ير شيئا ، وهرع بعض رجال البلاط ، ولكزوا الزابوروجاويين .

فصاح الزابوروجاويون : « لن ننهض يا مامو ! لن ننهض ، ولنمت ولكننا لن ننهض ! » .

وعض بوتمكين شفتيه ، ثم شخص اليهم بنفسه آخر الأمر ، وهمس فى اذن واحد من الزابوروجاويين فى صوت حازم بات ، فهبوا وقوفا .

ثم تجرأ الحداد أيضا ، ورفع راسه ، فراى أمامه امراة قصيرة القامة ، بل هى أقرب الى البدانة ، زرقاء العينين يحف بها ذلك

---

(١) باتكو فى الاوكرانية معناها الاب ـ المؤلف .
(٢) مامو فى الاوكرانية معناها الام ـ المؤلف .

الجلال السنى الذى لايملك أى انسان حياله الا ان يخضع ويستسلم، اجل ذلك الجلال الذى لا نجده الا فى الملكات .

وقالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهى تنظر الى الزابوروجاويين نظرة فاحصة يشوبها الفضول : « لقد وعدنى سمو الأمير بأن يعرفنى اليوم ، من لم أرهم بعد من أفراد شعبى » ، ثم مضت تقول وهى تدنو منهم : « أو تحظون بالعناية الواجبة هنا ؟ » .

« أجل ، وشكرا لك يا مامو ! ان الطعام الذى يقدم لنا لجيد كل الجودة ، وان كان لحم الضان لا يشبه فى شىء ما نصيبه منه فى زابوروجى ، ولكننا بدانا نتأقلم » .

وقطب بوتمكين حاجبيه اذ راى الزابوروجاويين ينهجون فى اقوالهم نهجا يختلف تمام الاختلاف عما أرشدهم اليه .

وشد واحد من الزابوروجاويين قامته فى اعتداد بالنفس وتقدم منها قائلا :

« كونى رحيمة يا مامو ! لم تعاقبين شعبك المخلص ؟ ترى كيف آثرنا غضبك ؟ هل وضعنا يدنا فى يد التتر الفجار ، أو عقدنا اتفاقا مع الترك ؟ وهل خنا عهدك فى قول او فعل ؟ أم فقدنا عطفك؟ لقد كان أول ما سمعناه انك أمرت ببناء الحصون فى كل مكان لمقاومتنا، ثم سمعنا بانك تنوين ادخالنا فى زمرة الجنود النظاميين ، وها نحن أولاء الآن نسمع بمصائب جديدة فى طريقها الينا ، فأى خطأ ارتكبه الجنود الزابوروجاويون ؟ هل اخطئوا فى حقك اذ عبروا بجيشك بيريكوب وأعانوا قوادك على هزيمة اهل القريم ؟ » .

وحك بوتمكين ، فى غير اكتراث ، احجار الماس التى كان يرصع بها يديه بفرشاة صغيرة ، ولم ينبس ببنت شفة .

وسألتهم القيصرة فى قلق : « ماذا تريدون ؟ » .

ونظر بعض الزابوروجاويين الى بعض نظرات ذات مغزى .

وقال الحداد يحدث نفسه : « هذا هو الوقت المناسب ! ان القيصرة تسألنا عما نريد ! » ، وانبطح على الأرض فجأة .

« لاتأمرى بعقابى ياصاحبة الجلالة ! بل رفقا بى وارحمينى ! افلا تقولين لى ياصاحبة الجلالة ، وحاشاى ان اقصد الاساءة الى شخصك الكريم ، مم صنع الخف الصغير الذى تنتعلينه ؟ فانى

لاحسب انه ما من صانع أحذية فى أية مملكة فى العالم يستطيع ان يصنع خفا مثله ، رحماك ياربي! تمنيت ان تنتعل زوجتى خفا كهذا!»

وضحكت الأمبراطورة ، وضحك رجال البلاط أيضا ، وقطب بوتمكين حاجبيه وابتسم فى الوقت نفسه ، ولكز الزابوروجاويون الحداد تحت ذراعه ، وتساءلوا فى عجب : « أجن الرجل ؟ » .

وقالت الأمبراطورة فى تلطف : « انهض اذا كانت الرغبة فى خف كهذا قد استبدت بك الى هذا الحد ، فما أيسر تدبير الأمر ! ائتوا له فورا بأحسن خف وليكن موشى بالذهب ، لشد ما أطرب حقا لمثل هذه الطوية السليمة ! » ، ثم مضت تقول . « هاك موضوعا خليقا بأن يتناوله قلمك البارع » ، ملتفتة الى سيد متوسط العمر ذى وجه مكتنز اقرب الى الشحوب كان يقف على مسافة ما من الآخرين وكانت سترته المتواضعة بأزرارها الصدفية الكبيرة تنبىء بأنه ليس من رجال البلاط .

وأجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو يحنى هامته : « ما أعظم فضلك ياصاحبة الجلالة ، وهيهات ان يوفى هذا الموضوع حقه الا رجل من طراز لافونتين على الأقل ! » .

« انى لأقول لك مخلصة بأن السرور الذى أفاضته على روايتك « قائد اللواء » (١) لاتزال آثاره عالقة فى نفسى ، وان قراءة آثارك لمتعة أية متعة ! » ، ومضت الأمبراطورة تقول وهى تلتفت مرة أخرى الى الزابوروجاويين : « على اننى سمعت انه ما من أحد منكم أقبل على الزواج فى المعسكر » .

فأجاب الزابوروجاوى الذى كان يحادث الحداد قائلا : « كيف هذا يامامو ؟ انك لتعلمين ان الرجل لا غنى له عن زوجة » . وعجب الحداد اذ سمعه يخاطب القيصرة خطابا كأنما تعمد فيه أن تكون لهجته خشنة كتلك التى يتحدث بها الفلاح ولو انه كان يستطيع ان يتحدث بلغة الكتب .

فقال يحدث نفسه : « يا لهم من قوم ذوى دهاء ومكر! وانى

---

(١) ألف رواية « قائد اللواء » الهزلية الكاتب الروسى الساخر فونفيزين من سنة (١٧٤٥ ـ ١٧٩٢) ـ المؤلف .

لاحسب انه لا يفعل هذا الا لغرض ! » .

واسترسل الزابوروجاوى يقول : « لسنا نساكا ، بل نحن قوم آثمون ، من السهل ان نقع فى المعصـــــية شأن جميع المسيحيين الصادقين ، وكثير منا متزوجون ، ولكنهم لايقيمون مع زوجاتهم فى المعسكر، وبعضنا لهم زوجات فى بولندة ، وبعضنا فى أوكرانيا ، بل ان بعضنا لهم زوجات فى تركية » .

وجاءوا للحداد فى تلك اللحظة بالخف .

فصاح فرحا وهو يتناوله : « يا الهى ، ما ابدع ما وشى به من تطريز ! يا صاحبة الجلالة ! مادام الخف الذى تنتعلينه كهـذا الخف ـ وانى لأحسب ان جلالتك تتزحلقين به على الجليد ـ فما بال قدميك ! لاشك انهما مصنوعتان من السكر الخالص ! » .

وكان للامبراطورة وايم الحق قدمان بديعتان صـورتا أحسـن تصوير، فلم تتمالك نفسها من الابتســام وهى تسمع ذلك الاطراء تنطلق به شفتا حداد ساذج ، يبدو فى لباسه الزابوروجاوى وسيما بالرغم من وجهه القاتم .

وسر الحداد بهذه اللفتة الكريمة ، فصبت نفسه الى ســـؤال القيصرة الجميلة عن كل شيء بالتفصيل : أصـحيح ان القيـاصرة لاياكلون الا الشهد ولحم الخنزير الحنيذ وما اشبه ذلك ؟ الا انه شعر ان الزابوروجاويين ينخسونه بين ضـلوعه نخسا ، فصح عزمه على ان يلزم الهدوء ، وعندما التفتت الامبراطورة الى الرجال الذين هم اكبر منه سنا وبدات تسألهم عن سبيلهم فى الحياة وعاداتهم فى المعسكر ارتد الحداد الى الوراء وانحنى على جيبه وقال فى رفق : « ابتعد بى من هنا وأسرع ! » ، ولم يلبث أن وجد نفسه خارج أبواب المدينة .

هتفت زوجة النساج البدينة تقول فى لثغة ، وهى واقفة مع جماعة من نساء ديكانكا فى عرض الطريق : « لقد غرق ! تالله انه غرق ! ولا قدر على أن أبرح المكان ابدا ان لم يكن قد غرق ! » .

وصـاحت امرأة ارجوانيـة الأنف ترتدى سترة قوزاقية ملوحة بذراعيها : « وى ! اكاذبة أنا اذن ؟ وهل سرقت بقرة احد ، أو حسدت احدا حتى تنكرن قولى ؟ الا كتب على الله ان تعاف نفسى

شرب الماء ان كانت بيريبر شيخا العجوز لم تر بعينى راسها الحداد وهو يشنق نفسه ! » .

وقال شيخ القرية وهو يغادر كوخ شوب ويلحق بالجماعة : « أو شنق الحداد نفسه ؟ وى ! ما كنت لأصدق هذا ! » .

وقالت زوجة النساج : « خير لك ان تقـــولى : كتب الله على ان تعاف نفسي شرب الفودكا ايتها السكيرة العجوز ! لقد كان حتما عليه ان يكون فى مثل جنونك حتى يشنق نفسه ، ، أاغرق نفسه ؟ اجل اغرق نفسه فى الفرجة التى بين الجليد ! وانى لأعلم ذلك علمى بأنك كنت فى الحانة لتوك ! » .

وردت المرأة ذات الأنف الأرجوانى فى حنق وغضـــب : « أيتهـــا الفاجرة ! انظرن ؟ بماذا تتهمنى ! لخير لك ان تعقلى لسانك أيتها الفاجرة ! او تحسبين اننى لا أعرف أن القندلفت يذهب لزيارتك كل ليلة ؟ » .

واستشاطت زوجة النساج غضبا .

« ماذا تقولين عن القندلفت ؟ لمن يذهب القندلفت ؟ اى أكاذيب تختلقين ؟ » .

وشقت زوجة القندلفت طريقها الى المتشاجرين ، وكانت ترتدى سترة من القطن الأزرق مبطنـــة بجلد الأرانب ، وصاحت تقول : « القندلفت ؟ لأرينكما كيف تحترمان اسم القندلفت ! من منكما جرى اسم القندلفت على لسانها ؟ » .

فقالت المرأة ذات الأنف الأرجوانى مشيرة الى زوجة النساج : « هذه هى الفاجرة التى يزورها القندلفت » .

فقالت زوجة القندلفت وهى تخطو صوب زوجة النساج : « اذن فانك انت ايتها العاهرة ! اجل انت ، اليس كذلك ؟ انت الساحرة التى نفثت فيه من سحرك وسقيته شرابا دنسا لتحمليه على القدوم اليك » .

فقالت زوجة النساج وهى تتراجع مترنحة : « اختف ورائى أيها الشيطان ! » .

« آه ايتها العاهرة الملعونة ! قصف الله عمرك ، ولا كتب عليك ان ترى اطفالك ! ايتها المخلوقة الشقية ! » .

وعندئذ بصقت زوجة القندلفت فى وجه المراة الأخرى مباشرة .

وحاولت زوجة النساج أن تفعل بها مثل مافعلت ، ولكنها بصقت بديلا من ذلك على ذقن شيخ القرية ، ولم يكن حلقه بعد ، وكان قد دنا من المتشاجرين حتى يزداد سمعا لما يدور بينهما من شجار .

وصاح الشيخ وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه : ايه أيتها المراة القذرة ! » .

وكانت حركته كافية لتفريقهن ، فانطلقن مهرولات كل فى ناحية يلقين اللوم على الشيخ صارخات هاتفات .

وردد الشيخ ولم يفرغ بعد من مسح وجهه : « ما ابشع هذا ! اذن فقد غرق الحداد ! يا الهى ! ما كان أبرعه من نقاش ! ويا للسكاكين ومناجل الحصاد الجيدة التى كان يصنعها ! وما كان أقواه من رجل ! » ، ومضى فى تأملاته يحدث نفسه قائلا : « أجل ليس فى قريتنا الكثير من أمثاله ، والحق اننى لم الحظ وانا قابع فى ذلك الكيس الملعون أن الفتى المسكين كان شديد الاكتئاب ، اذن فهكذا انتهت حياة الحداد ! لقد كان حيا بالأمس ، أما اليوم فلم يعد له وجود ، وقد كنت انوى أن اقصد اليه لاحدى فرسى البقعاء ! » .

والتمس الشيخ طريقه الى كوخه فى هدوء وقد شغل باله بهذه الأفكار المسيحية .

واضطربت اوكسانا أيما اضطراب عندما بلغها النبأ ، وكانت لا تثق كثيرا بقول بيريبر شيخا : انها رات الحداد يشنق نفسه ، ولا بثرثرة النساء ، فقد كانت تعلم ان الحداد اتقى من ان يلقى بنفسه الى التهلكة ، ولكن ماذا يكون لو انه كان قد رحل معتزما الا يعود الى القرية ابدا ؟ والحق انه كان من المتعذر على المرء ان يجد فى أى مكان فتى قويم الخلق كهذا الحداد ، ثم انه كان مفتونا بها! وقد احتمل نزواتها أكثر من اى فتى غيره ، واخذت الحسناء تتقلب فى فراشها الليل بطوله ، على جانبها الأيمن تارة وعلى جانبها الأيسر تارة أخرى ، ثم تعود الى جانبها الأيمن ثم الى الأيسر ، واستعصى عليها النوم ، أجل اخذت تتقلب عارية فى كامل فتنتها التى حجبها الليل حتى عن نفسها ، وراحت تصب على راسها اللوم فى صوت اوشك ان يكون جهيرا ، ثم هدات بعض الهدوء فصح

عزمها على الا تفكر فى شيء ، ومع ذلك فقد ظلت تفكر وتفكر، لقد كانت تضطرم بنار الحمى ، وما ان لاح الصباح حتى كانت غارقة فى حب الحداد الى اذنيها .

ولم يبد شوب سرورا ولا حزنا على مصير فاكولا ، فقد شغل فكره بأمر واحد ، ذلك انه لم يستطع ان ينسى خيانة سولوخا ، ولم يكف عن التنديد بها حتى أثناء نومه .

وانبلج الصبح ، وامتلأت الكنيسة بروادها ولما يتنفس الصبح تماما ، ورسمت عجائز النساء عند مدخل الكنيسة علامة الصليب فى ورع وتقى ، وكن يعصبن رءوسهن بأغطية من الكتان الأبيض ويرتدين سترات من النسيج الأبيض أيضا ، وقد وقفت أمامهن سيدات فى صدرات خضر وصفر ، بل كان بعضهن يرتدين معاطف زرقاء داكنة وشيت ظهورها برسوم مذهبة ، وحاولت الفتيات أن يشققن طريقهن مقتربات من مكان الأيقونات ، وكن يرتدين ملء دكان من الشرائط تلتف حول رؤوسهن ، ويتقلدن القلائد والصلبان وقطع النقود حول أعناقهن .

وكان يقف أمام هؤلاء جميعا السادة والفلاحون المتواضعون بشواربهم وقنزعات رءوسهم ورقابهم الغليظة وذقونهم التى حلقوها حديثا ، وكانوا كلهم يرتدون العباءات ذات القلانس تطل من تحتها سترة بيضاء حينا أو سترة زرقاء داكنة حينا آخر، ويشيع السرور فى كل وجه يقع عليه بصرك ، وكان الشيخ يلعق شفتيه مفكرا فى المقانق التى سيفطر عليها ، اما الفتيات فكن يفكرن فيما هن بسبيله من تزحلق على الجليد مع الفتيان ، واخذت عجائز النساء يتمتمن بصلواتهن فى غيرة وحماسة متزايدة . وكان المرء يستطيع أن يسمع فى اية ناحية من نواحى الكنيسة سفيربيجوز القوزاقى وهو ينحنى الى الأرض ، على ان اوكسانا كانت تقف وحدها شاعرة باكتئاب لا عهد لها به ، فقد كانت تتمتم بالصلاة ولا تصلى ، وتزاحمت فى قلبها مشاعر كثيرة متباينة كل منها اكثر اقلاقا للنفس وأعظم اثارة للأسى من الآخر، فلا يجد من ينظر الى وجهها الا حيرة ممضة وهما ثقيلا وترقرقت الدموع فى عينيها وعجزت الفتيات عن التهكن بالسبب ، ولم يدر بخلدهن ان الحداد هو المسئول عما هى فيه ،

على ان اوكسانا لم تكن هى الوحيدة التى شغل بالها على الحداد ، فقد لاحظ القرويون جميعا ان العيد قد خلا من البهجة المعهودة فى الأعياد ، وانه كان ينقصه شيء . ومما زاد الطين بلة ان صوت القندلفت كان غليظا أجش بعد ما كابد من رحلاته وهو قابع فى الكيس ، وأخذ يئز ازيزا لايكاد يسمعه أحد . صحيح ان المرتل الذى كان يزور القرية ، راح يرتل من قرار النغم ترتيلا جميلا ، ولكن هذا الترتيل كان خليقا بأن يكون اعذب واجمل فى وجود الحداد الذى الف دائما ، حين يرى القوم ينشدون صلاة « يا ابانا » أو صلاة « الطفل المقدس » ، ان يعتلى منصة المرنمين وينشد الأنشودة من فوقها بالنغمة التى جرى أهل بلتاوة على الترنم بها ، ثم انه كان الفتى الوحيد الذى يؤدى مهمة السادن ، وفرغ القوم من صلاة الفجر ، ثم انتهوا من القداس بعد ادائهم صلاة الفجر .. ترى ، أين اختفى الحداد حقا ؟ ..

***

وفى باكورة الصباح عاد الشيطان بالحداد طائرا بسرعة فاقت السرعة التى طار بها فى ذهابه ، ووجد فاكولا نفسه فى غمضة عين بجوار كوخه ، وانطلق الديك صائحا فى تلك اللحظة .

وهتف الحداد وهو ممسك بالشيطان من ذيله ، وكان قد اوشك ان يولى الأدبار : « الى اين ؟ صبرا لحظة يا صديقى ، فان ما بيننا لم ينته ، ذلك اننى لم أشكرك بعد » ، ثم امسك بقضيب وجلده ثلاث جلدات ، فانطلق الشيطان المسكين يجرى كفلاح جلده مساعد القاضى لتوه ، وهكذا انقلب عدو البشرية من خادع يغوى الناس ويضلهم ويعبث بهم الى مخدوع جازت عليه الحيلة ، ثم ولج الحداد الغرفة الخارجية ، واعد لنفسه مكانا فى القش ، ونام حتى حان وقت الغداء ، ثم استيقظ فراعه ان الشمس قد اعتلت كبد السماء ، وهتف يقول : « لقد افرطت فى النوم وفاتتنى صلاة الفجر والقداس ! » .

وغلب الحزن على الحداد الورع ، فقد اعتقد اعتقادا جازما ان الله قد شاءت ارادته ان يقتص منه لما انتواه من اثم بالقاء نفسه فى موارد التهلكة ، فاصابه بهذا النوم الثقيل الذى منعه من حضور الكنيسة فى

مثل هذا العيد المقدس ، على انه اخذ يعزى نفسه بقوله : انه سوف يعترف للقس بكل هذا فى الاسبوع المقبل ، وسوف يخشع من الآن فصاعد خمسين مرة كل يوم عاما كاملا ، ثم نظر فى الكوخ ، فلم يجد به احدا ، ذلك أن سولوخا لم تكن قد عادت من الكنيسة بعد فيما يظهر .

واخرج الخف بعناية من صدر سترته ، وراح يتعجب مرة اخرى من نفاسة صناعته وما خاضه من مغامرة عجيبة فى الليلة الماضية ، واغتسل الفتى وارتدى اغلى ما عنده من ثياب ، وتحلى بالملابس التى حصل عليها من الزابوروجاويين نفسها واخرج من صندوق قبعة جديدة من الاستراخان الجيد ذات قمة زرقاء داكنة لم يلبسها مرة واحدة منذ اشتراها اثناء اقامته فى بلتاوة ،واخرج ايضا حزاما جديدا تمثلت فيه الوان قوس قزح ، وجمع هذا كله فى منديل ، وزاد عليه سوطا ثم مضى من فوره لمقابلة شوب .

وحملق شوب فى الحداد وهو يدخل كوخه ، ولم يدر : اى حال من احوال الحداد اعجب واغرب ؟ اقيامه من بين صفوف الأموات ، أم جراته فى القدوم عليه ، أم تأنقه هذا التأنق كأنه زابوروجاوى حق ؟ بل ازداد دهشة على دهشة عندما فك فاكولا المنديل وطرح امامه قبعة جديدة وحزاما لم ير لهما فى القرية مثيلا من قبل ، ثم جثا امامه وقال فى لهجة تفيض بالتوسل والابتهال : « الرحمة يا باتكو ! اضربنى ان شئت ، ولكن لا تغضب على ! هاك سوطا ، اضربنى به ما شاء لك الضرب ، فانى مسلم أمرى اليك ، وهأنذا أعترف بندمى على كل ما قدمت يداى ! اضربنى ، ولكن لا تحنق على ، فقد كنت يوما زميلا لأبى ، واكلتما الخبز والملح معـــا وشربتما كأس الوفـاء والاخلاص ! » .

وانما سر شوب فى قرارة نفسه ، اذ رأى الحداد يجثو عند قدميه ، وهو الذى لم يذعن لأحد فى القرية ، بل لقـد بلغ من شدة بأسه انه كان يستطيع أن يلوى القطع ذات خمسة الكوبكات وحدى الخيل بين يديه كأنها الكعك ، واراد شوب ان يؤكد ماله من منزله فتناول سوطا، وجلده به ثلاث جلدات على ظهره .

« وى ! هذا حسبى ، فانهض ! وتعلم ان تطيع دائما من يكبرونك

سنا ، ولننس ما مر بيننا ، والآن حدثني بما تريد » .

« زوجني أوكسانا ياباتكو ! » .

وفكر شوب قليلا ، ونظر الى القبعة والحزام ، وكانت القبعة جميلة ينشرح لها الصدر ، ولم يكن الحـــزام دونها في ذلك ، ثم فكر في سولوخا الخائنة وقال في حزم : « حسنا ! فلترسل الخطاب ! » .

وصاحت أوكسانا : « آه ! » ، عندما اجتازت عتبة الباب ورات الحداد ، وراحت تحملق فيه وقد تملكتها الدهشة والسرور جميعا.

وقال فاكولا : « انظري الخف الذي جئتك به ، انه الخف الذي تلبسه القيصرة بلا فرق ولا خلاف » .

وقالت الفتاة وهي تلوح بذراعيها ولا تكف عن التأمل فيه : « كلا ، كلا ! لا اريد الخف ، فاني راضية بك بصرف النظر عن الخف .. » ، ثم علت وجهها حمرة الخجل ولم تزد .

وقصد اليها الحداد واخذ بيدها ، وارخت الفتاة الحسناء بصرها، وتجلى حسنها الفائق كما لم يتجل من قبل ، وقبلها الحداد المفتون قبلة رقيقة ، فتضرج وجهها بحمرة قانية من الخجل ، وازدادت فتنة على فتنة .

وكان الأسقف الطيب الذكر يجتاز ديكانكا راكبا العربة ، فأعجب بموقع القرية ، وتوقف وهو يهبط الطريق أمام كوخ جديد .

وسال غبطته امراة جميلة كانت تقف بجوار الباب وقد حملت بين ذراعيها طفلا رضيعا : « كوخ من هذا الذي طلي بهذا الطلاء الباهر ؟ »

فاجابته المراة وهي تنحني : « كوخ الحداد فاكولا » . ولم تكن هذه الفتاة سوى أوكسانا .

وقال غبطته وهو يلقي على الأبواب والنوافذ نظرة فاحصة : «رائعة! اجل صنعة رائعة ! » ، وكانت النوافذ جميعا قد خططت بالطـــلاء الأحمر ، وراح القوزاق في كل مكان يمتطون صهوات جيادهم بجوار الأبواب وغلايينهم بين أسنانهم » .

ولكن غبطته زاد فاكولا اطراء عندما علم أن فاكولا اراد أن يكفر عن ذنبه في حق الكنيسة ، فطلا الجناح الأيسر كله من منصة المرتلين باللون الأخضر ورصعه بالأزهار الحمر .

ولم يكتف فاكولا بذلك ، بل رسم الشيطان في الجحيم على ناحية

من الجدار يطالع الداخل الى الكنيسة ، وكان منظـــره بشعا كل البشاعة ، لا يمر به أحد الا بصق عليه . وكانت النساء اذا لج طفل فى البكاء بين أذرعهن حملنه ورفعنه الى حيث الصورة وقلن له : « هاك ! وانظر ! ما ابشع هذا المنظر ! » ، فيحبس الطفل دموعه ويختلس نظرة الى الصورة ، ثم يندس فى صدر أمه ويزداد بهـا التصاقا .

انتقام رهيب



انتقام رهيب

- ١ -

كان ثمة هرج ومرج وضجيج فى حى من احياء كييف ، فقد كان الصاغ جوروبتس القوزاقى يحتفل بزواج ابنه ، وام الحفل عدد عظيم من الضيوف كانوا فى الايام الخالية يحبون الأكل الطيب،ويحبون الشراب أكثر ، ويحبون المرح أكثر واكثر ، وجاءميليتكاالزابوروجاوى، فيمن جاءوا ، ممتطيا صهوة جواده الأشقر مقبلا، لا يلوى على شيء من حفل صاخب اقيم فى سهل برشلاى حيث قضى سبعة ايام بلياليها يثقل على جنود ملك بولندة ويعب النبيذ الأحمر عبا ، وجاء ايضا دانيلوبورولباش ، اخو الصاغ بالتبنى مصطحبا زوجته الشابة كاترينا وابنه البالغ من العمر اثنى عشر شهرا مقبلين من وراء نهر الدنيبر حيث بيت أسرته يقوم بين تلين ، واخذ الضيوف بحسن طلعة كاترينا الشابة ، وحاجبيها اللذين يحاكيان فى سوادهما المخمل الألمانى ، وثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل ، ونقبتها الحريرية الزرقاء وحذائها ذى الكعب الفضى ، ولكن دهشتهم كانت أعظم من عدم حضور والدها الشيخ معها ، فقد قضى الرجل عاما بل اقل من عام فى ذلك الاقليم ، ولم يسمع القوم عنه شيئا طيلة الواحد والعشرين عاما السابقة على ذلك ، ولم يأت لزيارة ابنته الا بعد أن تزوجت ورزقت ولدا ذكرا ، ولا شك ان فى جعبته قصصا غريبة كثيرة جديرة بان تحكى ، وكيف لا يكون هذا شانه وقد قضى فى البلاد الأجنبية هذه الحقبة الطويلة من الزمن ؟ ان كل شيء فيها يختلف عما هو عليه فى بلادنا ، فالقوم ليسوا هم القوم كما ان تلك البلاد قد خلت من الكنائس المسيحية ، ومع ذلك تخلف الرجل عن الحضور .

وجاء اهل البيت للضيوف بفودكا مطيبة فيها زبيب وفيها برقوق ،

كما جاءوا لهم بكعكة زفاف فى طبق كبير ، وانقض الموسيقيون على الطبقة السفلى منها التى دست فيها قطع النقود عند خبزها ، وألقوا بكماناتهم وصنوجهم ودفوفهم التماسا لفترة قصيرة من الراحة ، وفى هذه الأثناء خرجت الفتيات والسيدات الشابات مرة اخرى ، بعد أن مسحن افواههن بالمناديل المطرزة ، ووضع الفتيان اذرعهم فى خاصرتهم واخذوا يتلفتون حولهم فى استعلاء متأهبين للمضى للقائهن ، واذا بالصاغ العجوز يبرز ايقونتين يبارك بهما الزوجين الشابين .

وكان قد أعطاها اياهما الناسك الموقر الأب فارفولومى ، ولم تكونا مركبتين على رصيعتين نفيستين ولا يشع منهما بريق لذهب أو فضة ، على أن أية روح شريرة ما كانت لتجرؤ على الاقتراب من اى امرىء وضعهما فى بيته ، ورفع الصاغ الايقونتين عاليا وهم بأن يتلو صلاة قصيرة ، واذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون فجأة صرخات يشيع فيها الرعب والفزع ، وتراجع القوم واخذ كل منهم يشير فى رهبة الى قوزاقى وقف فى وسطهم ولم يدر أحد من يكون ، ولكنه كان قد ابدع فى الرقص ، واستحوذ على الملتفين حوله، وما ان رفع الصاغ الأيقونتين حتى انقلبت سحنة القوزاقى فى الحال، فازداد انفه كبرا ، ومال على جانب وتبدل لون عينيه من السمرة الى الاخضرار وأزرقت شفتاه ، وارتجف ذقنه ودق حتى غدا كالرمح ، واطلت من فمه ناب ، وظهرت حدبة خلف راسه ، واستحال رجلا عجوزا نالت منه الأيام .

وصاح القوم وقد التصق بعضهم ببعض : « انه هو ! انه هو ! » .

وصاحت الأمهات يتخطفن اطفالهن : « لقد ظهر الساحر مرة أخرى ! » .

وتقدم الصاغ فى مهابة واعتداد بالنفس وصوب اليه الايقونتين ثم هتف : « اغرب عنا يا صورة الشيطان ! فلا مكان لك هنا ! » ، فاختفى الشيخ الغريب وهو يفح فحيح الافعى ، ويقعقع بأسنانه كأنه الذئب » .

ولغط القوم وثارت بينهم التكهنات ، وكان ضجيجهم اشبه بهدير البحر الت به عاصفة .

وتساءل الشبان : « من يكون هذا الساحر ؟ » ، ذلك انهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا .

وتمتم الشيوخ وهم يهزون رءوسهم : « تالله لتثورن المتاعب ! » ، واجتمع الناس فى كل مكان من الفناء الفسيح زرافات ينصتون الى قصة الساحر المخيف ، على ان كلا منهم كان يرويها رواية تختلف عن رواية الآخر ، ولم يستطع أحد أن يقول عنه شيئا محققا .

ودحرج القوم برميلا من شراب العسل المخمر وجاءوا الى الفناء بجالونات كثيرة من النبيذ اليونانى ، وعاد الضيوف الى مرحهم ، وعزفت جوقة الموسيقى ، فأخذت الفتيات والسيدات الشابات ، كما أخذ كرام القوزاق فى ستراتهم الزاهية الألوان يدورون بسرعة وهم يرقصون ، وشرب الشيوخ الذين ناهزوا التسعين ، بل المائة ، كأسا أو كأسين ، ثم شرعوا يرقصون هم أيضا عائدين بالذكرى الى السنوات الخوالى التى لم تضع منهم سدى ، وظلوا يحتفلون حتى ساعة متأخرة من الليل احتفالا لا نجد له نظير اليوم ، وبدأ الضيوف يتفرقون ، ولكن لم يعد منهم الى البيوت الا القليل ، فقد بقى الكثيرون يقضون الليلة فى فناء الصاغ الفسيح ، بل أخلد جمع عظيم من القوزاق الى النوم من غير دعوة ، فاستلقوا تحت الأرائك او على الأرض أو بجانب خيولهم أو بجانب الحظيرة ، وكان السكارى يرقدون حيث يتعثرون ويغطون غطيطا يصل الى اسماع أهل القرية جميعا .

– ٢ –

وانبعث من السماء ضوء رقيق غشى الأرض جميعا ، فقد بزغ القمر من خلف التل ، وغمر ضوءه ضفة الدنيبر الوعرة بغلالة بيضاء كالثلج ، أو كأنها النسيج الموصلى النفيس الذى اشتهرت به دمشق ، وانحسرت الظلال مرتدة الى أعماق غابة الصنوبر .

وكان ثمة قارب حفر من شجرة سنديان ، يسبح هابطا نهر الدنيبر ، وقد جلس غلامان فى مقدمته ، ووضعا قبعتيهما القوزاقيتين السوداوين على جانب من رأسيهما ، وراح الرشاش يتطاير من مجدافيهما كأنه الشرر ينبعث من حجر من الصوان .

ما بال هذين القوزاقيين قد صمتا عن الغناء ، وكفا عن الحديث عن القساوسة البولنديين الذين كانوا يتجـولون فى أوكرانيا يحملون القوزاق على اعتناق الكاثوليكية ، وعن المعركة التى استغرقت يومين مع التتر عند البحيرة الملحة ، ولكن كيف تنطلق عقيرتهما بالغنـــاء ويتشدقان بالحديـث عن ضروب البسالة ، وقد استغرق سيدهما فى التفكير وتدلى ردن سترته القرمزية من القارب يخط فى صفحة الماء ، وراحت سيدتهما كاترينا تهز طفلها فى رقة ولطف وقد تعلقت أنظارها به ، على حين اخذ الغبار الرمادى الدقيق الذى يحمـــله الرشاش يلوث ثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل وقـد تجرد من غطائه الكتانى .

ويالها من متعة أن ترنو ببصرك من وسط الدنيبر الى التلال العالية والمروج الفسيحة والغابات الخضر ، ولم تك هذه التلال تلالا بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تنتهى من أسفلها ومن اعلاها بقنن تشرف عليها السماء فى علاها ، وتشرف هى على السماء ، وأما الغابات القائمة على منحدراتها فلم تك ايضا غابات بالمعنى المفهوم ، بل كانت هى الشعر الذى يغطى راس شيطان الحرجة الأشعث ، يتدلى الى المـاء يغسل فيه لحيته التى تنبسط من تحتها السماء فى علاها ، وتمتد فوق رأسه مشرفة فى ذراها ، وكذلك لم تكن المروج مروجا ، بل كانت نطـاقا أخضر يتوج قبة السماء ، ويتدلى من فوقه ومن تحته .

ولم يكن السيد دانيلو يتلفت حوله ، بل كان ينظر الى زوجتـــه الشابة : « ما بالك غارقة فى الحزن أى زوجتى الصغيرة ومهجـــة قلبى كاترينا ؟ » .

قالت كاترينا وهى تخرج منديلا تمسح به وجه الطفـــل النائم : « لست غارقة فى الحزن اى زوجى دانيلو ! وانما يملؤنى الخوف مما سمعته من القصص الغريبة عن الساحر ، ويقول القوم : انه ولد بشع المنظر تتقحمه العين لا يرضى أى طفل بأن يلعب معه ، فهـلا تستمع أى زوجى دانيلو الى القصص المخيفة التى يروونها عنه ! لقد خيل اليه أن الناس جميعا يسخرون منه ، وكان اذا لقى انسانا فى الظلام ظنه يفتح فمه ويكشف عن أسنانه استهزاء به ، حتى اذا جاء اليوم التالى وجدوا هذا الانسان ميتا لا حراك به . وقد عجبت لتلك

القصص وروعني سماعها » وكان المنديل الذى اخرجته كاترينا لتمسح به وجه ابنها قد طرزته بأوراق الشجر والتوت مستعينة بالحرير الأحمر .

ولم ينبس السيد دانيلو ببنت شفة ، بل اخذ يحدق النظر فى الظلام حيث كان يلوح للأعين فيما وراء الغابة بمسافة كبيرة حافة مظلمة لسور بنى باللبن تقوم خلفه قصر قديم ، وكان جبين دانيلو يخطه ثلاثة خطوط من التجاعيد ، واخذت يده اليسرى تربت شاربه الجليل .

وقال : « ليس المخيف فى الأمر انه ساحر ، بل المخيف انه ضيف شرير ، ترى أى نزوة بعثت به الى هنا ؟ لقد انبئت ان البولنديين ينوون بناء حصن ليفرقوا بين الزابوروجاويين ، وقد يكون ذلك صحيحا ، تالله لأطيحن بعش ذلك الشيطان اذا بلغتنى اية اشاعة بأنه يأوى أعداءنا فيه ، ولأحرقن هذا الساحر العجوز حتى لا تجد الغربان من بقاياه شيئا تنبش فيه ، وانى لأحسب ان لديه ذهبا وثروة من كل نوع ، وهناك يقيم الشيطان ! فاذا كان عنده ذهب .. وسنمر بعد قليل بالصلبان . وتلك هى المقبرة ! وفيها يرقد اجداده الأشرار وقد تعفنت جثثهم وقد علمت بأنهم جميعا كانوا مستعدين ان يبيعوا انفسهم للشيطان بالمال . اجل كانوا مستعدين ان يبيعوا أرواحهم واجسادهم الفانية وكل ما يملكون ، ولو كان لديه ذهب حقا، فما من داع يدعو الى الانتظار ، فليست كل حرب تأتى بالغنائم ! » .

« أعلم ما اتدبر ، وان قلبى ليحدثنى بأنك لن تخرج من لقائه بخير ، أنك تلهث وقد غلبت على محياك القسوة البالغة ، وتقطب حاجباك من شدة الغضب فوق عينيك .. » .

فقال دانيلو غاضبا : « اعقلى لسانك يا امراة فلئن قدر لرجل أن يعاملك لأنقلب هو نفسه امراة ، يا غلام ، على بنار أشعل بها غليونى !»، وعندئذ التفت الى غلام من الغلامين الذين كانا يجدفان ، ودق الغلام غليونه ينفض بعض الرماد الحامى ، وبدأ يحشو به غليون سيده ، ومضى دانيلو قائلا : « اتريد امراتى ان تخيفنى بذكر الساحر ! وى ! ان القوزاقى لا يخاف الشيطان ، ولا القس البولندى ! ، وماذا يكون من امرنا لو انصتنا الى السيدات يا ولدى ؟ ان خير الزوجات فى نظرنا الغليون والسيف الماضى ! » .

واخذت كاترينا الى الصمت ، وراحت تنظر إلى النهر الهاجع ، وهب النسيم فأثار الماء ، وتألق الدنيبر بلون الفضة كجلد ذئب يلوح للعين بليل .

وانعطف القارب واحتضن الضفة المشجرة ، وتبدت للأنظار مقبرة، انقلبت صلبانها رأسا على عقب ، وتجمعت فى لمة واحدة ، ولم ينبت بين القبور زهر ولا عشب ، وانما كان يؤنس القمر وحشتها من علياء سمائه .

وقال دانيلو وهو يلتفت الى المجدافين : « اتسمعان الصيحات أيها الغلامان ؟ ان شخصا يستنجدنا ! » .

وصاح الغلامان فى صوت واحد وهما يشيران الى المقبرة : « اجل نسمعها ، ويظهر انها تنبعث من تلك الضفة » .

ولكن الهدوء عاد فشمل المكان ، والتف القارب مسايرا ثنية الضفة البارزة ثم القى المجدفان مجدافيهما فجأة وراحا يحملقان امامهما دون أن يبديا حراكا وفعل دانيلو مثل ما فعلا ، وسرت رعدة من الفزع فى أوصال القوزاقى .

وتهاوى صليب على قبر من القبور ، وبرزت من الأرض جثة ذابلة استرسلت لحيتها حتى بلغت وسطها ، واستطالت اظافرها فزادت فى الطول عن الأصابع نفسها ، ورفعت الجثة يديها عاليا فى بطء ، وكان وجهها كله متقلصا شائها ، ينم بجلاء عما تعانيه من عذاب فظيع ، ثم أخذت تئن فى صوت مخيف وحشي : «انى اختنق ! انىاختنق!»، حتى لقد بدا هذا الصوت يحز فى القلب حز السكين ، ثم غابت فى باطن الأرض فجأة ، وتهاوى صليب آخر ثم برزت من الأرض جثة ثانية أطول قامة وأكثر بشاعة ، يغطى جسمها الشعر وتسترسل لحيتها حتى تبلغ ركبتيها ، وتمتد أظافرها حتى تزيد على اظافر الجثة الأولى ، ثم صاحت فى صوت أشد هولا ورعبا : « انى أختنق » ، ولم تلبث ان غابت فى جوف الارض ، وتهاوى صليب ثالث وبرزت جثة أخرى ، بدت للأنظار كالهيكل العظمى تنشق عنه الأرض ، وكانت لحيتها تبلغ عقبيها ، واظافرها تنغرس فى الأرض ، ورفعت الجثة يديها الى السماء فى حركة مفزعة كأنما تهم بأن تمسك القمر ، وأطلقت صرخة خيل الى الأسماع ان أحدا ينشر عظامها الصفر نشرا .

وصاح الطفل النـــائم على حجر كاترينا واستيقظ من نومه ، وصاحت السيدة أيضا ، وترك المجدفان قبعتيهما تسقطان فى النهر ، ولم ينج سيدهما من رعدة سرت فى جسمه .

وانطوت صفحة هذا كله كأن لم يكن ، على أن المجدفين لم يعودا الى مجدافيهما الا بعد وقت طويل ، ونظر بورولباش فى قلق الى زوجته الشابة ، وقد تملكها الرعب وراحت تهز الطفل الذى لم يكف عن الصياح بين ذراعيها ، وضمها دانيلو الى صدره وطبع قبلة على جبينها ..

وقال وهو يشير الى ما حوله : « لا تراعى يا كاترينا ! انظرى ، فما من شيء هناك ، وكل ما فى الأمر ان الساحر يريد أن يلقى الرعب فى قلوب الناس حتى لا يجرؤ احد على اقتحام وكره الدنس ، ولكنه لن يخيف بهذا أحدا الا النساء ! فخلى عنك وأعطينى ولدى ! » .

وما ان فرغ دانيلو من قوله هذا حتى رفع ولده وقبله : « ايه يا ايفان اظنك لا تخاف السحرة ، اليس كذلك ؟ اجبنى وقل كلا يا ابت ، فانى قوزاقى ، حسبك ! وكف عن البكاء ، فسرعان ما نبلغ دارنا ، فتطعمك أمك الثريد ، وتضعك فى مهدك ثم تغنى لك :

هوه هوه ياصغيرى .
هوه هوه نم يا حبيبى .
العب والعب حتى تغدو رجلا .
يفخر بك القوزاق .
وتثير الارتباك فى صفوف الأعداء .

« اعيرنى اذنك يا كاترينا ، فانى اظن ان اباك لن يعيش معنا فى سلام ، فقد كان حين اقبل علينا حزينا كاسف البال كأنمـــا يتملكه الغضب ، ترى ، ما الذى حمله على المجيء اذا كان لا يروق له ؟ ثم انه لم يشأ ان يشرب نخب حرية القوزاق ، ولم يلاعب الطفل قط ، لقد كنت خليقا بأن أثق به من كل قلبى ، ولكننى عجزت عن ذلك ، فقد احتبست الكلمات فى حلقى ، لا ، لا ! ليس لأبيك قلب القوزاقى ! ان القلوب القوزاقية اذا تلاقت قفزت من الصدور أو كادت ليرحب كل منها بالآخر ، أى غلامى العزيزين ، أو قد اقتربنا من الشاطيء ؟ لأهبن لـكما قبعتين جديدتين ، واحـــدة لك أنت ياستيتسكو مصنوعة من المخمل والذهب ، انتزعتهـــا من تترى هى

وراسه ، وآل الى كل ما كان يتزين به اللهم الا روحه ، فقد تركتهـا تذهب فى ... مرحى لقد بلغنا البر ! وها نحن أولاء قد وصلنا الى دارنا يا ايفان ، ولكنك لا تكف عن البكاء ! خذيه يا كاترينا » .

ونزلوا جميعا من القارب ، وبدا للأنظار سقف مغطى بالقصب من وراء التل ، وكان هذاهو بيت دانيلو وبيت أجداده ، وقام من ورائه تل آخر ثم السهل المنبسط ، وما كنت لتجد هناك قوزاقيا واحدا وان سرت مرتحلا مائة ميل .

- ٣ -

كان بيت دانيلو بين تلين فى واد ضيق ينحدر حتى يبـــلغ نهــر الدنيبر ، وكان هذا البيت قليل الارتفاع مثل الأكواخ القـــوزاقية المتواضعة ، ليس فيه الا غرفة واحدة ، ولـكنه كان يســعه ويسع زوجته وخادمتهما العجوز واثنى عشر غلاما من الغلمان المختـارين وكانت تلتف بالجدران من عل رفوف من خشب السنديان ، تكدست فوقها الطاسات وأوانى الطهى ، ومن بينها كؤوس فضية واقــداح شراب رصعت بالذهب ، وهدايا أو غنائم من غنائم الحرب ، وعلقت تحت الرفوف سيوف وبنادق و « قربينات » ورماح نفيسة ، أخذت طوعا أو كرها من التتر والترك والبولنديين ، وحملت كثيرا من آثار الحرب ، وكان دانيلو ينظر الى هذه النفائس ، فيرى فيها شواهد تذكره بالمواقع التى خاض غمارها . وامتدت أسفل الجدران اريكتان من السنديان صقلهما المسحج صقلا ، وقام المهد بجوارهما أمام أريكة الموقد ، وقد علق بحبال تتدلى من حلقة ثبتت فى السقف ، ودق اديم الغرفة دقا جيدا وغطى بطبقة من الطين .

وكان دانيلو وزوجته ينامان على الأريكتين والخـادم العجوز على اريكة الموقد ، ويلعب الطفل وتهدهده أمه حتى ينام فى مهده ، ويرقد الاثنا عشر غلاما فى صف واحد على الأرض ، على أن أى قوزاقى لا يرضى بالأرض المنبسطة بديلا ، فهو ينام عليها فى الهواء الطلق ، ولا يحتاج الى فراش من الريش أو وسادة ، بل يكوم شيئا من القش الندى تحت رأسه ويتمدد على العشب كما يحلو له ، وأن صـدره

لينشرح اذ يستيقظ فى بهيم الليل ويتأمل السماء العالية المرصعة بالنجوم وتأخذه من برد الليل رعدة تنعش عظامه القوزاقية ، ثم يشعل غليونه ، وهو يتمطى ويدمدم فى نعاسه ، ويحكم حوله غطاءه المصنوع من جلد الماعز .

ولم يستيقظ بورولباش مبكرا بعد ما اصاب من مرح فى أمسه ، فلما استيقظ جلس فى ركن من الأريكة ، واخذ يشحذ سيفا تركيا جديدا ، كان قد قايض به لتوه ، وشرعت كاترينا تعمل فى تطريز منشفة من الحرير بخيوط من ذهب .

وهبط عليها أبو كاترينا فجأة ، غاضبا مقطب الجبين ، وقد وضع بين اسنانه غليونا اجنبيا ويمم شطر ابنته ، واخذ يسألها فى صرامة عن السبب فى عودتهما متأخرة كل التأخر فى الليلة الماضية .

وقال دانيلو وهو ماض فى عمله :

« أى حماى ، ان الذى يسأل فى ذلك هو انا لا هى ! اجل ، ان الزوج هو المسئول لا الزوجة ، واسمح لى ان اقول : ان هذه هى السنة التى جرينا عليها هنا ، ولست ادرى ، لعل السنة فى بلاد الكفار تجرى على غير هذا ! » .

وتورد وجه حميه وتألقت عيناه ببريق وحشى .

وغمغم مخاطبا نفسه : « من أولى بالسهر على البنت من ابيها ؟ وليكن ما تريد ، ولأوجهن السؤال اليك : اين كنت تهيم حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

« آه ، هكذا يكون الخطاب يا حماى العزيز ! وهانذا اجيبك بأننى شببت عن الطوق منذ وقت طويل ! وانى لقادر على أن اسوس الجواد ، كما احسن استعمال السيف المرهف ، فضلا عن امور اخرى استطيعها ، وانى لقادر على ان ارفض تقديم حساب لاحد عما افعل » .

« انى لأعلم انك تلتمس العراك يا دانيلو ! فان الرجل اذا ابى أن يفصح كان صدره منطويا على الشر » .

فقال دانيلو : « فلنفكر كما تشاء ولأفكر انا كما اشاء ، وانى لأحمد الله على اننى لم اشترك بعد فى اى عمل مشين . لقد وقفت دائما انافح عن مذهبى الارثوذكسى وبلادى ، ولم انهج نهج بعض المشردين الذين يضربون فى الأرض ، فلا يعلم مستقرهم الا الله ، ويتركون المسيحيين

الصالحين يهلكون حتى الموت ، ثم يعودون ليجنوا ثمرة ما لم يزرعوه ، انهم لأسوأ من الاونيات ، فهم لا يأتمون أبدا بكنيسة الله ، واولئك هم الذين يجب أن يحاسبوا الحساب العسير على ضلالهم وما كانوا فيه يهيمون » .

« ايه ايها القوزاقي ! هل علمت انني لا اجيد الرماية ، وانما تخترق رصاصتي القلب على مسيرة سبعمائة قدم ! وليس لي أن أفخر ببراعتي في السيف ، فاني لاترك غريمي قطعا ادق من الحب الذي يصنع منه الثريد » .

فقال دانيلو : « مرحبا بك » ، وراح في خفة يرسم بالسيف اشارة الصليب في الهواء كأنما كان يعلم السبب الذي حمله على شحذه .

وصاحت كاترينا صيحة عالية ، وقد أمسكت بذراعه وتعلقت به : « دانيلو ! تدبر ما انت فاعل ايها المجنون ، وانظر في وجه من ترفع يدك ! أبتاه ، لقد ابيض شعرك ، فغـــدا ناصعا كالثلج ، ولـــكنك أستسلمت للغضب كالفتى الطائش ! » .

فقال دانيلو مهددا زوجته : « أيتها الزوجة ! انك لتعلمين انني لا ارضى عما تفعلين ، فانصرفي الى ما تنصرف اليه النساء ! » .

وصلصل السيفان صلصلة مخيفة ، وتقارعت النصـــال وأثار القوزاقيان الشرر كأنه الغبار ، وانطلقت كاترينا الى غرفة مستقلة تبكي ، والقت بنفسها على الفراش ، وسدت اذنيها كي لا تسمع صليل السيفين . على ان القوزاقيين لم يكونا يتقاتلان قتال الجبناء الرعاديد حتى تستطيع أن تخمد صوت ضرباتهما ، وأوشك قلبها أن ينفطر ، وخيل اليها ان صوت قعقعة السيفين ينساب في جسمها كله : « كلا ، كلا ، ان هذا فوق ما احتمل ، اجل فوق ما أحتمل ، ومن يدري ؟ لعل الدم القاني يسيل الآن من الجسد الأبيض ، ولعل زوجي العزيز الآن عاجزا لا حول له ولا قوة ، وأنا ارقد هنا ! » ، وعادت أدراجها ممتقعة الوجه لا تكاد تقوى على التنفس .

وكان القتل بين الرجل رهيبا تعادلت فيه الكفتان،ولم يتحقق لاحدمن القوزاقيين الغلبة على الآخر ، فقد كان أبو كاترينا يهاجم حينا ، فيبدو ان دانيلو على وشك الاستسلام ، ويهاجم دانيلو حينا آخر ، فيلوح على الوجه الغضوب انه قد أشرف على الاذعان ، ثم يعود القتال بينهما

فيدور سجالا . وكان الرجلان يتميزان غيظا ، ويلوحان بسيفهما ، ويصلصل السيفان ، ويتطاير النصلان مقعقعين من مقبضيهما .

وهتفت كاترينا : « حمدا لله ! » ، ولكنها عادت فصرحت عندما أبصرت القوزاقيين ، وقد تناولا بندقيتهما ، ووضعا فيهما حجر الصوان ، ثم رفعا الزناد .

واطلق دانيلو النار فأخطأ ، وصوب ابوها بندقيته ، وكان رجلا عالي السن لا يبلغ فى حدة بصره مبلغ غريمه الفتى ، الا أن يده لم ترتجف ، ودوت طلقة فترنح دانيلو وخضب الدم القانى الردن الأيسر من سترته القوزاقية .

وصاح دانيلو : « كلا ! لن استسلم بهذه السهولة ، فان اليد اليمنى هى التى تتخضب بالدم ، ولدى غدارة تركية معلقة على الجدار لم تخنى قط ، فاهبطى الى أيتها الزميلة القديمة ! وقدمى يدا لصديقك ، ومد دانيلو يده .

فصاحت كاترينا فى يأس وهى تمسك بيده ، وتجثو عند قدميه : « دانيلو ! اتوسل اليك لا رحمة بى ، فانى لا اعرف لى الا نهاية واحدة، ولبسئت الزوجة تبقى بعد أن يقضى زوجها ، وليكونن نهر الدنيبر قبرى ، وفى مياهه الباردة مثواى ولكن أنظر الى ابنك يا دانيلو ، انظر اليه ! من ذا الذى يدلل هذا الطفل المسكين ؟ ومن الذى يشمله برحمته ؟ ومن يعلمه الركض على صهوة الجواد الأسود الأصيل ، والقتال فى سبيل الدين والحرية ، والشرب والمرح كما يفعل القوزاق اجمعون ؟ لتهلكن يا بنى ، لتهلكن ! فان اباك لا يريد ان يفكر فيك ! انظر كيف يدير راسه ، آه ، لقد عرفتك الآن ! انك لوحش ضار ولست انسانا ! ان قلبك قلب ذئب وعقلك عقل ثعبان داهية لقد كنت احسب ان قلبك فيه ذرة من رحمة وان صدرك الحجرى ينطوى على شىء من المشاعر الانسانية ، ولكن واخيبة املى فيك ! تالله لينشرحن صدرك وترقص عظامك فى القبر فرحا حين تسمع الوحوش البولنديين الانجاس يلقون بابنك فى اللهب ، وحين تسمع صرخات ولدك تعلوه السكين او يغمره الماء الحار ! آه ، انى اعرفك ! واعرف انك تسر اذ تقوم من قبرك وتزكى النار من تحته بقبعتك ! » .

« كفى يا كاترينا ! تعال يا حبة قلبى ايفان ، ودعنى اقبلك . كلا

يا بنى ، لن يلمس احد شعرة من راسك ، ولسوف تنمو ويشتد عودك وتكون فخرا لبلادك ، ولسوف تطير كالعاصفة ومن ورائك القوزاق وعلى راسك قبعة من المخمل وفى يدك سيف مرهف » ، ثم مضى دانيلو يقول لابى كاترينا الذى كان يقف بلا حراك ولا تظهر على وجهه سيماء الغضب أو امارات المسالمة : « اعطنى يدك يا أبت ! ولننس ما دار بيننا ! واسمح لى ان اسألك الصفح عما بدر منى فى حقك . ما بالك لا تمد لى يدك ؟ » .

وصاحت كاترينا ، وهى تطوق اباها بذراعيها وتقبله : « ابتـاه ! لا تكن غليظ القلب ، واصفح عن دانيلو ، ولن يعود ابدا الى الاساءة اليك ! » .

فأجاب أبوها وهو يقبلها وفى عينيه بريق غريب : « انما أصفح عنه اكراما لك وحدك يا ابنتى ! » .

وسرت رعدة خفيفة فى جسم كاترينا،فقد بدا لها فى قبلته وما شاب عينيه من بريق نذير خطير ، واستندت بمرفقيها على المنضدة التى كان دانيلو يضمد فوقها ذراعه الجريح ، وراح زوجها يتمتم بأنه اساء التصرف ، ولم يفعل ما يفعله القوزاقى الحر ، اذ طلب الصفح ولما يقترف ذنبا أو يأت نكرا .

— ٤ —

وطلع الصبح ، ولكن الشمس لم تشرق ، وتلبدت السماء بالغيوم، واخذ الرذاذ يتساقط على السهول والغابة ونهر الدنيبر الفسيح ، واستيقظت كاترينا وقلبها مثقل بالهموم وقد خضبت الدموع عينيها، وتملكها القلق والضجر .

« اى زوجى العزيز ، يا زوجى الغالى ! لقد رايت رؤيا غريبة ! » .

« اى رؤيا ، يا حبيبتى كاترينا ؟ . »

« رأيت رؤيا غريبة ، تجلت لى كأنها الحقيقة الواقعة ، فقد تمثل لى أن أبى هو ذلك الوحش الذى شاهدناه نفسه فى منزل الصاغ ، ولكنى اتوسل اليك الا تؤمن بهذا الحلم ، فان الانسان يرى فى أحلامه أوهاما وحمـــاقات على اختلاف الألوان والأشكال ، أجل ، رايته فى

المنام انني اقف أمامه مرتجفة الاوصال مأخوذة اللب ، تئن عروقي لكل كلمة تخرج من فيه ، آه لو سمعت ما قال ! » .

« وماذا قال يا حبة قلبي كاترينا ؟ » .

قال : « انظرى الي يا كاترينا ، وتأملى مقدار حسنى ووسامتى ! ان الناس ليخطئون بقولهم انني دميم ، ولشد ما اصلح زوجا لك ! الا ترين ما تجود به عيناى من نظرات ، ثم صوب الى عينين تتقدان نارا ، فصرخت واستيقظت » .

« اجل ، فما اكثر ماتصدق الاحلام ، ولكن اتعلمين ان الهدوء ليس مستتبا فيما وراء التلال ؟ واني لأحسب ان البولنديين بدءوا يظهرون مرة اخرى ، وقد بعث الى جوروبيتس برسالة يوصيني فيها بالتزام اليقظة والحذر ، ولا عليه فاني لست نائما ، وقد اقام رجالي اثنى عشر متراسا من الشجر الذى اجتثوه بليل ، ولنتحفن الجنود من العامة ببرقوق من الرصاص ، اما الخاصة فسوف نحملهم على الرقص بالسياط » .

« أو يعلم ابى بهذا ؟ » .

« ان اباك ليثقل على ، وانا لا استطيع ان اخرجه من صمته ولابد انه اقترف آثاما كثيرة في البلاد الأجنبية ، ترى ، أثمة سبب آخر يدعوه الى هذا الموقف ؟ لقد اقام بيننا هنا اكثر من شهر لا يمرح قط كما يمرح القوزاقى الحق ، ويأبى أن يحتسى شراب العسل الأسود ، الذى انتزعته من اليهود في بريست » ، ثم صاح دانيلو : « ايه يا غلام ، اذهب الى الكيلار يا غلام وعجل ، وائتنى بشراب اليهود ! انه يأبى أن يشرب حتى الفودكا ! فما قولك فى هذا ؟ انى لأعتقد اعتقادا جازما يا سيدتى كاترينا انه لا يؤمن بالمسيح ، فما رأيك أنت ؟ » .

« لا يعلم الا الله حقيقة ما تزعم اى زوجى دانيلو ! » .

ومضى دانيلو يقول وهو يتناول الكوز الفخار من القوزاقى : « ما اعجب الأمر يازوجتى ، فان الكاثوليك الأقذار انفسهم يضعفون امام الفودكا ، ولا يمتنع عن الشراب الا الترك دون سواهم . ايه يا ستيتسكو ، أو اصبت جرعة طيبة من شراب العسل فى الكيلار؟ » .

« انما ذقته يا سيدى » .

« انك تكذب يابن الكلب ! انظر كيف حط الذباب على شاربك !

واني لأرى في عينيك انك اتيت على نصف سطل منه ، ايه يا لكم من فتية ايها القوزاق ! وما اعظم تهوركم ! يجود الواحد منكم لصاحبه بكل ما يملك الا الخمر يحتفظ بها لنفسه . لقد انقضى على آخر سكرة لي وقت طويل ،أي زوجتي كاترينا ، اليس كذلك ؟ » .

« وقت طويل حقا ! وي ، لقد .... » .

« لا داعي ، لا تراعي ، فلن اشرب الا كوزا واحدا » ، ثم غمغم وقد ابصر حماه ينحني ليدخل الغرفة : « ها هو ذا شيخ الدراويش التركي قد الم بالباب ! » .

وقال الأب وهو يخلع قبعته ويسوي حزامه الذي كان يتدلى منه سيف مرصع بالأحجار الكريمة : « ما هـذا يا ابنتي ؟ لقد اعتلت الشمس كبد السماء ولم يعد الغذاء بعد ! » .

« ان الغذاء جاهز يا سيدي وسنقدمه في الحـــال » ، ثم مضت ربة البيت الشابة تقول للخـــادم العجوز التي كانت تمسح الطاسات الخشبية : « الى بقدر من لقيمات القاضي ! صبرا ، ولآتين بها بنفسي ، واذهبي أنت لتنادي الغلمان » .

واستووا جميعا على الأرض في حلقة ، فجلس الأب تجاه الأيقونات وعن يساره دانيلو وعن يمينه كاترينا وعشرة من الفتيان الاخيـــار يرتدون سترات زرقا وصفرا .

وقال الأب ملقيا ملعقته بعد أن اصاب من الطعام قليلا : « لا أحب لقيمات القاضي ، فليس فيها نكهة ولا طعم » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « انى لأعلم انك تؤثر عليها حساء اليهود » ، ثم مضى يقول في صوت مرتفع : « ما لك تقول : ان لقيمات القاضي قد خلت من الطعم يا حماي ؟ أتراها سيئة الصنع ام ماذا ؟ ان زوجتي كاترينا تصنع من لقيمات القاضي ما لم يذق مثله شيخ القرية نفسه الا قليلا ، وما من داع يقتضيك الزراية بهـــذه اللقيمات ، فانها طعـــام مسيحي ، يصيب منه القوم الصـــالحون والقديسون الأبرار جميعا » .

ولم ينبس الأب ببنت شفة ، وأمسك دانيلو فلم يزد حرفا .

وقدم لحم الخنزير المشوي بالكرنب والبرقوق .

وقال ابو كاترينا وهو يتناول ملء ملعقة من الكرنب : « لا احب لحم الخنزير ! » .

فقال دانيلو : « لم لا تحب الخنزير ، انما الترك واليهود هم الذين لا يأكلون لحم الخنزير » .

وقطب الأب حاجبيه وزاد غضبا على غضب .

ولم يصب من الطعام الا قليلا من ثريد الحنطة السوداء الممزوج باللبن ، واستعاض عن الفودكا بسائل اسود فى زجاجة اخرجها من صدره .

ونام دانيلو بعد الغداء نوما عميقا ولم يستيقظ الا قرب المساء ، وجلس يكتب الى معسكر القوزاق ، واستوت زوجته الشابة على اريكة الموقد تهز المهد بقدمها . اجل جلس دانيلو فى مكانه وعينه اليسرى على ما يكتب ، وعينه اليمنى تطل من النافذة ، وقد ابصر من خلال النافذة على مسافة بعيدة ، التلال المتلألأة ونهر الدنيبر ، تمتد خلفه الغابة الزرقاء الداكنة . وكانت السماء فى تلك الليلة الصافية الأديم تتالق فوقه ، ولكن دانيلو لم يكن يحدق النظر فى السماء البعيدة او فى الغابة الزرقاء ، بل كان يرقب لسان الأرض الذى يقوم عليه الحصن القديم ، فخيل اليه ان ضوءا يتلألأ فى نافذة صغيرة ضيقة من نوافذ الحصن ، على أن السكون كان شاملا فلا جرم اذن أن يكون ما تراءى له وهما من الأوهام ، ذلك انه لم يسمع الا همهمة نهر الدنيبر العميقة تنساب مياهه من تحته وصوت تكسر الامواج يتجاوب فى الفضاء وبعضها يلاحق بعضا ، ولم يكن النهر يفعل ذلك عن اضطراب ، بل يغمغم ويدمدم كالرجل العجوز ، لا يجد شيئا يروق له ، فقد تغير كل شيء من حوله ، واشتبك فى عراك دائم والتلال والغابات والمروج التى تحف بضفتيه ، وحمل شكاته منها الى البحر الأسود .

ورأى دانيلو على صفحة الدنيبر العريضة قاربا بدا كالنقطة السوداء ، ثم عاد الضوء يتلألأ فى الحصن ، واطلق دانيلو صفيرا خافتا فهرع اليه الخادم المخلص .

« أسرع باستيتسكو وائت بسيف مرهف وبندقية واتبعنى ! » .

وسألته كاترينا : « أو عزمت على الخروج ؟ » .

« اجل يا زوجتى ، فان الواجب يقتضينى ان القى نظرة على كل ناحية واستوثق من ان كل شيء يسير على ما يرام » .

« ولكننى اخشى البقاء هنا وحدى ، وقد اثقل النوم جفني وماذا يكون من امرى اذا رايت الرؤيا نفسها مرة اخرى ؟ ثم اننى لا أومن أبدا بانها رؤيا ، فقد بدت لى حقيقة واقعة » .

« لتبقين معك المراة العجوز ، وهناك ينام القوزاقى فى الغرفة الخارجية وفى الفناء » .

« لقد استغرقت المراة العجـوز فى النوم فعلا ، وانا لا اثق فى القوزاق لأمر ما ، أفلا تستمع لى يا زوجى دانيلو ، وتغلق باب الغرفة من دونى وتأخذ المفتاح معك فلا يستبد بى الخوف وتدع القوزاق يرقدون امام الباب ؟ » .

وقال دانيلو وهو ينفض التراب عن بندقيته ويحشوها بالبارود : « ليكن ماتشائين ! » .

وكان ستيتسكو الأمين قد وقف مجهزا بكل ما يتزود به الرجل القوزاقى من عتاد ، ووضع دانيلو قبعتــــه المصنوعة من فراء استراخان على راسه ، واوصد النافذة، ثم اغلق الباب بالمزلاج واقفله، ومضى فى رفق يلتمس طريقه بين اتباعه القوزاق المستغرقين فى النوم ، واجتاز الفناء ميمما شطر التلال .

وكانت السماء قد صفا اديمها أو كاد . وهب من نهر الدنيبر نسيم عليل ، وخيم السكون فلاتسمع نأمة ولا صوتا الا نواح نورس يتردد فى الفضاء البعيد ، ثم انبعث فى الجو فجـــأة حفيف خافت ، فاختبأ بورولباش وخادمه الأمين وراء الحسك الذى كان يخفى متراسا من الأشجار المجتثة ، ذلك أن شخصا كان يهبط سفح التل مرتديا سترة حمراء وقد حمل غدارتين وتدلى على جانبه سيف .

وقال دانيلو وقد شخص ببصره فيه من خلف الشجيرات : « انه حماى ! ترى اين يذهب هذه الساعة وماذا يدبر ؟ ايه يا ستيتسكو ، لا تدعه يغيب عن بصرك ، وانظر اى طريق يسلك » .

وهبط الرجل ذو السترة الحمرء ضفة النهر ، ثم انعطف متجها الى لسان الأرض .

فقال دانيلو : « آه ، اذن فهـذا هو مقصده ! وى ياستيتسكو ! لقد مضى الى وكر الساحر ! » .

« تالله انه لا يقصد سواه يا مولاى دانيلو ! والا رأيناه على الجانب الآخر ، ولكنه اختفى قرب القصر » .

« لنبرزن من مخبئنا ونقتف أثره ، فان وراء الأكمة ما وراءها ، وى يا كاترينا ، الم أقل لك : ان أباك رجل شرير لا يسلك فى شىء مسلك المسيحى الصالح ؟ » .

ومرق دانيلو وخادمه الأمين مجتازين لسان الأرض ، وسرعان ما غابا عن الأنظار فى طوايا الغابة الـــــكثيفة التى تكتنف الحصن . وتألق ضوء فى النافذة العليا ، ووقف القـوزاقيان تحتها يلتمسان سبيلا الى تسلقها ، ذلك أنهما لم يريا بوابة او بابا ، وما من ريب فى أنه كان فى الفناء باب ، ولكنهما حارا كيف يتسلقان السور اليه ؟ لقد كان يبلغ آذانهما على البعد صليل السلاسل وتفزز الكلاب .

وقال دانيلو وقد راى شجرة سنديان كبيرة تقوم تجاه النافذة : « ما بالى اضيع الوقت ؟ ابق هنا يا غلام ! لأتسلقن شجرة السنديان ، حتى استطيع أن ارى مباشرة ما بداخل الفرفة » .

وخلع حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل ، ثم أمسك بالفصون ورفع نفسه ، وكان الضوء لا يزال يتألق ثم أستوى على غصن قريب من النافذة ، وامسك بالشجرة ، ونظر فى الفرفة ، فوجد فيها ضوءا وان خلت من الشموع وكان على الجدران رموز خفية وأسلحة معلقة ، ولكنها كانت جميعا عجيبة تخالف ما يحمله الترك أو اهـل القريم أو البولنديون أو المسيحيون او السويدون النبلاء . وكانت الخفافيش تمرق تحت السقف روحة وجيئة ، فتنعكس ظلالها على الأرض والأبواب والجدران مقبلة مدبرة كلمح البصر ، ثم انفتح الباب فى سكون ، ودخل رجل يرتدى سترة حمراء ، ويمم شـطر المائدة مباشرة ، وكانت مغطاة بمفرش ابيض : « انه هو ! انه حماى ! » ، وانزلق هابطا قليلا ، وازداد بالشجرة التصاقا .

ولكن حماه لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى : هل كان أحد يختلس النظر اليه من خلال النافذة ؟ فقد أقبل على الفرفة مكتئبا كاسف البال ، ونزع المفرش عن المائدة ، فامتلأت الفرفة فى الحال

بضوء ازرق شفاف ، ولكن امواج الضوء الذهبى الشاحب التى غمرت الغرفة كانت تطغى ، ثم تنحسر كمياه البحـــر الأزرق ، فلا تمتزج به ، بل تتخلله سابحة فى خطوط كالعروق تجرى فى صميم المرمر ، ثم وضع الرجل قدرا على المائدة ، وراح يلقى ببعض الاعشاب فيها .

وانعم دانيلو النظر ، فوجده قد نضا عنه السترة الحمراء ، وارتدى سروالا فضفاضا كالذى يرتديه الترك ، وحمل غدارتين ، ووضع على رأسه قبعة غريبة طرزت جميعا بحروف لا هىبالروسيةولابالبولندية، وتطلع دانيلو الى وجهه ، فوجده قد بدأ يتغير ، واستطال انفه وتدلى على شفتيه ، ولم يلبث فمه ان بلغ اذنيه ، وبرزت سن ملتوية من بين شفتيه ، وتمثل امامه الساحر الذى ظهر فى حفلة زفاف ابن الصاغ ، وراح بورولباش يحدث نفسه قائلا : « لقد صدقت رؤياك يا كاترينا ! » .

وشرع الســـاحر يدور حـــول المائدة ، وأخـــذت الرموز التى على الجدران تمضى فى التغير ، وازدادت سرعة الخفافيش فى مروقها محلقة هابطة ورائحة غادية ، وبدأ الضوء الأزرق يخفتثم يخفت حتى بدا للأنظار انه قد تلاشى أو كاد ، ثم انبعث فى الغرفة ضوء وردى جميل ، وتراءى للعين ان هذا الضوء العجيب راح يغمر كل ركن من اركان الغرفة فى صوت يتجاوب رنينه خافتا رفيقا . ثم غاب الضوء، وساد الغرفة ظـــلام دامس ، وخيم السكون الا من همهمة كصوت الريح تنطلق فى هداة الليل مرفرفة فوق صفحة الماء الساجى ، فتميل شجرة الصفصاف الفضى حتى تدفع به الى أحضان الماء . وخيل الى دانيلو ان القمر يتألق فى الغرفة والنجوم تسبح خلالها ، وتطوف بها لمحات خفية من زرقة السماء الداكنة ، بل هو قد أحس بلفحة من برد الليل تهب عليه منها ، ومر بخياله طائف جعله يشد شـــاربه ليستوثق من انه ليس فى منام ، فقد تراءى له ان السماء التى كان يراها من خلال النافذة وقد ولت وحل محلها بيته هو ، وقد تدلت على جدرانه سيوفه التترية والتركية ، والتفت بالجدران رفوف جوت قدور الطهى وأوانيه ، وعلا المائدة خبز وملح ، وتدلى المهد من السقف، ولكن وجوها مخيفة كانت تطل بدلا من الأيقونات ، ورقد على أريكة الموقد ثم هبط ضباب كثيف فحجب هذا كله ، وعاد الظلام فأسدل

ستاره ، وانبعث الضوء الوردى فى صوت عجيب فغمر الغرفة من جديد ، ثم تجلى الساحر مرة اخرى ، ووقف بلا حراك مرتديا عمامته الغريبة ، وزادت الأصوات ارتفـــاعا وعمقا ، وتألق الضوء الوردى الرقيق وتألق . ورفرف فى وسط الغرفة شىء ابيض كالغمـــامة ، وخيل الى دانيلو ان الغمامة لم تكن غمامة ، وانما هى امرأة قد تمثلت للعين هناك ، ولكن مم صنعت ؟ أمن الهواء حقا ؟ وما بالها وقفت دون أن تمس الأرض أو تستند على شىء ؟ ولم شفت حتى بدا من خلالها الضوء الوردى والرموز السحرية التى على الجدار ؟ وها هى ذى تحرك الآن راسها الشفاف ، ويتألق فى عينيها الزرقاوين الباهتتين ضوء رقيق ، وقد تجعد شعرها ثم استرسل على كتفيها كأنه ضباب رمادى شاحب ، واصطبغت شفتاها بحمرة خفيفة كشقشقة الفجـر يخايل الأنظار بنوره القرمزى يومض من خلال السماء الصافية بصبح، وكان حاجباها الأسودان لا يظهران الا لماما ، آه ! لقد كانت هى كاترينا! واحس دانيلو بأطرافه تتجمد حتى غدت كالحجر ، وحاول أن يتكلم ، ولكن شفتيه تحركتا فى صمت ولم ينطلق منهما أى صوت .

ووقف الساحر ساكنا لا يريم .

ثم ألقى عليها بالسؤال وقد وقف طيفها امامه يرتعد:«اين كنت؟»

فأنت فى صوت رقيق : « واها لى ! لماذا دعوتنى ؟ لقد كنت فى غاية السعادة ،اجل كنت فى المـــكان الذى ولدت فيه واقمت بين ربوعه خمسة عشر عاما ، آه ، الا ما أطيبه من مكان ! ويا للمرج الأخضر الفياح الذى ألفت ان ألعب فيه ابان طفولتى ! لقد وجدت الأزهار البرية الحبيبة كعهدى بها دائما . ولا تقل عن كوخنا وحديقتنا ! وآه من الحنان الذى غمرتنى به أمى وهىتطوقنى بذراعيها ! ويا للعجب الذى تجلى فى عينيها ! لقد دللتنى وطبعت قبلة على شفتى وعلى وجنتى ، ومشطت شعرى الأشقر بمشط جميل ! » ، ثم حدجت الساحر بعينيها الباهتتين وقالت : « لم ذبحت أمى ؟ » .

وهز الساحر اصبعه فى وجهها مهددا ، وقال : « أو قد سألتك ان تتحدثى فى هذا الأمر ؟ » ، وارتعدت الروح الجميلة الشفافة : « اين سيدتك الآن ؟ » .

« لقد استسلمت سيدتى كاترينا للنعاس ، فسررت لذلك ووليت

هاربة ، ذلك اننى كنت مشوقة منذ سنوات طويلة الى رؤية امى ، وقد عدت فتاة فى الخامسة عشرة من عمرى ، وهانذى احس باننى اصبحت فى خفة العصفور ، لم أرسلت فى طلبى ؟ » .

وقال الساحر فى صوت رقيق هامس يصعب على الأذن أن تتبين كلماته : « أتذكرين كل ما قلته لك بالأمس ؟ » .

« اذكره ! اذكره ! ولكننى لا ابخل بشىء فى سبيل نسيانه ، مسكينة كاترينا ! انها لا تعلم كثيرا مما تعلمه روحها ؟ » .

وقال دانيلو بينه وبين نفسه : « اذن فهذه روح كاترينا ! » ولكنه لم يأنس فى نفسه الجراة على الاتيان بأية حركة .

« تب يا أبت واستغفر ! اليس من المفزع أن يقوم الموتى من قبورهم بعد كل جريمة قتل تقترفها ؟ » .

فقال الساحر مهددا : « لقد عدت الى سيرتك الأولى ! لأسلكن السبيل التى اشاء ، ولأحملنك على فعل ما أريد ، ولسوف تحبنى كاترينا ! » .

فتاوهت هاتفة : « تبا لك ! انك لوحش ولست بأبى ، كلا ! لن يكون لك ما تريد ! صحيح ان سحرك الدنس يهب لك من القوة ما تستطيع به ان تستحضر روحها وتعذبها ، ولكن الله وحده هو الذى يستطيع أن يسيرها كما يشاء ، حاشى ! كاترينا لن تتنزل الى اقتراف هذا الاثم ما دمت احل فى جسدها . ابتاه ! لقد دنت ساعة القصاص الرهيب ! وهيهات أن تحملنى على خيانة زوجى المخلص المحبوب ، وان كنت شخصا آخر غير ابى . ولو قد عقنى زوجى ، وتنكر لعهدى ما خنته ، فان الله لا يحب من يخلف وعده وينكر العهود والمواثيق »» ثم تعلقت عيناها الشاحبتان بالنافذة التى ربض دانيلو من تحتها ، ووقفت ساكنة لا حراك بها .

وصاح الساحر : «فيم تحدقين النظر ؟ ومن ذا الذى ترينه هناك؟»

واضطرب طيف كاترينا ، الا ان دانيلو كان قد هبط الى الأرض ، وانطلق هو وخادمه الأمين ستيتسكو . يشق الطريق الى داره فى الوادى ، وغمغم يقول بينه وبين نفسه وقد احس برعدة تسرى فى قلبه القوزاقى : « يا للفظاعة ! يا للفظاعة ! » ، واجتاز فى عجلة فناء

داره فوجد القوزاق قد استسلموا للنوم فيه كشأنهم ، الا واحدا جلس يسهر عليهم وهو يدخن غليونه .

وكانت السماء مرصعة بالنجوم .

– ٥ –

وهتفت كاترينا وراحت تمسح عينيها بردن قميصها المطرز ، وتحدق فى زوجها بنظراتها وهو واقف قبالتها : « لشد ما ابهج قلبى انك ايقظتنى ! الا ما ابشع الحلم الذى رايته ! لقد أوشك ان يزهق منى الأنفاس ! اواه ! لقد ظننت انى احتضر » .

« وكيف كان حلمك ؟ كان هكذا ؟ » ، وراح بورولباش يحدث زوجته بكل ما رأى .

وسألته كاترينا فى دهشة : « ايه يا زوجى ، كيف عرفت حلمى ؟ ولكن كلا ، فانى لا اعرف الكثير مما حدثتنى به ، أجل ، لم أر فى حلمى أن ابى قتل امى ، ولم اشهد الموتى فى رؤياى ، كلا يا دانيلو ، انك لم تسرد الحلم على حقيقته ، أواه ! ويا لأبى من رجل مخيف!» .

« ما من عجب انك لم تحلمى بما رأيت ، وان ما تعرفينه لا يبلغ عشر معشار ما تعرفه روحك ، أتعرفين ان أباك عدو المسيح ، فقد حدث فى العام الماضى وانا اتأهب للانضمام الى صفوف البولنديين فى الحرب التى شنوها على اهل القريم وكنت آنئذ لا زال حليفا لأولئك القوم الكافرين – ان علمت من رئيس رباط الأخوة (وهو يازوجتى رجل تقى ورع) ان عدو المسيح له سلطان على الأرواح ، فهو قادر على استحضار ارواح الناس جميعا ، ذلك ان الروح تهيم كما تشاء حين يخلد الجسم الى النوم ، وتطوف مع رؤساء الملائكة حول عرش الله ، وقد كرهت وجه ابيك مذ وقع عليه بصرى لأول وهلة ، وما كنت لأتزوجك لو عرفت أن لك أبا على هذه الشاكلة ، فقد كان اولى بى أن اهجرك ، ولا احمل ضميرى وزر الاقتران بربيبة عدو للمسيح » .

فصاحت كاترينا وقد اخفت وجهها بيديها وانفجرت باكية : « أى دانيلو ! ما الذى تأخذه على ؟ أو قد خنت عهدك يا زوجى المحبوب ؟ واى ضير ارتكبت حتى أثرت غضبك ؟ ألم أصدق فى خدمتك ؟ وهل

كانت تبدر منى كلمة واحدة حين تعود مرحا من سكرة ؟ الم الد لك ابنا مشرق الوجه ضاحك الجبين ؟ » .

« لا تبكى يا كاترينا ، لقد عرفتك الآن ، وما من شيء يحملنى على هجرانك ، وانما الوزر وزر ابيك وحده » .

« لا تقل انه ابى ! فما هو بأبى ! والله على ما اقول شهيد ، انى انكره ! اجل انكر ابى ! فهو عدو للمسيح ، وقد عصى الله ! ولو قد رأيته يهلك أو يغرق ما مددت يــدا لانقـاذه ، ولئن ألهب عشب سحرى حلقه ما ناولته قطر من ماء ، وليس لى من اب سواك ! » .

ــ ٦ ــ

وكان الساحر مقيدا بالسلاسل الحديدية يرقــد فى جب عميق تحت الأرض بدار دانيلو وقد اوصد من دونه باب احكم اغلاقه بثلاثة اقفال ، واخذت النار تشـــتعل فى قصره الجهنمى الذى يعلو نهر الدنيبر ، وراحت امواج النهر تصطخب وتفور حول الجدران متوهجة كالدم القانى ، ولم يكن ما نزل بالساحر من حبس فى هذا الجب القائم تحت الأرض جزاء له على السحر الذى يمارسه أو الاعمال الشريرة التى يقترفها ، فان الله وحده هو مجازيه على هذه الأفعال ، وانما كان السبب فى حبسه هو خيانته للعهد سرا ، ذلك انه كان قد تآمر هو وأعداء روسيا الأرثوذكسية على بيع الشعب الأوكرانى الى الكاثوليك واحراق الكنائس المسيحية . لقد كان الساحر مكتئبا كاسف البال تطوف بذهنه أفكار سود كالليل البهيم ، ولم يبق له فى هــذه الدنيا الا يوم واحد ، فقد كان ينتظر مصيره غدا ، ويا له من مصير رهيب أرحم ما فيه أن يلقى به حيا فى مرجل يغلى حتى يموت أو يسلخ عنه جلده الآثم ! لقد كان الساحر مغتما مهموما منكس الرأس ، ولعله كان يتوب ويستغفر وقد اصبح على حافة القبر ، ولكن ذنوبه لم تكن بالذنوب التى يغفرها الله . وكانت من فوقه نافذة صغيرة يغشاها شباك من حديد ، وتطلع الساحر من النافذة راسفا فى أغلاله المصلصلة آملا أن تكون ابنته ، تلك الحمامة الوديعة البريئة ، مارة بمحبسه ، فتدركها الرحمة بأبيها ، ولكنه لم يجد احدا . وكان الطريق يمر

تحت النافذة مقفرا لا يجتازه مخلوق ، وانما يجرى من تحته نهـر الدنيبر يضطرب غير حافل بأحد ، ويهمهم ويهـــدر ويبلغ صوت رشاشه الرتيب مسامع السجين كئيبا موحشا .

ثم ظهر شخص يسير فى الطريق ، وكان هـــذا الشخص رجلا من القوزاق ، وتنهد السجين من أعماق قلبه ، وعاد الطريق فخلا من المارة ، ثم بدا شخص يهبط التل ، ورفرف معطف أخضر بفعل الريح، وتألق على راس صاحبته غطـاء ذهبى ، لقد كانت هى ! واقترب المعطف من النافذة شيئا فشيئا ، وتبين انها أخذت تدنو من السجين الان .

« أى ابنتى كاترينا ! ارثى لحالى وارحمينى ! » .

ولزمت كاترينا الصمت المطبق ، وابت أن تنصت ، ولم تلتفت الى السجين تلقى عليه نظـرة ، ثم مرت به واختفت ، وأقفرت فى عينيه الدنيا بأسرها ، وأخذ نهر الدنيبر يهدر فى وحشة وكآبة ، ويثقل القلب بحمل من الحزن والأسى ، ولكن ترى هل كان الساحر يعرف شيئا من هذا الحزن ؟ .

كان النهار يلفظ انفاسه الأخيرة والشمس تولى ، ولم تلبث ان اختفت ، وحل المساء ، واصبح الجو رطيبا منعشا ، وانبعث ثور يخور فى مكان ما ، وانطلقت أصوات تسبح من بعيد ، ولا شك انها كانت لقوم يعودون من العمل الى ديارهم وهم يمرحون وتراءى للأنظار قارب يشق عباب نهر الدنيبر ، ولم يفكر أحد فى أمر ذلك السجين المقيد بالأصفاد ، واخذ هلال فضى يتألق فى السماء ، واقبل انسان من الجهة المقابلة يسير فى الطريق ، ويتعذر على العين أن تستبين شكله فى الظلام ، وكان هذا الانسان هو كاترينا تعود أدراجها .

« أى ابنتى ، هلا تستمعين الى بحق المسيح ! ان صغار الذئاب المتوحشة نفسها لا تمزق امها اربا اربا ، أى ابنتى ! هـــلا تجودين بنظرة واحدة على ابيك الآثم ! » .

ولكنها لم تحفل به ، ومضت فى طريقها ! .

« أى ابنتى ، انى أستحلفك بأمك الشقية ! » .

فتوقفت .

« أدنى منى واستمعى لكلماتى الأخيرة ! » .

« لماذا تناديني يا عدو الله ؟ لا تقل يا ابنتي ! فليس بيننا قرابة ولا نسب ! ماذا تريد منى حتى تستحلفنى بأمى الشقية ؟ » .

« كاترينا ، لقد اقتربت نهايتى ، وانى لأعلم ان زوجك يريد أن يربطنى بذيل فرس برية ويطلقها تركض فى الخلاء ، ومن يدرى ؟ لعله يدبر لى مصيرا أشد هولا من هذا المصير ! » .

« ولكن أفى هذه الدنيا قصاص يجزيك الجزاء العادل على ما ارتكبت من آثام ؟ الا فلتنتظر ما يحل بك من قصاص ، ولن يطلب احد لك الرحمة » .

« كاترينا ، انا لا اخشى القصـــاص فى هذه الدنيا ، وانما الذى اخشاه هو عذاب الآخرة . كاترينا ، انك لطــاهرة نقية ، ولسوف ترفرف روحك حول عرش الله فى الفردوس ، واما روح أبيك الشريرة فسوف تحترق فى نار لا تنطفىء لها جذوة ولا يخمد لها أوار ، بل تزداد ضراما على ضرام ، فلا تجودها قطرة من ندى ، أو تمر بهـــا نسمة من ريح ! » .

فقالت كاترينا مشيحة عنه : « لا حيلة لى فى التخفيف من عذابك » .

« كاترينا ! صبرا ، فقد بقيت لى كلمة واحدة ! فى وسعك أن تنقذى روحى ، فانك لا تعرفين بعد مبلغ ما تصل اليه رحمـــة الله وكرمه ، الم تسمعى قصة بولس الرسول ؟ لشد ما لج هذا الرجل فى الاثم ، ولـكنه تاب بعد ذلك وأناب ، فدخل فى زمرة القديسين الأبرار ! » .

فقالت كاترينا : « وماذا أستطيع ان افعل لانقذ روحك ؟ وكيف يجوز لى انا المراة الضعيفة ان أفكر فى هذا ؟ » .

« لو استطعت الخروج من سجنى لنبذت كل شىء ، وتبت الى الله ، ولذت بكهف واكتفيت بقميص من الشعر القيه على جسدى ، واقمت الصلاة لا انقطع عنها ليلى ولا نهارى . أجل لو حدث هذا لأمسكت عن اكل اللحم بل الســمك أيضا ! وافترشت الغبراء فى منامى ، ومضيت أصلى وأصلى بلا انقطاع ! ولو اقتضت مشيئة الله الا يغفر برحمته من ذنوبى الا أيسر اليسير لدفنت نفسي فى الأرض حتى عنقى ، أو حبستها فى سجن عليه اسوار من الحجارة ، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى القى حتفى ، ووهبت للرهبــان متاعى جميعا

لعلهم يرتلون الصلوات على روحي أربعين يوما وأربعين ليلة » .

وفكرت كاترينا قليلا ثم قالت : « اذا كنت استطيع ان اخرجك من محبسك فكيف استطيع أن افك قيودك ؟ » .

فقال : « انني لا اخشى الاغلال ، اتقولين : انهم قيدوا يدى وقدمى ؟ كلا ، فقد القيت على عيونهم غشاوة ولم الق لهم بيدى ، وانما مددت لهم خشبتين جافتين » . ثم مضى يقول وهو يسير الى وسط القبو : « هاك ، انظرى ! فما من قيد يغل الآن يدى او قدمى ! وما كنت لأخشى هذه الجدران ايضا فانى استطيع ان انفذ منها ، ولكن زوجك لا يعرف سر هذه الجدران ، قد بناها ناسك ورع ، وما من قوة من قوى الشر بقادرة على تخلص منها سجينا الا اذا توسلت بالمفتاح الذى جرى الناسك على ان يغلق به هو نفسه صومعته ، تلك الصومعة التى سأبني مثلها سواء بسواء ، انا الآثم الممعن فى الاثم ، حين املك حريتى مرة اخرى » .

فقالت كاترينا وهى تقف ساكنة بالباب : « استمع الى ، فانى مطلقة سراحك ، ولكن ماذا يكون لو خدعتنى ولم تتب وعدت كما كنت ربيبا للشيطان ؟ » .

« حاشى يا كاترينا ، فلم يبق فى اجلى الا القليل ، لقد دنت نهايتى وان لم يقتصوا منى بالقتل ، اتصدقين اننى عولت على ان اسلم القصاص الأبدى نفسى ؟ » .

وصرف المفتاح فى القفل .

وقال الساحر وهو يقبلها : « وداعا ! وليكلأك الله بعنايته ورحمته يا ابنتى ! » .

وقالت كاترينا : « لا تلمسنى ايها الآثم الزنيم ، واذهب وعجل ! » .

وولى الساحر .

وقالت كاترينا تحدث نفسها وقد استبد بها الرعب ، واخذت تنظر الى الجدران نظرة زائغة : « ماذا دهانى حتى اطلقت سراحه ؟ وماذا اقول لزوجى الآن ؟ لقد اصبحت من الهالكين ، ولم يبق لى الا ان ادفن نفسى حية ! » وانبعثت تبكى وتنتحب واوشكت ان تسقط على كتلة الخشب التى كان السجين يجلس عليها ، ثم مضت تقول فى صوت رقيق : « ولكننى انقذت روحا ، فاتيت بذلك عملا صالحا ، الا اننى

خدعت زوجي للمرة الأولى ، أواه ! ما افظع ما اتيت ! وما اشد على نفسي ان اكذب عليه ! وى ! ان شخصا يقترب ! أنه هو زوجي ! » ، وصرخت صرخة تفيض باليأس والقنــوط ، وسقطت على الارض فاقدة الوعي .

ـ ٧ ـ

وما ان ثابت كاترينا الى رشدها حتى رأت الخادم العجوز وسمعت صوتا يهتف بها : « انني انا هي ، يا ابنتي ! انني أنا هي يا حبيبتي!» ، وانحنت المرأة عليها ، وبدا انها تهمس بشيء في أذنهــا ، ومدت يدها الواهنة الذابلة ونضحتها بالماء .

وقالت كاترينا وهي تجلس ملتفتة حولها : « اين انا ؟ ان نهر الدنيبر يهدر امامي ، والتلال تقوم من خلفي ، فالى أين أخذتني ؟ » .

« لقد نقلتك الى خارج البيت ، وحملتك بين ذراعي من القبــو الخانق ، ثم عدت فأغلقت القبور حتى لا يسيء اليك سيدي دانيلو » .

وقالت كاترينا وهي تنظر الى حزامها : « وأين المفتــاح ، فاني لا أراه ؟ » .

« لقد اخذه زوجك ليلقي نظرة على الساحر يا ابنتي » .

فصاحت كاترينا تقول : « ليلقى نظرة على الســاحر ! اذن فقد هلكت ! » .

« فلينقذنا الله برحمته من هذا البلاء يا ابنتي ! وحسبك أن تتذرعي بالصمت يا سيدتي الصغيرة ، فلا يعرف احد من هذا الأمر شيئا » .

وقال دانيلو وهو يمضي الى زوجته : « لقد هرب الملعون عدو المسيح! أتسمعين يا كاترينا ؟ لقد هرب ! » ، وانبعث الشرر من عينيه ، وأخذ سيفه يقعقع الى جانبه ، اما زوجته فكانت اقرب الى الأموات منها الى الأحياء .

وغمغمت وهي ترتعد : « او اطلق سراحه احد يا زوجي العزيز؟ » .

« آجل ، لقد صدق ظنك ، فان الشــيطان هو الذي اطلقه من محبسه ، انظري ، لقد ترك مكانه كتلة من الخشب مصفدة بالأغلال ، ويخيل الى ان مشيئة الله قد قضت بألا يخشى الشيطان يد رجل

من القوزاق ! ولو قد دار بخلد احد ان يأتى مثل هذا الفعل وعلمت بأمره ما وجدت عقابا استطيع ان اجزيه به ! » .

ولم تستطع كاترينا ان تقاوم رغبتها فى السؤال : « واذا كنت انا التى فعلت هذا ... ؟ » . ثم كفت عن الكلام وقد تملكها الفزع .

« لو كنت فعلت هذا ما اصبحت زوجتى ، ولوضعتك فى كيس ثم خطته من دونك ، وقذفت بك فى عرض الدنيبر » .

ولهثت كاترينا مبهورة الأنفاس ، واحست بشعرها يقف على راسها .

— ٨ —

وكان البولنديون قد تجمعوا فى حانة على طريق الحدود ، وظلوا يحتفلون فيها يومين لا يخالطهم من الغوغاء الا القليل ، وما من شك فى أن اجتماعهم كان لغارة يشنونها ، فقد حمل بعضهم البنادق ، وانبعثت المهاميز تجلجل والسيوف تصلصل واخذا الأعيان يمرحون ويتفاخرون، ويتشدقون بما اتوه من عجيب الفعال ، ويسخرون بالمسيحيين الأرثوذكس ، ويسمون الأوكرانيين عبيدهم ، ويفتلون شواربهم فى قحة ، ويتمرغون على الآرائك . وكان من بينهم قسيس ، ولكنه كان على شاكلتهم لا تبدو عليه سمة واحدة من سمات القسيس المسيحى ، فقد كان يشرب معهم وينادمهم ويجرى لسانه الآثم بكلمات يندى لها الجبين خجلا .

ولم يكن الخدم احسن حالا من اسيادهم ، فقد شمروا عن اردان سترتهم المهلهلة ، وراحوا يسيرون متبخرين كأنهم من ذوى الجاه والخطر ، ويلعبون الورق ويضرب كل منهم الآخر بالورق على انفه ، وكانوا قد جاءوا معهم بزوجات غيرهم ، يعمى العيون ، واختلط الحابل بالنابل ، الا ان القوزاق كانوا فى قمة مرحهم ، يأتون من الالاعيب اشكالا والوانا فيجذبون صاحب الحانة اليهودى من لحيته ، ويرسمون بالطلاء صليبا على جبينه الفاجر ، ويرمون النساء بطلقات فارغة من البارود ، ويرقصون الرقصة الكراكوفية مع قسيسهم الزنديق . ولم تشهد الأرض الروسية من قبل مثل هذا الاثم حتى بين التتر ، ولعل

الله قد اقتضت مشيئته أن ينزل بروسيا هذا الخزى العظيم على ما اقترفت من آثام . وكان يسمع فى غمرة هذه العربدة الشبيهة بعربدة المجانين لغط صادر عن دار دانيلو التى تعلو نهر الدنيبر وعن زوجته الحسناء .

وكان من الجلى ان هذه العصابة تدبر أمورا شنعاء .

- ٩ -

وجلس دانيلو على المائدة فى داره وقد استند الى مرفقه ، واستغرق فى تأملاته . وجلست كاترينا على اريكة الموقد تغنى .

وقال دانيلو : « أى زوجتى ، اننى لحزين ، مصدع الراس كسير القلب ، وقد انهد منى الجسم حتى ليبدو لى أن منيتى اصبحت قريبة » .

وكانت كاترينا تريد ان تقول : « أواه ! يا زوجى الحبيب ! اسند راسك على ! ما بالك تستسلم لمثل هذه الأفكار السود ؟ » ، ولكنها لم تجرؤ على النطق بهذه الكلمات فقد حز فى نفسها ان تأتى هذا الاثم وتلقى من زوجها التدليل والاعزاز .

وقال دانيلو : « استمعى الى اى زوجتى ! لا تتخلى عن ابننا ، حين ينتهى اجلى ، وليحرمنك الله طعم السـعادة فى الدنيا والآخرة ان فعلت ، فما اشقى أن تتحلل عظامى فى الأرض الرطبة ، واشقى من ذلك وقعه على روحى ! » .

« زوجاه ، ماذا تقول ؟ السـت انت الذى كنت تسخر منا نحن النساء الضعيفات ، ان أمامك عمرا مديدا لابد أن تعيشه » .

« كلا يا كاترينا ، ان قلبى يحس بدنو الأجل ، والدنيا تضيق فى عينى ، وأمامنا أيام شداد ، آه ! انى لأذكر ، اجل اذكر السنوات ... وهيهات أن تعود ! لقد كان يعيش آنئذ ، كوناشيفتش العجوز الذى تمثل فيه شرف جيشنا ومجده وفخاره ! ان الفرقة القوزاقية تمر الآن أمام عينى كأنما يحدث ذلك اليوم » .

« لقد كانت أيامنا مجيدة يا كاترينا ! يستوى فيها شيخ القوزاق العجوز على ظهر جواد أسود أصيل ، ويتألق الصولجان فى يده ويقف الحرس من حوله ويسير على جانبيه بحر ضخم احمرمن الزابوروجاويين وما ان يشرع الزعيم فى الكلام حتى يقف الجميع كأنهم سمروا فى الأرض

تسميرا . لقد كان العجوز يبكى حين يحدثنـــا عن الغزوات والمواقع الماضية ، آه ياكاترينا ، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك فى تلك الأيام ! ان أثر الجرح الذى فى راسي لا يزال ظاهرا حتى الآن ، وقد نفذت فى جسمي اربع رصاصات فى اربعة مواضع ، ولم يشف منها جرح واحد تمام الشفاء ، ويا للذهب الذى غنمناه فى تلك الأيام ! » .

« لقد ملأ القوزاق قبعاتهم بالأحجار الكريمة ، ويا للجياد ! ، وى ! ان عدد ما سقناه أمامنا منها لفوق ما تتصورين ! هيهات أن أقاتل مثل هذا القتال مرة اخرى ! ان الوهم ليصور لى اننى لا زلت قوى الجسم لم تمض بى السن بعد ، ولكن السيف يسقط من يدى ، وهأنذا اعيش مقيدا لا افعل شيئا ، ولست أدرى : لم اعيش ؟ لقد تلاشى النظام فى أوكرانيا ، وأصبح أفراد الجيش وضباطه يتشاجرون كما تتشاجر الكلاب ، وليس من فوقهم رئيس يمسك بزمامهم ، وبدل خاصتنا كل شىء ووسموه بطـابع البولنديين . واخـــذوا عنهم أساليبهم الماكرة الخبيثة . لقد باعوا أرواحهم واعتنقوا مذهب الأونيات ، وراح اليهود يضطهدوا الفقراء ، آه ! اين تلك الأيام ! اجل أين تلك الأيام الماضية ! واين انت يا أيام شبابى ؟ اذهب الى القبو يا غلام وائتنى بابريق من نبيذ العسل ! ولأشربن نخب الماضى ، نخب السنوات التى ذهبت ولن تعود ! » .

وقال ستيتسكو وهو يلج الغـــــرفة : « كيف نستقبل ضيوفنا يا مولاى ؟ ان البولنديين مقبلون من جانب المرج » .

وقال دانيلو وقد هم بالوقوف : « لا اعرف سبب مجيئهم ، اسرجوا جيادكم أى رجالى المخلصين ! وارتدوا دروعكم واشهروا ســـيوفكم ! ولا تنسوا أن تتزودوا بمئونتكم من الرصاص ، فان الواجب يقتضينا أن نكرم ضيوفنا ! » .

وما أن هم القوزاق بأن يسرجوا جيادهم ويحشوا بنادقهم حتى كان البولنديون قد غطوا سفح التل كما تغطى أوراق الأشجار أديم الأرض وقت الخريف .

وقال دانيلو وهو ينظر الى البولنـــديين الأشداء وهم يتقدمون الصفوف ، يتمايلون فى رزانة ووقار على ظهور جيادهم الأصيلة ذات السروج الذهبية « آه ! هاكم اعداء نختبر قوتنا معهم ! ولعل من

نصيبنا ان نخوض غمار جولة مجيدة اخرى ! فطيبى أيتها النفس القوزاقية للمرة الأخيرة ! وهلموا ايها الفتيان ، فقد اقبل العيد ! » .
واقيم العيد على التلال ، وكان القصف والمرح عظيمين ، فقد اخذت السيوف تتلاعب والرصاص يتطـــاير والجياد تصهل وتضرب الأرض بقوائمها ، وكان الصياح يذهل العقل ، والدخان حتى عن نفسها ، وراحت تصب على رأسها اللوم في صوت يعرف عدوه من صديقه ، وكلما دوت رصاصة سقط فارس كريم عن سرجه ، وكلما برق سيف هوى راس على الأرض يدمدم ويغمغم بكلمات متقطعة لا تفصح ولا تبين.

على ان قبعة دانيلو القوزاقية كانت تبدو للعيان دائما فى غمرة هذه الزحمة ، وكان حزامه الذهبى يطوق سترته الزرقاء الداكنـــة يتألق ويتلألأ ، وعرف جواده الأسود الأصيل يخفق مع الريح . وكان دانيلو يمرق هنا وهناك فى خفة الطـــــائر يصرخ ويلوح بسيفه الكريم يطيح بالرءوس يمنة ويسرة . ايه ايها القوزاقى ، أطح بالرءوس وامرح ! واشف قلبك النبيل ! ولكن لا تنظر الى السترات والحلى الذهبية وطأ الذهب والجواهر بقدميك ! ولكن التفت وراءك ، فقد اخذ البولنديون الأشرار يشعلون النار فى الاكواخ ويسوقون الماشية المرتاعة أمامهم . وعاد دانيلو ادراجه كالزوبعة ، واخذت القبعة ذات الريشة الحمراء تتألق بجوار الأكواخ ، ويتفرق شمل الزحمة الضاربة حوله .

وتقاتل البولنديون والقوزاق ساعة بعد ساعة ، فما بقى من الجانبين الا القليل،ولم يخفف دانيلو من حراراته ، بل راح يطعن برمحهالطويل فرسان البولنديين فيسقطهم عن سروجهم ويطأ جواده الأصيل الجرىء مشاتهم ، حتى أوشك فناء داره أن يخلو من الغزاة . وتعلقالبولنديون بأذيال الفرار ، واخذ القوزاق ينتزعون السترات الذهبية ، والزينات الفاخرة عن أولئك الذين قضوا عليهم ، وانطلق دانيلو يطارد من ولى الأدبار منهم ، وتلفت ليجمع شتات رجاله ، ولكن الغضب غلب عليه ، فقد راى ابا كاترينا .

وكان الرجل يقف على سفح التل يصوب بندقيته نحوه ، وحث دانيلو جواده مندفعا اليه لا يلوى على شىء : قف ايها القوزاقى ! انك تسعى الى حتفك بظلفك ! ثم انطلقت رصاصة وتوارى الساحر خلف التل ، وغاب عن الانظار ، وانما لمح ستيتسكو الأمين سترة الساحر

الحمراء وقبعته الغريبة ، وترنح القوزاقي وسقط على الأرض ، وهب ستيتسكو لنجدة سيده ، فوجده ملقى فوق الثرى وقد غمض عينيه المتألقتين وراح الدم القانى ينبثق من صدره . على أنه كان يحس وجود خادمه الأمين بلا شك . ورفع دانيلو حاجبيه فى تثاقل وتألقت عيناه وهمس : « وداعا يا ستيتسكو ! قل لكاترينا الا تتخلى عن ابننا ! وأنتم يا خدم المخلصين لا تتنكروا له ! » ، ثم امسك ، وفارقت روحه الكريمة جسده النبيل ، وازرقت شفتاه ، وأخذ القوزاقى الى نوم طويل لا قيام بعده .

وانتحب خادمه الامين وأومأ الى كاترينا : « تعالى يا سيدتى ، تعالى ! لقد كان زوجك يلهو ويشرب ، وها هو ذا ينام الان على الأرض الرطيبة نشوان ثملا ، ولن يفيق الا بعد زمن طويل ! » .

وعصرت كاترينا يديها وارتمت على الجسد المسجى : « اى زوجى ، أانت الذى ترقد هنا مغمض العينين ؟ انهض أيها الحبيب ومد يدك ! انهض ! والق نظرة واحدة على زوجتك كاترينا . حرك شفتيك ، وقل كلمة واحدة ، كلمة واحدة فحسب . ما بال لسانك قد انعقد ولج فى الصمت يا زوجى الكريم ؟ لقد أسود لونك حتى حاكى البحر الأسود ، وكف قلبك عن النبض . لم شاعت كل هذه البرودة فى جسمك ياسيدى وتاج رأسى ؟ يخيل الى أن دموعى لم تبلغ من الحرارة ما يبعث الدفء اليك ! ان بكائى لم يرتفع الى حد العويل حتى يوقظك ! أين من يقود كتائبك الآن ؟ ومن ذا الذى ينطلق بجوادك لأسود الأصيل ويهتف بالصوت المجلجل ويقود القوزاق ملوحا بسيفه ؟ أيها القوزاق ، أيها القوزاق ! أين من كان رمز شرفكم ومجدكم ؟ انه ملقى الآن مغمض العينين على أديم الثرى الرطب ! ادفنونى ، ادفنونى معه ! واهيلو على عينى التراب ! ، ودعوا ألواح شجر الاسفندان يجثم على صدرى الأبيض ! فأى نفع أرجوه الان من ملاحتى وحسنى ؟ » .

وحزنت كاترينا وبكت ، وثار النقع فغطى الأفق البعيد ، ذلك أن الصاغ جوروبتس العجوز كان قد خف لنجدة مواطنيه .

— ١٠ —

ما اجمل الدنيبر تنساب مياهه فى الجو الهادىء منطلقة ناعمة

خلال الغابات والتلال ، لا ينبعث منها صوت ولا تحس لها خريرا ولا هديرا ! فاذا نظرت اليه لم تدر : أيتحرك هذا الخضم في جلاله أم لا يتحرك ؟ وقد تكون مياهه من البلور المنصهر تشق طريقهـا خـلال البقاع الخضر كأنها لوح من الزجاج الأزرق لا يعرف له مدى ولا تدرك له نهاية ، ويطيب للشمس اللافحة في مثل هذا الجو ان تطل من برجها العالي وتختلس النظر الى نفسها وتنفذ اشعتها المتألقة في مياه النهر الرطيبة الساجية ، ويحلو للضفتين الشجراوين ان ترقبا ظلالهما المتألقة وهي تنعكس في الماء ، وتدنو الغابات في حلتها الخضراء هي والأزهار البرية من حافة النهر حانية عليه تتأمله فلا تمل من الاعجاب بصورتها الرائعة المائلة فيه ، ثم تبتسم له وتحييه بايماءة من اغصانها . على انها لم تكن لتجرؤ على النظر في عرض الدنيبر ، وانما يستطيع ذلك الشمس والسماء الزرقاء . الا ما اروعك يا نهر الدنيبر : وهيهات ان يكون لك مثيل في هذا العالم ! ، وما اجمل نهر الدنيبر في ليلة من ليالي الصيف الدفيئة حين تستسلم للكرى عيون الناس جميعا ! فيهجع الانسان والحيوان والطير ، ولا يبقى الا الله وحده ساهرا يرعى بجلاله وعظمته الأرض والسماء ، ويهز ثوب ملكوته في عظمة وجلال ، فتتناثر النجوم فيه ، وتتألق ويسطع نورها على العالم وتنعكس جميعا على صفحة نهر الدنيبر ، وتنطوي كلها في أحضانه المظلمة ، لا يفلت منها احد الا اذا انطفأ نوره في السماء . وتتدلى الغابات السود تناثرت فيها الغربان النائمة والتلال انشقت شعبا من تعاقب الدهور وكر الأيام ، وتحاول جاهدة أن تطويه في غمرة من ظلالها الوارفة ، ولكن هيهات !

فما من شيء في العالم يستطيع ان يخفي عن الأنظار نهر الدنيبر ، فهو ينساب عميقا في زرقة داكنة ، وينتشر ماءه في جميع الأرجاء ، فتراه العين في منتصف الليل كما تراه في الظهيرة بعيدا جدا ، على قدر ما يمتد البصر ، وهو ينكمش من برد الليل ، فيدنو من الشاطيء اكثر ويخلف وراءه أثرا من لجين يلمع لمعان النصل في السيف الكريم ، وتعود مياهه الزرق الداكنة فتهجع مستسلمة للنوم . الا ما اجمل نهر الدنيبر وهو على هذه الحال ! وهيهات أن تجد له بين انهار العالم مثيلا ! .

فاذا تجمعت سحب العاصفة الزرق الداكنة في السماء اهتزت الغابة

السوداء حتى الجذور ، وتراقصت اشجار السنديان وأضاء البرق العالم كله فجأة ، وراح يتلوى بين السحب ، وعندئذ يكون نهر الدنيبر مخيفا مهرولا تهدر أمواجه صاخبة تحاكي الجبال وتنقض على التلال ، وترتد مندفعة تومض وتئن وتولول وتنوح فى الفضاء البعيد ، وتنهج نهجا الأم العجوز اذ تودع ابنها وهو ماض الى الحرب ، وينطلق الفتى ممتطيا صهوة جوده الأسود الاصيل فى جراة واستهتار ، وقد وضع ذراعيه فى خاصرته ، ومال بقبعته اللطيفة على جانب راسه ، وراحت الأم تركض وراءه منتحبة تتعلق بركابه وتمسك باللجام ، ثم تعصر يديها عصرا من اجله وتذرف الدمع حارا سخينا .

وكانت جذامير الأشجار المحروقة والأحجار التى على الضفة النائية تصطخب من حولها الأمواج تبدو غريبة المظهر سود اللون . وضربت الأمواج القارب الذى ادلي الى الماء وقذفت به الى الشاطىء ورفعته ثم هوت به . ترى اى قوزاقى هذا الذى اجترأ على التجديف فى قارب ، ونهر الدنيبر العريق فى ثورته وهياجه ؟ لا شك انه يجهل أن النهر يبتلع الرجال كأنهم الذباب .

وبلغ القارب الشاطىء ، ونزل منه الساحر ، ولم يكن الرجل منشرح الصدر صافى المزاج ، فقد حز فى نفسه أن يرى الجنازة التى اقامها القوزاق احتفالا بسيدهم القتيل . ودفع البولنديون الثمن غاليا ، فقد لقى الموت منهم أربعة واربعون رجلا فى كامل عدتهم وزينتهم ، ومزق ثلاثة وثلاثون خادما اربا اربا ، واسر الآخرون بجيادهم لتباع الى التتر .

وهبط الساحر درجا من الحجارة بين الجذامير المحترقة الى موضع حفر فيه جبا عميقا فى الأرض ، ونزل الى الجب رفيق الخطا ، محاذرا ان يصدر عن الباب صرير ، ووضع قدرا على المائدة غطاها بقطعة من النسيج ، واخذ يلقى فيها بيديه الطويلتين بعض الأعشاب الغريبة ، وتناول ابريقا مصنوعا من خشب نادر ونزح به بعض الماء ثم سكبه وهو يحرك شفتيه ويردد تعويذة من تعـــاويذه ، وغمر الجب ضوء وردى ، وغدا وجه الرجل بشعا تتقحمه العين ، ولاح أن الدم قد غطاه الا من تجاعيد عميقة يغشاها السواد ، واتقدت عيناه بالشرر ، لبئس هذا الآثم الزنيم ، كيف يمضي ممعنا فى شروره وقد كلل الشيب لحيته، ورسمت التجاعيد خطوطا على وجهه واضنت الأيام جسمه ! .

وانبعثت سحابة بيضاء ترفرف فى الجب وبرقت ملامح الساحر بشىء يشبه البشر ، ولكن ما باله قد وقف ساكنا فاغر الفم لا يريم ولا يجرؤ على الاتيان بأية حركة ، ولماذا وقف شعر راسه ؟ وتلألأ امامه من خلال السحابة محيا شبح غريب ، أقبل يزوره بلا استئذان ولا دعوة ، وازداد الوجه وضوحا واخذ يتفرس فى الساحر لا يحول عنه نظره ، وكانت ملامحه كلها ــ الحاجبان والعينان والشفتان ــ غير مألوفة لديه، فلم يسبق له أن رآها فى حياته قط ، والظاهر ان الوجه كان بريئا كل البراءة مما يخيف ، ولكن الفـــــزع استبد بالساحر ، وظل الوجه الغريب يتفرس فيه من خلال السحابة ، ثم انقشعت السحابة ، ولكن الوجه الغريب ازداد وضـوحا على وضوح وظلت العينان الثاقبتان تحدجانه بنظراتهما ، وامتقع لون الساحر حتى غدا كصفحة النسيج الناصع ، وصرخ صرخة مدوية وقلب القدر ، فاختفى كل شىء عن الأنظار .

ــ ١١ ــ

وهتف الصاغ جوروبيتس العجوز : « ليطمئن بالك أيتها الأخت العزيزة ، فقلما تصدق الأحلام ! » .

وقالت زوج ابنة العروس : « ارقدى أيتها الأخت ولاسعين فى طلب سيدة عجوز ، بل امراة حكيمة لا تقف أمامها اية روح شريرة ، فتعينك على ما أنت فيه » .

وقال ابنه وهو يتحسس سيفه : « لا تخشى شيئا ، فلن يسىء اليك احد ! » .

واخذت كاترينا تنظر اليهم جميعا وقد اظلت عينيها غشاوة من الحزن والكآبة ، ولم تجد ما تقوله ، الا انها اخذت تحدث نفسها قائلا : « انا التى تسببت فى هلاك نفسى ، فقد افلت سراحه ! » .

ثم قالت آخر الأمر :

« انه لا يدع لى فرصة للطمانينة وهدوء البال ! وهانذا قد قضيت معكم هنا فى كييف عشرة ايام سويا ، فما خف لى حزن ، وكنت اظن اننى استطيع على أيسر تقدير أن انشىء ابنى فى سلام حتى يثأر

لابيه ، انه يظهر لى فى الحلم فظيعا كل الفظاعة ، بشعا كل البشاعة ! وقاكم الله شر رؤيته على هذه الحال ! ان قلبى لا يزال يضرب ، لقد كان يصيح بى : لأقطعن ابنك اربا اربا يا كاترينا أن لم تتزوجينى ! » ، ثم القت بنفسها على المهد وهى تنتحب ، وتملك الرعب الطفل ، فمد يديه الصغيرتين وعلا صوته بالبكاء .

وكان ابن جوروبيتس يغلى من الغيظ وهو يسمع تلك الكلمات .

أما جوروبيتس نفسه فقد ثارت ثائرته .

« فليخاطرن بالقدوم الى هنا ذلك الملعون عدو المسيح ، ولسوف يعلم ان كان قد بقى فى ساعة القوزاقى العجوز فضلة من قوة » . ومضى يقول وهو يتطلع بعينيه الثاقبتين الى السماء : « علم الله اننى هرعت لنجدة أخى دانيلو ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه ! فقد وجدته يرقد على اديم الثرى الرطب كما رقد كثير من القوزاق من قبل ، ولكن ما اروع الحفلة التى اقمناها لجنازته ، فقد اتينا على القوم ولم نترك بولنديا واحدا على قيد الحياة ! ليطمئن بالك يا بنيتى ! فان يجرؤ احد على أن يصيبك بأذى ما دام فى أنا أو ابنى عرق ينبض !»

وما ان انتهى الصاغ القوزاقى العجوز من حديثه هذا حتى اقترب من المهد ، ورأى الطفل غليونه الأحمر المرصع بالفضة والكيس الذى حمل فيه الحجر الصوان والصلب القادح للنار يتدليان من سير من الجلد ، فمد ذراعيه نحوه وهو يضحك ، فهتف الصاغ العجوز وهو يفك الغليون ويعطى الطفل اياه : « انه ينهج نهج ابيه ، يحلم بغليون وهو بعد فى المهد ! » .

وتنهدت كاترينا واخذت تهز المهد ، واتفق الجميع على أن يقضوا الليلة معا ، وسرعان ما استغرقوا فى النوم ، وثقلت جفون كاترينا ايضا واستسلمت للنعاس .

وشمل السكون الفناء والدار جميعا ، ونام من بالدار الا القوزاق الذين كانوا يقومون بالحراسة ، واستيقظت كاترينا فجأة واطلقت صرخة ، فاستيقظ الباقون أيضا وصاحت تقول : « لقد ذبح ! لقد قتل ! » ، واندفعت الى المهد والتف الجميع حوله وانعقد لسانهم من الرعب والفزع اذ وجدوا الطفل راقدا فيه وقد فارق الحياة ، ولم ينبس احدهم ببنت شفة ، وراحوا يعجبون من امر هذه الجريمة التى لم يسمع بمثلها أحد .

تمتد سلاسل من الجبال الشامخة على مبعدة من أوكرانيا ، فيما وراء بولندة ومدينة لمبرج العامرة ، وانتشرت هذه الجبال ، جبلا فى اثر جبل كحلقات من الحجارة انتثرت على الأرض ذات اليمين وذات اليسار ، تحيط بها طبقات من الصخر ترد عنها عادية البحر الصاخب المضطرب ، وتتوغل السلاسل الحجرية فى الافلاق وترانسيلفانيا ، وتشمخ بأنفها كحدوة الحصان الضخمة بين شعبى غاليسيا وهنغاريا ، ولا وجود لمثل هذا الجبال فى بلادنا ، فان البصر يرتد عنها وهو كليل ، ولم يسبق لانسان ان وطىء بقدمه بعض قننها ، ان منظرها لعجيب ، ومن يدرى ؟ لعل بحرا صاخبا قد افلت من شاطئيه الفسيحين اذ الت به عاصفة وقذفت بأمواجه الهائلة عاليا ، فاستحالات حجرا وظلت معلقة فى الفضاء بلا حراك ، او لعل سحبا كثيفة من سحب العاصفة قد سقطت من السماء وهوت الى الارض ، والا فمن أين جاءت هذه الجبال بذلك اللون الأشهب الذى نعهده فى تلك السحب تومض قننها البيض وتتألق فى ضوء الشمس .

وقد يسمع المرء اللغة الروسية تدور على الألسنة حتى جبال الكربات ، أما فيما وراء هذه الجبال مباشرة فلا يزال يتردد هنا وهناك صدى للهجتنا القومية ، فاذا اوغلت الى ابعد من ذلك اصبح المذهب واللغة غير اللغة ، ويقيم الشعب الهنغارى الغفير العدد هنالك ، وهم يركبون الخيل ويقاتلون ويشربون كالقوزاق سواء بسواء ولا يبخلون بالقطع الذهبية يخرجونها من جيوبهم لشراء حلى خيولهم وستراتهم النفيسة ، وتقوم بين الجبال فى تلك البلاد بحيرات واسعة عظيمة ساكنة الأديم كالزجاج وتعكس المرايا قمم الجبال العارية وسفوح التلال الخضر .

ولكن اى فارس هذا الذى يمتطى صهوة جواد ضخم أصيل بليل سواء تألقت النجوم أو خبأ ضياؤها ؟ واى بطل من العمالقة ذلك الذى مضى بجواده يخب خببا تحت الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة جواده الجبار على صفحة المياه الساجية ، والقى على الجبال ظله الرهيب الممدود ؟ لقد كانت درعه المصفحة

تنالق وقد اسند رمحا على كتفيه واخذ سيفه يقمقع الى جانب السرج، وانكفات خوذته الى الأمام ، وكان شاربه أسود وعيناه مغمضتين وقد ثقلت جفونه بفعل الكرى ، اجل لقد كان هذا الفارس نائما يمسك اعنة الجواد مستسلما للنعاس ، وكان يمتطى صهوة الجواد نفسه غلام صغير ، خادم استسلم للنعاس ايضا وقد تعلق بالبطل ، ترى ، اى رجل كان ؟ واين كانت وجهته ؟ وفيم كانت رحلته ؟ من يدرى ؟

لقد ظل بعد السير فوق الجبال يوما او اكثر من يوم ، ثم لاحت تباشير الصباح واشرقت الشمس فغاب عن الأنظار ، وانما كان رواد الجبال يشاهدون من حين الى حين ظلا طويلا يمرق فوق الجبل على الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم لا تغشاها سحابة ، وما أن عاد الليل فأسدل ستار الظلام حتى ظهر مرة اخرى وانعكست صورته على صفحة البحيرات يتبعه ظله المرتعش ، واجتاز البطل فى رحلته جبالا كثيرة وبلغ آخر الأمر جبل كريفان الذى لا يدانيه فى الارتفاع جبل من جبال الكربات ، فهو يشمخ بأنفه على الجبال الأخرى كالملك المتوج ، وعندئذ توقف الجواد وراكبه ، واستغرقا فى نوم زاد عمقا على عمق ، وحجبتهما السحب المسفة عن الأنظار .

- ١٣ -

« صه ، ولا تدقى هذا أيتها المرضع ، فان طفلى نعسان ، وقد ظل يبكى وقتا طويلا ثم استسلم للنوم ، انى ذاهبة الى الغابة أيتها المرضع ، ولكن ما بالك تنظرين الى على هذا النحو ؟ انك لمخيفة ، تطل من عينيك كلابتان من الحديد ، الا تبا لك، ما اطولهما ! وهما يتوهجان توهج النار ! لا شك انك ساحرة ! آه ! فان كنت ساحرة فاغربى عن وجهى ! فلسوف تسرقين ابنى ! يا للصاغ من غبى احمق ! فهو يظن اننى انعم بالعيش فى كييف ، كلا ان زوجى وابنى هنا ، فمن يدبر امر البيت ؟ لقد خرجت فى خفة حتى ان الكلب والهرة لم يسمعا دبيب قدمى ، اتريدين أن تعودى الى شبابك أيتها المرضع ؟ ليس هذا بعسير على الاطلاق ، وما عليك الا أن ترقصى ، انظرى كيف ارقص ؟ » .

وما أن اتمت كاترينا هذا الحديث المضطرب حتى شرعت ترقص

وهى تدير عينيها الناطقتين بجنونها وتضع ذراعيها فى خاصرتيها ، ثم صرخت وأخذت تضرب الأرض بقدميها ، وانطلق كمباها الفضيان يقعقعان فى نشاز لا ايقاع فيه ولا نغم ، وطفقت تدور فى سرعة كالطائر لا تستقر ولا تستريح ، وهى تلوح بيديهـــا وتومىء برأسها ، حتى بدا للأنظار الا مناص من ان تسقط على الأرض فاقدة الوعى أو تحلق فى الجو حتى تبلغ العالم الآخر .

ووقفت المرضع العجوز حزينة كاسفة البال وقد خضب الدمع وجهها المتغضن ، وأثقل الهم والأسى قلوب القوزاق الأمناء وهم ينظرون الى سيدتهم ، وخارت قواها آخر الأمر وتشبثت بالموضع الذى هى فيه تضرب الأرض بقدميها فى ضعف ووهن ، زاعمة أنها ترقص دورا ، ثم توقفت وقالت : « عندى ايها الغلمان قلادة ليس عندكم مثلها ! » وصاحت فجأة وهى تشهر خنجرا تركيا أخذته من حزامها : « اين زوجى ؟ آه ! ليس هو السكين الذى أنا فى حاجة اليه » ، وعندئذ انهمرت الدموع من عينيها حزنا وكمدا وقالت : « ان قلب ابى ليكمن فى أعماق نفسه ، ولن يصل اليه هذا النصل ، فقد قد قلبه من حديد ، وطرقته ساحرة فى نار الجحيم ، لم لا يأتى أبى ؟ الا يعلم ان الوقت قد حان لطعنه ؟ يخيل الى أنه يريد منى أنأذهب اليه بنفسى،يبدو . . . »، ثم سكتت وضحكت ضحكة غريبة ، ومضت تقول : « لقد تذكرت قصة مضحكة ، أجل تذكرت كيف دفن زوجى ، فقد دفن حيا كما تعلمون ، وحملنى ذلك على الضحك ! انصتوا ، انصتوا ! » ولكنها لم تتكلم بل راحت تغنى :

انطلقت عربة خضبها الدم تسابق الريح
ورقد فوقها قوزاقى
اصيب برصاصة فى صدره وطعنة فى قلبه
وفى يده اليمنى رمح
يقطر منه الدم
وينهال كالنهر المتدفق
وقد حنت على النهر شجرة دلب
وقف فوقها غراب ينعق

* * *

وها هى ذى الأم تبكى القوزاقى

لا تبكى ايتها الام ولا تحزنى ؟
فقد تزوج ابنك
واختار فتاة كريمة عروسا له
وقامت فى الحقول العارية اكمة من الثرى
بلا باب ولا نافذة
وهكذا تنتهى قصتى

* * *

لقد كانت سمكة ترقص مع سرطان البحر
ولتقض البرداء على أم
من لايحبنى

* * *

وهكذا خلطت بعض سطور من أغان مختلفة ببعض ، وكانت كاترينا تقيم منذ يومين فى بيتها هى ، وابت ان تسمع شيئا عن كييف ، ورفضت ان تتلو صلاتها او تلقى اى انسان ، وكانت تتجول من الصباح الى المساء فى ادغال السنديان المظلمة ، فتخدش العساليج الحادة وجهها وكتفيها البيضاوين ، وتثير الريح شعرها المرسل ، وتخشخش اوراق الخريف تحت قدميها ، ولكنها لم تكن تحفل بشىء . وقد كان من الامور المخيفة ان يسير احد فى الغابة من وقت أن يخبو وهج الشمس الغاربة الى حين تظهر النجوم أو يضىء القمر ، ذلك ان الأطفال الذين لم يعمدوا يتسلقون فى هذه الأثناء فوق الأشجار ويتعلقون بغصونها ، ويتدحرجون فى الطرقات وقفار القريض ينشجون ويضحكون ، وتبرز العذارى اللواتى فقدن أرواحهن واحدة فى اثر الأخرى من أعماق الدنيبر وتسترسل جدائلهن الخضر على أكتافهن ، ويقطر الماء من شعرهن الطويل على الأرض فى صوت منغوم وتتألق عذراء من خلال الماء كانه نقاب شفاف من البللور ، وتبتسم شفتاها فى خفاء وغموض وتشرق وجنتاها وتخلب عيناها اللب حتى ليضطرم الفؤاد بنار الحب ، ويخيل للمرء انها سوف تمطره بالقبلات حتى تزهق منه الانفاس ، ألا فلتنج بنفسك أيها المسيحى ! فان شفتيها باردتان كالثلج ، وفراشها ... هو الماء البارد ، ولسوف تداعبك وتعابثك حتى تقضى عليك ثم تجرك الى

النهر. ولم تك كاترينا تنظر الى واحدة من هاتيك العذارى ، ولا تخش فى خبلها عرائس البحر، فقد كانت تهيم ليلا وفى يدها سكينها تبحث عن أبيها ، وتفتش عنه .

وفى باكورة اليوم التالى جاء الى المنزل زائر حسن الطلعة يرتدى سترة حمراء وسأل عن دانيلو ، واستمع الى قصته ، ثم مسح بردنه عينيه المخضبتين بالدموع وهز كتفيه ، وقال : « انه حارب مع بورولباش جنبا الى جنب ، وخاضا المعارك مع الترك واهل القريم ايضا جنبا الى جنب ، وما كان ليدور بخلده قط أن تكون نهاية دانيلو على هذه الصورة ، وانباهم الزائر بأمور أخرى كثيرة ، ثم طلب أن يرى كاترينا .

ولم تحفل كاترينا أول الأمر بشيء مما قاله الضيف ، الا انها بدات من بعد تنصت اليه ، كأنما تعى ما يقول : واخبرها كيف كان يعيش مع دانيلو كالأخوين ، وكيف انهما اختفيا ذات مرة من أهل القريم تحت سد من السدود ، وكانت كاترينا تنصت اليه وهى تحدجه بنظراتها .

وقال القوزاق بينهم وبين انفسهم وهم ينظرون اليها : «لتشفين، ان هذا الضيف كفيل بشفائها ! فهى تنصت اليه كأنما تعى مايقول».

واخذ الزائر يصف فى هذه الأثناء كيف اسر اليه دانيلو يوما قائلا: « لا تنس يا أخى كوبريان ، حين تقضى مشيئة الله بأن أغادر هذه الدنيا .. أن تتخذ كاترينا — أجل تتخذها زوجة لك » .

ونظرت اليه كاترينا نظرة نفاذة ثم صرخت : « آه ، انه هو. انه ابى ! » وانقضت عليه بسكينها .

وقاومها الزائر زمنا طويلا محاولا أن يخطف السكين منها ، ثم نجح آخر الأمر فى انتزاعها منها ورفعها ليضرب ، ثم حدث حادث جلل . فقد قتل الأب ابنته المجنونة .

واندفع القوزاق اليه وقد استبد بهم الذهول ، الا ان الساحر كان قد قفز على ظهر جواده وغاب عن الأنظار !

— ١٤ —

وحدثت عجيبة من العجائب فيما وراء كييف لم يسمع الناس

بمثلها من قبل ، واجتمع النبلاء وزعماء القوزاق كافة ليشـاهدوا هذه العجيبة ، فقد تكشف الفضاء البعيد لأعين الناس من جميع النواحي ، وبدا للأبصار على البعد البعيد مصب نهر الدنيبر فى زرقته الداكنة ومن ورائه البحر الأسود ، وابصر الذين خرجوا من القوم مرتحلين ـ بلاد القريم ترتفع بشعابها من اعماق البحر كما ابصروا نهر سيفاش العامر بالبطائح وبرزت الى اليمين بلاد غاليسيا .

وسأل النـاس الشيوخ وهم يشيرون الى قنن الجبـال البيض والشهب التى تجلت بعيدا فى افق السماء ، كالسحب او هى اشبه : « وما هـذه ؟ » .

وقال الشيوخ : « تلك هي جبال الكربات ! وبعضها يغطيه الجليد دائما وتتعلق به السحب وتقضي عليه ليلتها » .

ثم حدثت عجيبة جديدة ،فقد انقشعت السحب من اعلى القنن وظهر فوق ذروتها فارس كامل العدة مغمض العينين ، تجلى للقوم بوضوح كأنه واقف بالقرب منهم .

وعندئذ قفز من بين صفوف القوم المأخوذين الخائفين رجل امتطى صـهوة جواد واخذ يتلفت حوله فى نظرات زائغة كأنما يريد أن يطمئن الى أن احدا لا يطارده ، ولم يلبث ان اطلق جـواده يسابق الريح ، وكان هذا الرجل هو الساحر . ترى ما الذى روعه ؟.. لقد نظر الرجل فى فزع الى الفارس العجيب فتبين فيه ذلك الوجه الذى ظهر له عندما كان يردد تعويذته ، ولو قد سأله احد عن سبب اضطرابه حين راى هذا المنظر لم يحر جوابا. ثم تلفت الرجل فى خوف ووجل حوله ، راجعا الي داره ، ولعله اراد أن يسـأل الروح الشريرة عن سر هذه العجيبة ، وهم بأن يقفز بجواده فوق جدول من ماء يعترض طريقه واذا بجواده يتوقف فجأة وهو ماض بأقصى سرعته ثم التفت اليه فراى ، وما اعجب ما راى ! لقد قهقه الجواد ضاحكا ! وتألق صفان من الأسنان البيض تألقـا مخيفا فى الظلام ، فوقف شعر الساحر على رأسه ، واطلق صرخـة مدوية وبكى بكاء من أصابه مس ، ولوى عنان جواده ميمما شـطر كييف لايلوى على شيء ، وخيل اليه أنه مطارد من كل جانب ، تسـعى الأشجار التى تحيط به فى الغابة السوداء وتجاهد لخنقه ، وتومىء

بلحاها السود وتمد اليه أغصانها الطويلة ، وراحت النجوم تستبق هذا الآثم وتشير اليه ، بل اخذ الطريق نفسه يطير وراءه .
وهرب الساحر اليائس لائذا بالأماكن المقدسة فى كييف .

— ١٥ —

وكان ناسك من اهل الورع يجلس وحيدا فى غاره وأمامه مصباح صغير لايرفع عينيه عن الكتاب المقدس ، ومضت سنوات وسنوات وانقطع عن الدنيا واخلد الى غاره ، وصنع الناسك لنفسه نعشا من الواح الخشب ينام فيه بدلا من الفراش ، واغلق العابد الصالح كتابه وراح يصلى ، واذا برجل غريب الهيئة بشع المنظر يلج عليه الغار فجاة ، وابصر الناسك الورع الرجل ، ففزع ونكص على عقبيه ، اذ وجده يرتجف من أعلى راسه الى اخمص قدمه كورقة فى مهب الريح ، وزاغت نظراته ، وومضت عيناه ببريق من الرعب ، وكان وجهه المخيف تقشعر منه الأبدان .

وصاح الرجل فى يأس : « صل يا أبتاه ! صل ! صل لنفس ضالة » ، وخر على الأرض جاثيا .

ورسم الناسك الورع اشارة الصليب ، وتناول كتابه وفتحه ، ثم تراجع مذعورا ، وسقط الكتاب من يده .

« كلا ، أيها الآثم الزنيم ! فقد اغلقت من دونك ابواب الرحمة ! اغرب عنى ! فلست بقادر على أن أصلى من اجلك ! » .

فصاح الساحر مغيظا محنقا : « لست بقادر ؟ » .

« انظر ، ان حروف الكتاب المقدس تقطر دما ! وما رات الدنيا أشد اثما منك » .

« أبتاه ، انك تسخر منى ! » .

« اليك عنى أيها الاثم الملعون ! فانى لا اسخر منك ، وانما غلبنى الخوف على أمرى ، وما من خير يجنيه المرء من صحبتك » .

« كلا ، كلا ، وانما انت تسخر منى — لا تنكر! فانى أرى الابتسامة تتلألأ على شفتيك ، وصفى اسنانك العتيقة يتألقان فى نصوع ! »

وانقض الساحر على الناسك الورع كالممسوس وقتله .

وانبعثت فى الجو انة فظيعة تردد صداها فى الغابة وفى الحقول، وارتفعت من وراء الغابة اذرع يابسة ذاوية لها مخالب طويلة ، ثم ارتجفت وغابت عن الأنظار .

وعندئذ خلا قلب الرجل من الخوف وأصبح لايخشى شيئا ، على انه احس بالاضطراب يغمر نفسه جميعا ، فقد احس بطنين يدوى فى أذنيه واصاب راسه دوار كأنه شرب حتى ثمل ، واظل كل شيء غشاوة كأنها من نسيج العنكبوت ، وقفز الرجل ممتطيا صهوة جواده ومضى الى كانيف لايلوى على شيء معتزما أن يقصد منها رأسا الى تتر القريم عن طريق تشركاس ، ولو انه لم يكن يدرى لذهابه علة ولا سببا . وقطع الرجل فى رحلته يوما ، ثم آخر ، ولم تبد كانيف للأنظار ، وكان الطريق الذى مضى فيه هو الطريق الصحيح ، وكان خليقا بأن يبلغ هذه المدينة قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن لم يبد لكانيف ظل ولا أثر ، وتألقت قباب الكنائس من بعيد .

على أن هذه المعالم لم تكن لكانيف بل لشومسك ، وذهل الساحر اذ وجد انه التمس فى رحلته طريقا آخر ابعد ما يكون عن الطريق الصحيح ، فلوى عنان جواده متجها صوب كييف ، ولاحت له بعد يوم مدينة أخرى ، لم تكن هى كييف بل جاليتش ، وهى قريبة من هنغاريا ، ولكنها تبعد عن كييف أكثر مما تبعد عن شومسك وسقط فى يده فقفل راجعا ، على انه احس مرة أخرى بأنه يسير طريقه القهقرى ، وما كان لأحد ان يعرف ما يدور فى أعماق الساحر ، ولو رأى أحد ما يدور فى أعماقه أو عرف ما يختلج فى طوايا نفسه ما ذاق فى ليلة طعم النوم او اشرقت اساريره بالضحك قط طول حياته . ولم يكن ذلك الذى تضطرب به جوانح الساحر حقدا او رعبا او غضبا مريرا ،وانما كان شيئا لا تستطيع كلمة من الكلمات فى اية لغة من لغات الأرض التعبير عنه . لقد كان قلبه يتقد ويضطرم ، يود لو استطاع ان يطأ العالم كله تحت قدميه ويحمل الأرض جميعا من كييف الى جاليتش بما فيها من ناس وحيوان وغير ذلك ويقذف بها فى اعماق البحر الأسود ، ولم يكن الغل او الحقد يدافعه الى ذلك ، وانما الذى كان يحفزه اليه سبب لا يدرى

من امره شيئا . وارتعدت أوصال الساحر اذ راى جبال الكربات وجبل كريفان الشاهق وقد غشيت قمته سحابة شهباء ، وراح الجواد يركض بين الجبال كالريح ، وانقشعت الغيوم فجاة وظهر الفارس قبالته بقدمه الهائلة الرهيبة .

وحاول الساحر ان يقف وشد اليه العنان ، ولكن الجواد صهل صهيلا مخيفا واخذ يطوح معرفته ، واندفع نحو الفارس ، واحس الساحر بأن كل ما فيه قد تجمد . واخذ الفارس الساكن يتحرك وفتح عينيه فجأة وابصر الساحر يندفع نحوه ، فضحك ، وتردد صدى الضحكة الهائلة فى جنبات الجبال كزئير الرعد ، ودوت فى قلب الساحر فاحس لها رجفة تشيع فى جميع اوصاله ، وخيل اليه ان كائنا عظيم القدرة قدملك عليه قياده ، وراح يتحرك بين جوانحه ويدق قلبه وعروقه دقا ! يا لها من ضحكة مخيفة تردد صداها فى طوايا نفسه !

ومد الفارس يده الباطشة ، وامسك بالساحر ، ورفعه فى الهواء ، فمات فى الحال ، ثم فتح عينيه ، ولكنه كان قد قضى ، واطلت من عينيه الجامدتين نظرة مخيفة لا تجد لها مثيلا فى عين ميت ولا فى عين صاح قام من بين القبور ، وراح الساحر يقلب عينيه الجامدتين ذات اليمين وذات الشمال فراى الموتى يقومون مثله سواء بسواء : من كييف ومن غاليسيا ومن جبال الكربات ! ..

وقام هؤلاء الأموات من بين القبور يعلو وجوههم الشحوب ، تغشاها صفرة شديدة ، وكل واحد منهم اطول من اخيه ، وابرز عظاما ، وتكأكئوا على الفارس الذى كان ممسكا بفريسته البشعة . وضحك الفارس مرة اخرى ، وقذف بالساحر فى هوة ، وقفزت الجثث جميعا الى الهوة وانشبت اسنانها فى لحم الميت ، وحاول ميت آخر ، اطول من جميع الأموات ، وابشعهم خلقة ، ان ينهض ، ولكنه لم يستطع ، فقد نما حجمه نموا عظيما ضرب فى باطن الأرض طولا وعرضا حتى عجز عن القيام ، ولو قد فعل لقلب جبال الكربات وترانسيلفانيا وتركية رأسا على عقب ، وغاية ما استطاع انه تحرك قليلا ، فزلزل الارض جميعا واطاح ببيوت عدة وسحق قوما كثيرين ! .

وينبعث من جبال الكربات فى كثير من الأحيان صوت مجلجل ما ان يبلغ سمعك حتى يخيل اليك ان ألف طاحونة من طواحين الماء اخذت تمخض بدواليبها الماء مخضا . وما هذا الصوت الا صوت الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثة القى بها فى الهوة المشئومة التى لم يرها انسان ولا جرؤ مخلوق على اجتيازها . وكثيرا ما تزلزل الأرض زلزالها وتتقلب من طرف الى طرف ، ويقول العلماء : ان ذلك يرجع الى وجود جبل قريب من البحر يتصاعد منه اللهب وتتدفق الأبخرة الساخنة ، ولكن الشيوخ الذين يقيمون فى هنغاريا وغاليسيا يعلمون ما لايعلم هؤلاء ، فهم يقولون : أن العلة تكمن فى هذا الميت الذى نما واستطال فى جوف الأرض ، فاذا حاول ان يقوم زلزلت الأرض زلزالها .

- ١٦ -

اجتمعت زحمة من الناس حول عازف البندورة العجوز فى مدينة جلوكوف ، وراحت تنصت ساعة الى عزف هذا الرجل الأعمى ، الذى لا نظير له فى العزف على البندورة وانشاد الأغانى العجيبة ، وتغنى الرجل أولا بحكم زعماء القوزاق فى الأيام الخالية كما تغنى بحكم السفايداشنى والخملنتسكى . لقد كانت الأيام غير الأيام ، وكان القوزاق وقتئذ فى عز مجدهم يطئون اعداءهم تحت أقدامهم ولا يجرؤ احد على السخرية منهم ، وغنى الشيخ ايضا أغانى مرحة ، واخذ يتلفت الى الجماعة كانما عيناه تبصران ، وانطلقت أصابعه التى ثبت فيها رقائق صغيرة من العظم تتراقص على الأوتار كالذباب ، لقد بدا انها هى نفسها تشدو بالنغم ، وكان الشيوخ يغضون ابصارهم والشباب يحملقون فى المغنى لايجرءون على الحديث ولو بهمس .

وقال الشيخ : « اصبروا ، ولأنشدن لكم قصة من قصص الغابرين » ، وازداد القوم منه دنوا ، وانشد الأعمى يغنى :

« فى أيام ستيفان امير ترانسيلفانيا وملك البولنديين ، كان يعيش قوزاقيان : ايفان وبترو ، وأقام الفتيان معا كالأخوين ، وقال بترو

لصاحبه : اسمع يا ايفان ، فلنقتسم كل ما نجنيه من ربح ، فاذا حل بأحدنا فرح شاركه صاحبه فى فرحه ، واذا ألم به حزن حزن من أجله ، واذا غنم غنيمة شاطره اياها ، واذا وقع فى الأسر باع كل ما يملك يفتديه به او القى بنفسه فى الأسر معه . والحق ان القوزاقيين كانا يقتسمان كل ما يكسبانه ، فاذا وقع فى ايديهما قطيع من الماشية او الجياد اخذ كل نصيبه لا ينقص عن الآخر أو يزيد.

* * *

« وشهر الملك ستيفان الحرب على الترك ، وظل يقاتل ثلاثة اسابيع لايستطيع لهم طردا ، وكان للترك باشا يستطيع فى نفر من الانكشارية ان ينكل بكتيبة من الجند بأكملها تنكيلا ، فلما راى الملك ستيفان ذلك نادى فى الجند ان المقاتل الباسل الذى يأتيه بهذا الباشا ينفحه جائزة تساوى راتب الجيش كله » .

وقال ايفان لبترو : « لنذهبن ولنأته بالباشا يا اخى » ومضى الفتيان القوزاقيان فى رحلتهما ، وذهب كل منهما فى طريق .

« ولم يكن لأحد ان يتكهن : اظافرا يعود بترو ام خائبا ؟ ولكن ايفان ساق الباشا الى الملك وقد طوق عنقه بحبل ، وقال الملك : « احسنت يافتى » وأمر بأن يعطى من المال مايساوى راتب الجيش كله ومن الأرض ما يشاء ويختار ، ومن الماشية ما ترضى به نفسه ، وما أن تلقى ايفان من الملك هذه العطية حتى اقتسم المال وبترو ، فأخذ بترو نصفه ، وعز عليه أن يظفر ايفان بكل هذا التكريم من الملك وطوى صدره على رغبة فى الانتقام » .

* * *

« ومضى القوزاقيان يسيران ميممين شطر الأرض التى افاءها الملك على ايفان فيما وراء جبال الكربات ، واركب ايفان ابنه على ظهر الجواد خلفه ، وشده اليه برباط ، ودهمهم الليل وهم ماضون فى الطريق ، واخذت الطفل سنة من النوم ، وبدأ النعاس يداعب جفون ايفان : لا تنم ايها القوزاقى ، فان مسالك الجبل مخوفة !

ولكن جواد القوزاقى كان يعرف الطريق لا تزل قدمه ولا تتعثر ، وكان بين الجبال هاوية لا يعلم مستقرها ، الذى يبلغ عمقه ما بين السماء والأرض ، الا الله ، وكان الطريق يمر فوقها مباشرة ،

لايسير فيه الرجلان الا جنبا الى جنب ، فان كانوا ثلاثة ضاق بهم كل الضيق . واخذ الجواد يخطو فى حـذر وعلى ظهـره القوزاقى الوسنان ، وسـار بترو بجواره الى جانبه ، وشـاعت الرعدة فى اوصال بترو جميعا وتقطعت انفاسه من فرط السرور ، وتلفتحوله ثم دفع صاحبه الذى آخاه ، فسقط الجواد فى الهاوية وعلى ظهره القوزاقى والطفل جميعا .

« ولكن ايفان تعلق بغصن فلم يهو الى القـاع الا الجواد ، واخذ يتسلق الهاوية حاملا ابنه فوق ظهره ، وما ان اشرف على حافة الهاوية حتى رفع بصره ، فرأى بترو ممسكا برمح وقد تهيأ لدفعه الى الهاوية ، فهتف : « رحماك يا رب ، تمنيت أن تغض مني البصر ما حييت ولا أرى اخي يتربص لى برمح يدفعنى به الى الهاوية ! أخي العزيز ! ان كان هذا نصيبى فانفذ في رمحك ، ولكن ما ذنب هذا الطفل البرىء حتى ينزل به هذا البلاء العظيم ؟ » ، فضحك بترو ودفعه بالرمح فسقط القوزاقى هو وطفله الى قاع الهاوية ، واستولى بترو على ثروته كلها ، واخذ يعيش عيشة الباشوات لا يملك احد ما يملكه من خيل حاشدة ، ولا يدانيه احد فيما يقتنى من قطعان الماشية ، ثم عدا الموت على بترو .



« وما أن قضى بترو حتى دعا الله ـ روحى الأخوين ايفان وبترو فمثلتا بين يديه ، تقدمان الحساب ، وقال الله : « ان هذا الرجل لمجرم اثيم ، يا ايفان لسوف يمضي وقت طويل قبل أن أجد له ما يستحق من جزاء ، فاختر له انت الجزاء ! » وفكر ايفان طويلا : اى جزاء يختار ، ثم قال :

« لقد اصابنى هذا الرجل ببلاء عظيم ، وسلك مسلك يهوذا فحرم اخاه ذريته الشريفة ، وما مثل الرجل يحرم ذريته الشريفة الا كمثل حبة القمح يلقى بها فى الأرض ، فتذهب هباء ، فان هى لم تنبت عز على الناس أن يعرفوا انه قد القى بها فى الأرض » .

« فاللهم اكتب على ذريته الا يذوق منهم احد طعم السعادة فى هذه الدنيا ، وان يكون آخرهم شر ما رات العين من الخاطئين لا يقترف ذنبا إلا تململ اجداده فى قبورهم حتى اذا ذاقوا من العذاب ما لم يذقه احد من الأحياء قاموا من قبورهم يسعون ! اما بترو هذا الذى خان

العهد والميثاق ، فاللهم أكتب عليه ان يعجز عن القيام من قبره وان يلقى فيه اشد النكال ، فيعض الأرض كالمجنون ، ويتلوى من الألم تحت الثرى ! » .

***

« فاذا حان الحين ، وبلغت شرور هذا الرجل غايتها فاخرجني يا كريم على ظهر جوادي من قمة الهاوية الى اعلى قنة في الجبال ، وابعثه به الى فألقى به من تلك القنة الى اعمق الوهاد طرا وارسل أجداده جميعا من كل فج من فجاج الأرض عاشوا فيه ، واطلقهم ينشبوا اسنانهم فيه جزاء مالقوا على يديه من عذاب ، ودعهم ينهشوه الى أبد الآبدين حتى ينشرح خاطري وأنا أراه يسأم العذاب اشكالا والوانا ، واكتب على بترو ، هذا الذى خان العهد الا يقوم من قبره ، والق في قلبه شـهوة النهش ، ولينقلبن على طول الزمن حتى يزداد عذابه ، وسلط عليه من النكال ما لم يذقه احد من قبله ولا من بعده ، فما من عذاب أقسى على المرء من تعطشه الى الانتقام وقصور يده عنه »

***

فقال الله : « ايه ايها الانسان ، ما افظع الجزاء الذى هداك اليه عقلك ! ولتستوين الى الأبد على ظهر جوادك ، فلا تبرح المكان الذى اخترت ، ولكن ملكوت السماء قد أوصد دونك ! » وتم له ما اراد ، ولا يزال هـذا الفارس الغريب مستويا على ظهر جواده الأصيل في جبال الكربات يشاهد الموتى يفترسون الجثة في الهاوية التى ليس لها قرار ويحس بجثة الرجل الميت تتضخم وتتضخم تحت الثرى ، ويراه وهو يقضم عظامه ، ويتعذب اشد العذاب ويزلزل الأرض زلزالا تنخلع له القلوب » .

***

وفرغ الأعمى من انشاد قصته وراح يضرب الأوتار مرة اخرى ، ويتغنى بمدائح مضحكة تدور حول فوما وبيريما وستكليار ستوكوزا ، واستبدت النشوة بمستمعيه شبابا وشيوخا فلم يفيقوا من أحلامهم ، وظلوا خشعا يتدبرون في هـذه القصة الفظيعة من قصص الأيام الخالية .

ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته



ايفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

ان لهذه القصة قصة رواها لنا ستيبان ايفانوفتش كوروشكا الذي وفد علينا من جادياخ ، ولا شك انك تعلم أن ذاكرتي ضعيفة كل الضعف ، ويستوي عندي ان تقص على شيئا او لا تقص ، فهي كالغربال تلقي فيه الماء . وقد حملني احساسي بهذا الضعف الى أن اطلب منه عامدا ان يسجل هذه القصة في مفكرة ، وهب الله له الصحة والعافية ، فقد كان دائما كريما معي ، وشمر ستيبان عن ساعده وسجلها ، ثم وضعها في المنضدة الصغيرة ، واني لأحسب انكم تعرفونها ، فهي تقوم في الركن الذي تقع عليه اعينكم حين تدخلون من الباب ، ولكنني نسيت أنكم لم تطئوا منزلي من قبل ، ولا جدوى من انكار ان زوجتي العجوز التي عشت معها ثلاثين عاما لم تتعلم القراءة . وقد لاحظت انها تخبز الفطائر على ضرب من الورق ، وهي تجيد خبزها ايها القراء الأعزاء ، وانا زعيم بأنكم لن تجدوا خيرا منها في اي مكان . وقد اتفق لي أن نظرت الى فطيرة من تحت ، فماذا وجدت ؟ وجدت كلمات مكتوبة : فمضيت الى المنضدة كأنما هتف بي هاتف أن افعل ، فلم اجد فيها الا نصف الكتاب ! فماذا كنت اصنع ؟ اليس من الحمق ان نتشاجر في مثل هذه السن ؟

وحدث أن كنت مارا بمدينة جادياخ في العام الماضي ، وقبل أن أبلغ المدينة ربطت عن عمد عقدة في منديلي حتى لا انسى سؤال ستيبان ايفانوفتش عن القصة ، ولم يك هذا كل ما في الأمر ، فقد كنت عاهدت نفسي بألا اعطس في المدينة الا ذكرت ما صحت عليه نيتي ، ولم يأت ذلك كله بثمرة ، فقد ركبت عربة اجتزت بها المدينة وعطست ، بل مخطت ، ثم نسيت ، ولم افكر في القصة الا بعد ان تجاوزت باب المدينة بنحو ستة فيرستات أو نحوها ، وكان ما ليس منه بد ، اكرهت على طبع القصة دون الخاتمة على انه اذا شاء احدكم أن يعرف على وجه

الخصوص ما انقطع من حوادث القصة فما عليه الا أن يقصد الى جادياخ ويسأل عن ستيبان ايفانوفتش ، ولسوف يسره أن يروى له القصة ، وانا زعيم بأنه لن يسوءه أن يبدأ من أولها ، وهو يقيم غير بعيد من الكنيسة المشيدة بالآجر ، فالى جوار هذه الكنيسة زقاق صغير ما أن تنعطف فيه حتى تجد باب بيته هو الثانى أو الثالث .

وخير من هذا وذاك أن تمضى فى طريقك حتى تجد فناء انتصب فيه قائم كبير يقوم فوقه طائر من طيور السلوى ، وتخرج منه فلاحة بدينة فى نقبة خضراء (وجدير بنا ان نذكر أيضا أن الرجل عزب) تسعى للقائك ، ومن يدرى ؟ لعلك تلقاه فى السوق حيث يشاهدكل صباح قبل التاسعة ينتقى السمك والخضر لمائدته ويتحدث مع الأب انتيب أو المقاول اليهودى فان رأيته عرفته لتوك ، ومن ذا الذى يلبس السروال المصنوع من الكتان الملون أو السترة القطنية الصفراء سواه ؟ وقد تعرفه بشىء آخر ، فقد الف أن يطوح ذراعيه فى مسيره ، وكان دنيس بتروفتش ، مساعد القاضى الراحل ، اذا رآه قادما من بعيد قال : « أنظروا فها هى ذى طوحونتنا مقبلة علينا ! » .

— ١ —

ايفان فيودوروفتش شبونكا

مضت أربع سنوات على اعتزال ايفان فيودوروفتش خدمة الجيش ، وجاء الرجل ليقيم فى مزرعته بفيتريبنكى ، وقد التحق وهو بعد حدث يسمى فانيوشا ، بمدرسة ناحية جادياخ ، ولست أنسى أنه كان غلاما جم الأدب مجدا ، وقد جرى مدرس النحو الروسى نيكيفور نيموفيتش ديبريتشا ستى (*) ، على القول بأنه لو كان جميع الصبيان يبذلون فى الدرس قصارى جهدهم كما يفعل شبونكا ما حمل معه الى الفصل المسطرة المصنوعة من خشب الاسفندان ، وراح — على حد قوله — يضرب بها أيدى الكسالى والخبثاء من الصبية حتى كل ساعده . وكانت كراسة شبونكا نظيفة دائما مسطرة الهوامش لا تجد فى موضع منها اية بقعة وان هانت ، وجرى الغلام على أن يجلس هادئا ساكنا

(*) ظرف مشتق من الفعل فى الروسية

مشبك الذراعين لا يحول عينيه عن المدرس ، ولم يلجأ قط الى الصاق قصاصات الورق على ظهر الغلام الذى يجلس أمامه ، ولا انقطع عن الصف مرة أو دفع الصبية الآخرين فأخرجهم منـــه قبل ان يدخل المدرس . وما أحس تلميذ بحاجة الى مبراة يصلح بها قلمه الا بادر الى ايفان فيودوروفتش وهو عليم بأن جعبته لا تخلو منها دائما ، فيخرج ايفان فيودوروفتش ـ أو فانيوشا فحسب ، كما كان يلقب فى ذلك الحين ـ مطواته من صندوق جلدى صغير مثبت فى عروة من عرى سترته الرمادية ، ولا يطلب من السائل الا شيئا واحدا هو الا يستعمل الحد المرهف لحك القلم منبها اياه ان ثمة حدا مثلوما جعل لهـــذا الغرض . وسرعان ما استرعى هذا المسلك الحميد نظر مدرس اللاتينية الذى كان سعاله فى الدهليز خليقا بأن يلقى الرعب فى قلوب تلاميذ الفصل كله ، قبل أن تطل من الباب سترته المصنوعة من الصوف الخشن ووجهه المجدور . وقد بادر هذا المدرس المخيف ، الذى الف ان يحتفظ دائما بحزمتين من المقارع على مكتبه ويسوق نصف تلاميذه الى الجثو على ركبهم ، فاتخذ من ايفان فيودوروفتش عريفا للفصل ، على الرغم من ان كثيرا من تلاميذ الفصل كانوا يفوقونه قدرة وكفاية .

اما وقد بلغت فى رواية القصة هذا الحد فليس يجدر بى أن أغفل حادثة اثرت فى مستقبل ايامه كلها ، فقد حاول أحد الصبية الذين وكل اليه الاشراف عليهم ان يحمل العريف على احسان الشهادة فيه بالرغم من انه لم يكن قد حفظ درسه ، فأتى الى الفصل بكعكة غارقة فى الزبد ملفوفة بالورق ، وكان ايفان فيودوروفتش حريصا على أداء الواجب فى معظم الأحيان ، الا أنه كان هذه المرة جائعا ، فعجز عن مقاومة الاغراء ، واخذ الكعكة وامسك بكتاب رفعه امام وجهه وراح يأكل ، وشغل باله بهذا الأمر ، وفاته ان الفصل قد خيم عليه سكون رهيب اشبه بسكون القبور ، ولم يفق الى نفسه مروع اللب فزعا الا حينما امتدت يد من معطف من الصـوف الخشن وامسكت به من اذنه وجرته الى وسط الغرفة ، وقال المعلم المخيف : « الى بهـــذه الكعكة ! الى بها ، الا تسمع ؟ اعطنيها ايها الوغد ! » .

وامسك بالكعكة الغارقة فى الزبد بين أصابعه ، والقى بهـا من النافذة ناهيا الصبية فى حزم الا يلحقوا بها سراعا يلتمسونها فى الفناء ،

ثم أخذ يضرب ايفان فيودوروفتش ضربا أليما موجعا على يديه ، وكان فى ذلك محقا كل الحق ، فقد كانت اليدان دون سواهما من أعضاء جسمه المسئولتين عن أخذ الكعكة ومهما يكن من شىء فان الحياء الذى عرف به دائما أخذ يزداد ملحوظة منذ ذلك الحين ، واعل هذا السبب نفسه هو الذى جعله لا يشعر ابدا بالرغبة فى الالتحاق بخدمة الحكومة، فقد علمته الأيام أن المرء لا يفلح دائما فى اخفاء مساويه .

وكان الفتى قد اشرف على الخامسة عشرة من عمره عندما انتقل الى السنة الثانية ، فترك قواعد الحساب الأربع ودرس الدين ، ودخل فى المسائل المطولة وكتاب واجبات الانسان والكسور ، ولكنه رأى ، كما يقولون ، انه كلما اوغل فى الغابة ازدادت كثافة . وتلقى نبأ بأن اباه قد فارق الحياة ، فلم يبق فى المدرسة الا سنتين أخريين ، ثم التحق بفرقة المشاة برضاء أمه .

ولم تكن هذه الفرقة قط من الطبقة التى ينتمى اليها كثير من فرق المشاة ، وكانت تعسكر فى أماكن ريفية ، الا أنها لم تكن تقل قط عن كثير من فرق الفرسان . وكان معظم الضباط يشربون الكحول صرفا ، ويجيدون جر اليهود من خصلات شعرهم أجادة الفرسان لذلك ، وكان بعضهم يرقص المازوركا أيضا ، ولم يترك قائد الفرقة فرصة الا انتهزها وذكر هذه الحقيقة اذا تحدث مع أى انسان من علية القوم ، وكان يقول وهو يربت على بطنه بعد كل كلمة : « ان بعض ضباطى يرقصون المازوركا ، بل ان عدد من يرقصونها منهم لكبير ، كبيرا جدا » ، ولو شئنا أن نبين لقرائنا مبلغ ما وصلت اليه الفرقة من ثقافة لتعين علينا ان نذكر فوق ما ذكرنا أن اثنين من الضباط كانا مغرمين بلعب الورق . وقد ألفا أن يقامرا بسترتيهما الرسمية وقبعتيهما وحمالتى سيفيهما بل بملابسهما الداخلية ، وهذا أكثر ما يمكن أن تجد فى فرقة من فرق الخيالة نفسها .

على أن اتصال ايفان بمثل هؤلاء الزملاء لم يخفف من حيائه ، أما وقد كان لا يشرب الكحول صرفا ، مؤثرا عليه احتساء قدح مملوء بالفودكا المألوفة قبل الغذاء والعشاء ، ولا يرقص المازوركا أو يلعب الورق ، فقد ألف بطبيعة الحال أن ينفرد بنفسه دائما ، وهكذا كان يتفق أن يخرج بقية زملائه يمتطون ظهور جياد استأجروها ويمضون

وقته فى شـــئون لا تطيب الا لمثله من ذوى الخلق الرضي والنفوس لزيارة اصحاب الاراضي الصغار ، على حين يخلد ايفان الى داره وينفق الوادعة ، ويروح يصقل أزراره أو يقرأ كتابا من كتب الطوالع ، أو ينصب الفخاخ للفيران فى أركان غرفته أو يخلع سترته الرســـمية ويستلقى على فراشه .

زد على أنه لم يكن فى الفرقة أحد أكثر مواظبة على اداء واجباته من ايفان فيودوروفتش ، وكان يحسن تدريب فصيلته حتى ان قائد سريته كان يعده دائما مثالا يود لو احتذاه بقية زملائه ، ولذلك لم يمض عليه وقت طويل ، اجل لم يمض على ترقيته الى رتبة الصول الا احد عشر عاما فقط ، حتى رقى الى رتبة الملازم الثانى .

وتلقى فى هذه الأثناء انباء تقول : ان امه قد ماتت وان خالته ــ ولم يكن يعرفها الا مما سمع به من انها نشأته وهو بعد طفل ، وانها أرسلت له وهو فى جادياخ الكمثرى الجافة وكعك الشهد اللذيذ الشهى الذى كانت تصنعه بنفسها (وكانت على علاقة سيئة بأمه ، وهذا هو السبب فى أن ايفان فيودوروفتش لم يرها فى السنوات الأخيرة) ــ أجل خالته هذه قد تعهدت ، بما جبلت عليه من طيبة النفس ، بالسهر على ضيعته ، وبعثت اليه فى حينه خطابا تنبئه بذلك .

ومضى ايفان فيودوروفتش فى اداء واجبات وظيفته كشأنه واثقا كل الثقة بحسن ادراك خالته . ولو كان ايفان كبعض الرجال الآخرين الذين هم فى مثل مركزه لأدارت عقله هذه الترقية . على أنه كان لا يعرف للاختيال والزهو معنى ولا طعما ، فقد ظل فى رتبة الملازم الثانى كما كان فى رتبة الصول هو هو ايفان لم يتغير ولم يتبدل ، وقضى اربع سنوات أخرى فى الفرقة بعد ذلك الحادث الذى كان له شأن عظيم فى حياته ، وما هم بالنزوح هو وفرقته من ولاية موجيليوف الى روسيا العظمى حتى تلقى الخطاب التالى :

« ابن أختى العزيز ايفان فيودوروفتش :

انى لأبعث اليك بشىء من نسيج الكتان ، خمسة جوارب مشغولة بالابرة وأربعة قمصان من الكتان الهفهاف ، ثم انى اريد أن اتحدث اليك فى أمر ذى بال ، اما وقد نلت رتبة لهـا شأنها ــ وانى لأحسب انك تعى هذا وتدركه ــ وبلغت سنا تؤهلك الى تولى شئون مزرعتك

بنفسك ، فما من سبب يدعوك الى البقاء فى الخدمة العسكرية ، وانى لأشعر بأن السن قد تقدمت بى حتى أصبحت عاجزة عن القيام بأمر من امور مزرعتك ، ولدى والحق يقال ، امور كثيرة اود ان أتحدث بشأنها معك شخصيا .

« تعال يا فانيوشا ! وانى اذ اتطلع ببالغ السرور الى رؤيتك لأبعث اليك بخالص تحياتى ،

خالتك الودود المحبة

(فاسيليا تسوبشفسكا)

حاشية : في حديقة خضرنا لفت عجيب ، يبدو للأنظار على ما فيه من غرابة غريبة أقرب الى البطاطس منه الى اللفت .

وكتب ايفــان فيودوروفتش الى خالته ، بعد تلقية خطابها هذا بأسبوع ، الرد التالى :

« سيدتى المحترمة الخالة العزيزة فاسيليا كاشبوروفنا : أشكرك كل الشكر على ما بعثت الى من منسوج الكتان ، فقد كان الدهر قد اكل وشرب على جواربى خاصة ، وراح الجندى المعين لخدمتى يرفوها مرة فى اثر مرة ، فما أن اتم المرة الرابعة حتى ضاقت على كل الضيق ، اما آراؤك التى ابديتها بشأن خدمتى فى الجيش فانى اوافقك عليهـا كل الموافقة ، وقد ارسلت أول امس أوراق اعفائى . وما ان اتلقى امرا باعفائى حتى أبادر باســتئجار عربة . واما ما كلفتنى اياه من الحصول على قمح من السلالة السيبيرية فقد عجزت عن اجابتك الى طلبك ، وليس فى ولاية موجيليوف كلها شيء من هذه البذور ، واما الخنازير التى هنا فكلها يتغذى على كسب مصانع الجعة وقليل من الجعة التى يفسد طعمها .

وارجو أن تقبلى يا سيدتى الجليلة والخالة العزيزة عظيم احترامى ،

ابن أختك

(ايفان شبونكا) »

وتلقى ايفان فيودوروفتش اخيرا الأمر باعفائه من خدمة الجيش برتبة الملازم ، فاستأجر يهوديا ينقله بعربته من موجيليوف الى جادياخ ونقده أربعين روبلا ، ومضى فى رحلته حين اكتست الأشجار بأوراق

قليلة غضة ، وتألق اديم الأرض بالخضرة اليانعة وعبقت الحقول بعبير الربيع .

- ٢ -

الرحلة

ولم يقع خلال الرحلة شيء ذو بال ، ومضى الرجلان فى رحلتهما اياما تزيد قليلا على اسبوعين ، وقد كان ايفان فيودوروفتش خليقا بأن يبلغ مقصوده فى زمن أقصر من ذلك قليلا ، لولا أن اليهودى كان يقيم السبت من كل اسبوع ، فيطرح على راسه غطـاء جواده ويخلد الى التعبد طوال اليوم . على ان ايفان فيودوروفتش كان ، على ما واتتنى الفرصة وذكرت من قبل ، رجلا لا يستسلم للملالة او السأم ، فاذا حل به وقت كمثل هذا الوقت ، فتح صندوق ثيابه واخرج ملابسه الداخلية وراح يفتش فيها جيدا حتى يطمئن باله الى أنهاغسلت وطويت على الوجه الأكمل ، وينزع الزغب فى عناية من حلته العسكرية الجديدة التى خلت فى صنعها من الشريط المقصب يعلو كتفيها ، ثم يعود فيطوى هذا كله فى الصندوق على احسن وجه ممكن . ولم يكن صاحبنا مغرما بالقراءة ، فاذا اتفق ونظر فى كتاب من كتب الطوالع فانما يفعل ذلك لانه يريد أن يعود الى قراءة ما قرأه من قبل عدة مرات،وهذا هو شأن الرجل الذى يقيم فى المدينة يذهب الى النـــادى كل يوم لا ليسمع جديدا ، بل ليلقى أصدقاء الف أن يجاذبهم اطراف الحديث منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، وشأن الكاتب فى دواوين الحكومة يقرأ دليل العناوين عدة مرات فى اليوم مغتبطا اشد الاغتباط لا لشيء الا ما تعود عليه من قوائم الأسماء المطبوعة من تسلية ، ويغمغم بينه وبين نفسه ، قائلا : « آه ! ايفان جافريلوفتش ... الخ ! ، وها هو ذا اسمى مثبتا هنا ! وى ! وى ! » ، ثم يعود فيقرأ القائمة مرة اخرى مبديا ما سبق أن ابداه من علامات التعجب بلا خلاف .

وبلغ ايفان فيودوروفتش يوم جمعة قرية صغيرة على مسيرة مائة فيرست من جادياخ ، بعـــد أن أنفق فى رحلته اسبوعين ، وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل حين وصل هو واليهودى والعربة الى احد الخانات .

ولم يكن الخان يختلف فى شىء عن غيره من الخانات القروية المألوفة فى القرية ، وقد جرى أرباب هذه الخانات على اكرام المسافر اكراما لا مزيد عليه ، فيقدمون له الدريس والشوفان كأنه جواد من جياد المراحل ، فاذا اراد ان يصيب من الغذاء ما يصيب القوم من أهل الوقار والاحترام فما عليه الا ان يرد شهيته حتى يتهيأ له ذلك فى فرصة مقبلة . وكان ايفان فيودوروفتش يعلم كل هذا ، فتزود مقدما بحزمتين من حلقات الخبز وحلقة من المقانق وطلب قدحا من الفودكا التى لا يخلو منها اى خان ، وراح يتناول عشاءه فجلس على أريكة ، وضعت أمامها منضدة من السنديان ثبتت فى اديم الأرض الصلصالية تثبيتا مكينا .

وطرقت اذنيه فى هذه الأثناء قرقعة عربة ، وسمع صرير الأبواب ، ومضى وقت طويل قبل أن تدخل العربة الفناء ، وانطلق فى الجو صوت مجلجل طفق ينهر صاحبة الخان العجوز . وسمع ايفان فيودوروفتش شخصا يهتف بها قائلا : « لأدخلن خانك ، فاذا عضتنى فيه قطة واحدة فقسما بالله لأضربنك ، اجل لأضربنك أيتها الساحرة الشمطاء ! ولن أعطيك مقابل الدريس ! » .

وانفتح الباب بعد لحظة وولجه ، أو قل حشر نفسه فيه حشرا ، رجل بدين يرتدى سترة رسمية خضراء ، وقد ثبت رأسه لا يريم فوق عنقه القصير الذى بدا للأنظار أغلظ وافحل بفضل ما علاه من ذقن مزدوج ، وكان مظهر الرجل يدل على انه من ذلك الطراز من الناس الذين يحفلون بتوافه الأمور والذين سارت حياتهم كلها سيرا رفيقا رضيا .

ورأى الرجل ايفـــــان فيودوروفتش فقال : « أسعد الله يومك يا سيدى ! » .

وانحنى ايفان فيودوروفتش فى صمت .

ومضى الوافد الجديد يقول : « هل لى ان أسأل من ذا الذى أتيح لى شرف التحدث اليه ؟ » .

وما أن سمع ايفان فيودوروفتش قوله حتى نهض على كره منه ووقف وقفة انتباه كشأنه اذا وجه اليه قائد الفرقة سؤالا ، وأجابه قائلا :

« الملازم المتقاعد فيودوروفتش شبونكا » .

« افلا تسمح لى بأن أسأل أى مكان تقصد ؟ » .

« مزرعتى فى فيتربنكى » .

وهتف السائل الفظ « فيتربنكى ! » ، ثم أردف وهو يتجه اليه ملوحا بذراعيه كأنما يقف فى سبيله أحد أو يشق طريقه شقا فى زحمة الناس : « اسمح لى يا سيدى ، اسمح لى ! » راقبل على ايفان فيودوروفتش وطوقه بذراعيه ، ثم طبع قبلة على خده الأيمن وقبله على خده الأيسر ، ثم عاد وطبع قبلة ثالثة على خده الأيمن . وسر ايفان فيودوروفتش كثيرا بهذه التحية لأن خدى الغريب الممتلئتين كانا لشفتيه كالوسادتين الناعمتين .

واسترسل الرجل البدين يقول : « اسمح لى ان أقدم نفسي يا سيدى ! فأنا جارك وأحد أصحاب الأراضى فى ناحية جادياخ نفسها ، اقيم فى قرية خورتشه ، والمسافة بينها وبين فيتربنكى لا تتجاوز خمسة فيرستات ، واسمى جريجورى جريجوريفتش ستورتشينكو ، وقد حقت عليك زيارتى ، فى خورتشه ، ولن أعود الى التحدث اليك ان لم تفعل ، وانى لفى عجلة من أمرى الآن أدبر شأنا من شئون عملى » ، ثم مضى يقول فى صوت رقيق مخاطبا سائس خيوله : « وى ! ما هذا ؟ » ، وكان هذا السائس غلاما يرتدى سترة قوزاقية رتقت عند المرفقين وتبدت الحيرة على ملامحه ، ثم ولج الرجل الغرفة ووضع الحقائب والصناديق على المائدة ، واردف : « ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » واخذ صوت جريجورى جريجوريفتش يزداد تهديدا ووعيدا وهو يقول : « أوقد قلت لك أن تضعها هنا ايها الغلام الطيب ؟ أوقد قلت لك أن تضعها هنا ايها الوغد ؟ أو لم أقل لك ان تسخن الدجاج اولا ايها اللئيم ؟ » ، ثم صاح وهو يدق الأرض بقدمه « اغرب عنى ! بل صبرا يا وجه القرد ! أين السلة التى وضعت فيها القنانى ؟ » ، وقال وهو يسكب قدحا من الشراب الحلو : « ايفان فيودوروفتش ! هلا تصيب شيئا من هذا الشراب المنعش ! » .

وانشأ ايفان فيودوروفتش يقول فى تردد : « آه ، لا أستطيع ذلك حقا ــ فقد سبق لى أن .... » .

ورفع صاحب الارض صوته قائلا : « لن أقبل عذرا ! لن اقبل ! ولست بمغادر مكانى حتى تصيب من الشراب شيئا ! » .

ورای ایفان فیودوروفتش ان الاعتذار من ذلك مستحيل ، فجرع القدح فى شيء من الرضا .

وقال جريجوريفتش وهو يقطع دجاجة ويضعها فى صندوق خشبي : « هذه دجاجة يا سيدى ، ولا اخفيك ان طاهيتى يافدوخا مغرمة بأن تصيب من الخمر من حين الى حين قطرة فقطرة ، فاذا وقعت على شيء فما أكثر ما يجف بين يديها » ، ثم انقلب الى الغلام الذى يرتدى السترة القوزاقية وكان يحمل فراشا ووسائد من الريش ، وهتف قائلا : « ايه يا غلام ! ابسط فراشي على الأرض فى وسط الغرفة ! ولا تنس أن تضع قدرا مليحا من القش تحت الوسادة ! وانزع قطعة من القنب من مغزل المراة اسد بها اذنى اثناء الليل ، ولا اخفيك يا سيدى اننى الفت ان اسد اذنى بالليل منذ ان وقعت لى تلك الحادثة الملعونة التى تسلل فيها صرصور الى اذنى اليسرى فى خان روسى . ان اصحاب اللحى المسترسلة لقوم تهوشت عقولهم على ما تبينت بعد ، فحتى المرق يحتسونه والصراصير تجرى فيه ! وهيهات ان اصف لك ما حل بى من هذا الصرصور ، فقد أحسست فى أذنى بدغدغة ، دغدغة شديدة ، كدت أفقد معها عقلى ، وقد شفتنى عجوز ساذجة من ناحيتنا ، افلا تعلم كيف فعلت هذا ؟ لقد سحرته سحرا فبرز لها ، ولم يقتض منها ذلك الا الهمس ، والهمس فحسب ، فما قولك يا سيدى فى الأطباء ؟ انى لأحسب انهم يخدعوننا ويسخرون منا ، وقد تعرف عجوز من النساء فى بعض الأحيان ما لا يعرف كل هؤلاء الأطباء عشر معشاره ! » .

« لعمرى ان ما تقول يا سيدى لهو عين الحق ، وما من ريب فى أن ثمة حالات ... » ثم أمسك ايفان كأنما عجز عن التماس الكلام المناسب .

وقد يكون لنا بعض العذر اذا ذكرنا فى هذا المقام ان ايفان لم يكن قط يميل الى كثرة الكلام ، ولعل ذلك يعود الى حياته أو رغبته فى التعبير عما يريد بأسلوب طلى شائق .

وهتف جريجوريفتش لخادمه : « هز القش جيدا ، هزه جيدا ! ان القش في هذا الخان غاية فى الرداءة ، وليس ببعيد أن تجد فيه علوجا فى اية لحظة . اسمح لى يا سيدى بأن ارجو لك ليلة طيبة !

فاننا لن نلتقي غدا ، فقد عزمت على الرحيل قبل بزوغ الفجر ، انغدا السبت ولسوف يخلد فيه صاحبك اليهودى الى العبادة،وما من حاجة تدعوك الى الاستيقاظ مبكرا . لا تنس دعوتى ، ولن يخاطب لسانى لسانك الا اذا اتيت لزيارتى فى خورتشه » .

وما أن فرغ جريجورى جريجوريفتش من قوله حتى بادر غلامه ، فخلع سترة سيده وحذاءه المرتفع وألبسه منامته ، وتمدد جريجورى جريجوريفتش على فراشه فبدا كفراش ضخم من الريش ألقى به على فراش آخر .

« ايه يا غلام ! أين انت ايها الوغد ؟ تعال هنا رتب لحافى ايه يا غلام ! ضع شيئا من القش تحت رأسى حتى يرتفع ! أو سقيت الجياد أو لم تسقها بعد ؟ زدنى قشا ! هنا ، تحت هذا الجانب ! ورتب اللحاف جيدا أيها الوغد ! أحسنت وأكثر من هذا ، اف ! » .

وتنهد جريجورى جريجوريفتش مرتين ثم أطلق من أنفه صفيرا مزعجا ملأ أرجاء الغرفة ، وكان فى بعض الأحيان يغط غطيطا عاليا تستيقظ له العجوز فجأة من غفوتها على اريكة الموقد ، ثم تحملق حولها فى دهشة ، فلا ترى شيئا ، فيهدأ بالها ثم تستسلم للنوم مرة اخرى .

واستيقظ ايفان فيودوروفتش فى صبيحة اليوم التالى ، فوجد صاحب الأرض البدين قد رحل ، وكان هذا الحادث هو الحادث الوحيد الجدير بالذكر فيما وقع لبطل قصتنا أثناء رحلته . واقترب ايفان بعد يومين من مزرعته الصغيرة .

واحس بقلبه يجيش عندما أطلت عليه الطاحونة ملوحة بأذرعها ، وراح اليهودى يسوق جياده الهرمة مصعدا فى التل ، ولاح لعين ايفان ذلك الصف من شجر الدلب يربض تحت الطاحونة ، وتألقت البركة تألقا من خلال الاشجار ، وهب منها نسيم عليل ، وهنالك الف ايفان أن يستحم فى سابق ايامه ويخوض فيها مع أولاد الفلاحين حتى يبلغ الماء عنقه سعيا وراء الاربيان (الجمبرى) ، وارتقت العربة الجسر فرأى ايفان فيودوروفتش البيت العتيق الصغير المسقف بالقصب، واشجار التفاح والكرز التى كان يتسلقها خفية ، وما ان دخل بالعربة الفناء حتى هرعت الكلاب من كل حدب وصوب على اختلاف الوانها

من عسلى الى اسود ورمادى ومنقط ، وجرى بعضها تحت حوافر الجواد ينبح ، وجرى بعضها الآخر خلف العربة بعد ان اكتشفت ان الدنجل قد لطخ بدهن الخنزير . وكان واحد من الكلاب يقف بالقرب من المطبخ واضعا قدمه على قطعة من العظم فأطلق نباحا متصلا مدويا ، واخرج كلب آخر لسانه عن بعد ، وراح يركض هنا وهناك ، ويهز ذيله كأنه يقول : « انظروا ايها المسيحيون الصالحون! اى فتى ظريف انا ! » ، واسرع صبية يرتدون القمصان القذرة يتفرسون فى وجوه القادمين ، وكان بالفناء خنزيرة تتجول هى وصغارها الستة عشر ، فرفعت خطمها فى فضول ، واخذت تقبع قباعا اعلى مما الفت ، وفرش على اديم الفناء عدد من الملاءات المصنوعة من القنب تغطت بالقمح والاذرة والشعير تجفف فى الشمس ،وبسطت فوق السقف انواع مختلفة كثيرة من الاعشاب ، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير ، حتى تجف .

وشغل بال ايفان فيودوروفتش بالتأمل فى هذا كله ، ولم يفق من سباته الا عندما عض كلب ارقط اليهودى فى بطن ساقه وهو يترجل عن مقعده فى العربة ، وهرعت الخادمات ، ونعنى بهن الطاهية وامراة اخرى وفتاتين كانتا ترتديان نقبتين مصنوعتين من الصوف ، وهتفن : « وى ! انه سيدنا الصغير ! » ، ثم رحن يحدثنه قائلات : ان خالته تبذر بذور الحنطة الحلوة هى والفتاة بالاشكا واوميلكو الحوذى الذى كان يعمل فى كثير من الأحيان عمل البستانى والحارس جميعا » على ان خالته اقبلت اذ رات العربة عن بعد ، وانتاب الذهول ايفان فيودوروفتش حين رفعته خالته عن الارض بين ذراعيها أو كادت ، وعز عليه أن يصدق انها هى الخالة التى كتبت له متحدثة عن شيخوختها واسقامها .

ـ ٣ ـ

الخالة العزيزة

كانت الخالة فاسيليا كاشبوروفنا قد بلغت فى ذلك الوقت الخمسين من عمرها او كادت ، ولم يسبق لها زواج قط ، فقد

جرت على القول بأن العذرية عندها فوق كل شيء آخر . على اننى اذكر حقا انه لم يغازلها احد ، ذلك انه ما من رجل الا احس فى حضرتها بشيء من الحياء ، ولم يجد واحد منهم من الشجاعة ما يحمله على أن يطلب يدها ، وقد اجمع الشبان كافة على القول : « بأن فاسيليا كاشبوروفنا فتاة على خلق عظيم ! » وكانوا فى ذلك صادقين اعظم الصدق ، فما من أحد الا وقع فى قبضة يدها ، ولا ادل على ذلك من انها ظلت تجذب كل يوم بيديهـــا اللتين تشبهان أيدى الرجال قنزعة صاحب الطاحونة السكير ، حتى استطاعت ان تجعل من هذا الشخص التافه رجلا جم الفضائل كامل الصفات . وقد رزقت هذه الخالة بسطة فى الجسم فبدت كالعمالقة او هى اقرب ، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان كل المناسبة قوامها الفارع ، ويظهر ان القدر أخطـــأ خطأ جسيما اذ كتب عليها ان ترتدى رداء بنيا داكنا قصير الأهداب فى ايام الراحة ، وشالا من الكشمير الأحمر فى احد الفصح وفى عيـــد شفيعها .

وقد كان اولى بها وانسب أن تصطنع شاربا كشارب التنين وحذاء مرتفعا كأحذية الرجال ، ثم ان مشاغلها كانت تتفق مع مظهرها تمام الاتفاق ، فقد كانت تتولى التجديف فى القارب بنفسها ، وتجيده اجادة تزرى بأى صياد ، وتصيد الطيور والوحوش ، وتشرف على عمال الحصاد فى اثناء ادائهم عملهم ، وتعرف عــدد البطيخ الذى فى حديقة خضرها ، وتأخذ اتاوة قدرها خمسة كوبيكات عن كل عربة تجتاز جسرها ، وتتسلق الأشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى ، وتضرب العمال الكسالى بيدها المخيفة ، وتمد هذه اليد المرعبة نفسها بقدح من الفودكا لمن يستحقونه .

وكانت فى هذه اللحظة نفسها تقريبا تنهر العمال وتصبغ قطـــع النسيج وتهرع الى المطبخ لصنع الجمة الخفيفة والمربى بالشهد . اجل لقد كانت مشغولة اليوم بطوله ، وافلحت فى ان يتم انجاز كل امر فى موعده ، وكان من اثر عملها هذا أن مزرعة ايفان فيودوروفتش الصغيرة التى كانت تضم ثمانى عشر نفسا بحسب التعداد الأخير ، قد ازدهرت ازدهارا لا مزيد عليه ، ثم انها كانت تحب ابن اختها حبا جما ، وراحت تجمع له المال فى حرص وعناية .

وتغيرت حياة ايفان فيودوروفتش كل التغيير منذ وصوله الى دياره ، واتخذت وجهة جديدة تختلف تماما عما كانت عليه والظاهر انه كان قد فطر بالذات على تولى امور مزرعة تضم ثمانى عشرة نفسا ، ولاحظت الخالة العزيزة نفسها انه سوف يغدو زارعا ممتازا ، وان كانت لم تسمح له بعد بالتدخل فى كل شأن من شئون الادارة فى المزرعة ، فقد ألفت ان تقول « انه لا يزال طفلا ، فانى له أن يعرف كل أمر من امورها ؟ » وكان ذلك بالرغم من ان ايفان فيودوروفتش كان وايم الحق قد أشرف على الأربعين .

على انه كان يشاهد دائما فى الحقول بين الحصادين ، ولشد ما كان قلبه يفيض بالسرور اذ يرى اثنى عشر منجلا متألقا أو أكثر وهى تحصد الارض حصدا فى تناسق وانسجام ، ويسمع صوت العشب يتساقط فى حشات متساويات ، واناشيد الحصادين تنطلق بين الفينة والفينة ، فتارة تكون مستبشرة متهللة تهلل المرء يلقى ضيفا ، وتارة تكون محزنة حزن الأحباب عند الفراق ، وينعم بهداة الليل المشرق الصافى ! ... ويا له من ليل ! ويا له من جو طلق عذب ! وما اروع الحياة تدب فى كل شىء فيتوهج الشهب ، ثم يستحيل أزرق داكنا ثم يتألق مزدهيا بحلته المتعددة الالوان ، وتنطلق السلوى والحبارى والنورس والجندب وآلاف من الحشرات تصفر وتطن وتغرد وتتنادى ، ثم لا تلبث أن تمتزج هذه الأصوات جميعا فى نغم واحد متسق .

أجل لقد كان كل شىء يستجيب لداعى الحياة لا يخلد الى السكون ابدا . ثم غربت الشمس فى هذه الأثناء ، آه ، ما كان اعذب الجو وابهجه ! فقد كان القوم يقيمون نارا هنا وهنالك فى الحقول ، ويضعوا فوقها القدور الكبيرة ، ويحيط بها الحصادون ذوو الشوارب ، وينبعث البخار من لقيمات القاضى صاعدا فى الهواء ، وينطفىء وهج الغسق شيئا فشيئا .. وما اشق أن يتبين المرء ما يجيش فى نفس ايفان فيودوروفتش فى مثل هذه الأوقات ، فقد لحق الرجل بالحصادين ونسى ان يتذوق لقيمات القاضى مع فرط حبه لها ، ووقف بلا حراك ، يرقب نورسا يهبط من السماء بعيدا عن الأنظار او يعد حزم القمح التى انتشرت فى الحقول .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اخذت الألسنة تلهج بأن ايفان فيودوروفتش زارع عظيم ، ولم تكن الخالة العزيزة لتمل من اظهار فرحها بابن أختها ، لا تترك فرصة ألا زهت به وتفاخرت ، واخذت فاسيليا كاشبوروفنا بذراع ايفان فيودوروفتش ذات يوم — وكان ذلك قبيل نهاية الحصاد ، اى فى اواخر يوليو — ولم تفصح عما يدور فى نفسها ، وقالت انها تريد التحدث اليه فى أمر طال بها التفكير فيه .

ثم انشأت تقول : « انك لمدرك ياعزيزى ايفان فيودوروفتش ان ثمانية عشر شخصا يعيشون فى مزرعتك وهم فى واقع الأمر يزيدون على ذلك وان كان هذا هو العدد الذى رصد حقا فى سجلات التعداد الأخير ، ومن يدرى ؟ لعل عددهم اربعة وعشرون شخصا ، ولكن ليس هذا بيت القصيد . انك لتعرف الحرجة التى فيما وراء مزرعتنا ، ولاشك انك تعرف المرج الفسيح الذىخلفها ، فهو يشتمل على خمسة وخمسين فدانا او نحوها ، وعشبه من الجودة بحيث يدر مائة روبل فى السنة ، وخاصة اذا صح ما يقولون : من ان فرقة للفرسان ستعسكر فى جادياخ » .

« أعرف هذا بلا ريب ايتها الخالة العزيزة ! ان عشبه غاية فى الجودة » .

« ما من حاجة تدعوك الى القول بأن عشبه غاية فى الجودة فانى اعلم هذا ، ولكن أتعلم ان هذه الأرض كلها ملكك شرعا ؟ وى ! ما بالك تحملق فى هكذا ؟ استمع الى يا ايفان فيودوروفتش ! أتذكر ستيبان كوزميتش ؟ ولكن كيف بى أوجه اليك مثل هذا السؤال وقد كنت وقتئذ أصغر من أن تستطيع النطق باسمه ؟ أجل لقد كنت صغيرا حقا ! ذلك اننى جئت اليكم ليلة صيام عيد الميلاد بالذات وحملتك بين ذراعى ، فكدت تتلف ثوبى ، ومن حسن التوفيق اننى بادرت فأسلمتك فى اللحظة المناسبة الى مربيتك ماتريونا ، وى ! لقد كنت آنئذ طفلا لا تطاق ! ولكن ليس هذا بيت القصيد ذلك ان الأرض التى وراء مزرعتنا وقرية خوريتشه نفسها كانت مملوكة لستيبان كوزميتش ، ولا اخفيك انه كان قد الف ان يزور امك قبل أن تكتحل عيناك برؤية هذه الدنيا ، على انه كان ، وأيم

الحق لا يفعل ذلك الا حين يكون ابوك خارج الدار ، ولست اقول هذا قدحا فيهـــا ـ رحمة الله عليها ! ـ ولو أن المســـكينة كانت تسيء الى دائما ، ولكن ليس هذا بيت القصيد، ذلك ان ستيبان كوزميتش قد وهب لك الأرض التى أحدثك عنها بمقتضى وثيقـــة رسمية ، بيد ان امك رحمة الله عليها ـ وليبق ما أقول سرا بينى وبينك ـ كانت امراة غريبة الأطوار الى حد عجيب ، لايستطيـع الشيطان نفسه ـ وليغفر الله لى هذه الـكلمة القبيحة ـ ان ينتزع من صدرها ما تخفيه ، أما ما فعلت بالوثيقـة فعلم ذلك عند ربى ، ولاريب انها فى حوزة ذلك العزب العجوز جريجورى جريجوريفتش ستورتشتكو ، فقد استولى عليها هذا الوغد البطين الذى يحاكى كرشه القدر فى انتفاخه ، وانى لأراهنك بما تريد على انه قد أخفى تلك الوثيقة » .

« أفلا تسمحين لى بســـؤال أيتهـــا الخالة العزيزة ؟ أليس هو ستورتشنكو بعينه الذى تعرفت به فى الخان ؟ »

وأخذ ايفان فيودوروفتش يصف لها لقاءه بستورتشنكو وفكرت خالته لحظة ثم قالت : « من يدرى ؟ لعله بعيد عن الشر ، صحيح انه لم يقم بين ظهرانينا الا منذ ستة اشهر ، الا انك لاتستطيـع ان تخبر انسانا فى وقت وجيز كهذا ، ان تلك السيدة العجوز امراة راجحة العقل فيما بلغنى ، فهى تجيد تخليل الخيار ، وعندها اماء يصنعن طنافس بديعة . أما وقد رحب بك الرجل اجمل ترحيب فان الواجب يقتضيك ان تذهب لزيارته ، ولعل هذا الآثم العجوز يستجيب لنداء ضميره ، فينزل عما ليس يملك ، ولتستقل العربة ان شئت ، ولو انالأطفال الملاعين قد نزعوا المسامير التى فىظهرها، ولآمرن الحوذى اوميلكو بأن يحسن تثبيت الجلد بالمسامير فى كل مكان منها »

« لاداعى لهذا ايتها الخالة العزيزة ، فلســوف أستقـل العربة الصغيرة التى تخرجين بها احيانا طلبا للصيد » .

وانتهى الحديث عند هذا الحد .

- ٤ -

الغـــــذاء

وبلغ ايفان فيودوروفتش قرية خوريتشه فى موعد الغذاء تقريبا؛ واحس بشيء من الاستحياء وهو يقترب من منزل صاحب الضيعة . وكان منزلا مستطيلا لم يسقف بالقصب كغيره من منازل اصحاب الأراضى المجاورة ، بل سقف بالخشب ، وقد قام فى فنائه مخزنان للحبوب لكل منهما ايضا سقف من الخشب ، وصنع باب المنزل من السنديان . واحس ايفان فيودوروفتش باحساس الرجل الأنيق، ما ان يبلغ المرقص حتى يجد كل من فيه أكثر تأنقا منه ، واوقف عربته بجوار أحد المخزنين اظهارا لاحترامه ، ثم مضى الى البـاب الأمامى .

وصاح الرجل البدين جريجورى جريجوريفتش : « آه ، ايفان فيودوروفتش ! » ، وكان فى هـذه الأثنـاء يجتاز الفنـاء مرتديا سترته من غير رباط رقبة ولا صديرى ولا حمالة ، على ان هـذا اللباس على بساطته كان فيما يظهر يثقل على جسمه اثقالا شديدا ، فقد اخذ العرق يتصبب منه ، ثم أردف : « وى ! لقد وعدت بالزيارة بمجرد أن تنتهى من رؤية خالتك وهأنت ذا قد غبت عنـا فاطلت ! »

ولم يلبث ايفان فيودوروفتش ان وجد شفتيه نفسيهما تلمسان مرة أخرى تلك الوجنتين اللتين تشبهان الوسادة .

« لقد كنت مشغولا بالاشراف على المزرعة خاصة ، والحق اننى جئتك فى عمل ، ولن أبقى الا لحظة » .

« لحظة ؟ وى ! انها لا تكفى ! » ، ثم صاح السيد البدين : « ايه ياغلام ! » ، ولبى الغـلام المعهـود الذى يرتدى السـترة القوزاقية واقبل على سيده من المطبخ ، « قل لـكاريان ان يحكم اغلاق الباب ، اتسمعنى ؟ هيا وعجل ! وحل السؤاس «العريش» عن جواد هذا السيد فى التو واللحظة . هلا تتفضل بالدخول الى الدار ، فان الجو شديد القيظ هنا حتى لقد ابتل قميصى » .

واســتقر راى ايفان فيودوروفتش وهو يدخــل الدار على الا يضيع وقتا وان يتصرف فى حزم على الرغم من حيائه .

« لقد تفضلت خالتى فقصت على نبأ وثيقة بهبة كتبها المغفور له ستيبان كوزميتش ... » .

وما ان سمع جريجورى جريجوريفتش هذه الكلمات حتى شاب ملامحه تجهم شديد ، يجل عن الوصف .

واجاب قائلا : « آه ياعزيزى ، انى لا استطيع ان اسمع شيئا ، ولا اخفيك ان صرصورا تسلل الى اذنى اليسرى ، الا تبا لأولئك الروس الملتحين ، فهم يربون الصراصير فى أكواخهم ، وان القــلم ليعجز عن وصف ما انتابنى من الم ، فقد ظل يخزنى ، ثم يخزنى حتى جاءت امراة عجوز فشفتنى على أيسر سبيل ... » .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته وقاطعه ، اذ رأى انه يحاول ان ينأى عن الموضوع ، وقال : « انما قصدت ان أقول : انه ورد فى وصية الطيب الذكر ستيبان كوزميتش ذكر وثيقة بهبة ، وانى لأستحق بمقتضى هذا العقد ... »

« انى لأدرك ما تقول ، وهأنذا ارى ان خالتك قد انبأتك بنبأ هذه الرواية ، قسما انها لفرية ! فان خالى لم يكتب وثيقة بهبة ، صحيح ان الوصية اشارت الى وجود وثيقة من هذا القبيل ولكن اين هى ؟ ما من احد ابرزها ، وانى لأقول لك هــذا لاننى أرجو لك الخير من كل قلبى ، قسما انها لفرية ! » .

ولم يحر ايفان فيودوروفتش جوابا ، فقد دار بخلده ان خالته قد تــكون مخطئة حقا .

وقال جــريجورى جــريجوريفتش : « آه ، ها هى ذى امى واختاى ! اذن فقد أعد الغذاء ! فهيا بنا ! » .

وعنــدئذ امسك ايفان فيودوروفتش من يده وقاده الى غرفة وضعت على مائدة فيها الفودكا واطايب المــأكولات .

وولجت الغرفة فى هذه الأثناء سيدة عجوز قصيرة القامة كابريق القهوة سواء بسواء ، ترتدى قبعة وفى صحبتها شابتان : احداهما شقراء ، والأخرى سمراء . وتقــدم ايفان فيودوروفتش الى السيدة

العجوز وطبع قبلة على يدها كما يفعل السادة الفضلاء ، ثم قبل ايضا يدى الشابتين .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « أماه ، هذا هو جارنا ايفان فيودوروفتش شبونكا » .

ونظرت السيدة العجوز مليا الى ايفان فيودوروفتش ، أو ربما كان ذلك هو ما تراءى للأنظار ، على انها كانت مثالا للطيبة والبساطة مجتمعتين حتى بدا على العجوز كأنها تود أن تسأل ايفان فيودوروفتش : « ما مقدار ما خللتم من خيار هذا الشتاء ؟ » .

وسألته السيدة العجوز : « هل اصبت شيئا من الفودكا ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش : « لاشك انك لم تنالى كفايتك من النوم يا اماه ، كيف يسأل ضيف : هل اصاب شيئا من الفودكا أو لم يصب ؟ حسبك أن تقدميها لنا ، ولا عليك ان كنا اصبنا منها أو لم نصب ، فان هذا من شأننا . اى ايفان فيودوروفتش ، هل تصيب شيئا من فودكا القنطريون أو فودكا تروفيمون ؟ أيهما تفضل ؟ » ، ثم التفت واردف : « وانت يا ايفان ايفانوفتش ، ما بالك تقف هناك ؟ » ، ورأى ايفان فيودوروفتش السيد الذى وجه اليه جريجورى جريجوريفتش الحديث يقترب من الفودكا وهو يرتدى سترة رسمية لها ذيلان كبيران وبنيقة ضخمة منتصبة غطت قفاه كله حتى بدا للأنظار ان راسه قد استوىعليها كما يستوى المرء فى عربة .

واقبل ايفان ايفانوفتش على الفودكا وفرك يديه وتفرس جيدا فى القدح ثم ملأه ورفعه الى النور وافرغه دفعة واحدة فى حلقه ، على انه لم يجرع الشراب فى الحال بل راح يمصمصه فى فمه جيدا ثم تركه آخر الأمر يهبط الى جوفه ، ثم أصاب شيئا من الخبز ومن الفطير المصنوع بالكامخ ، والتفت الى ايفان فيودوروفتش وسأله قائلا : « هل ايفان فيودوروفتش شبونكا هو الذى اتشرف بالتحدث اليه ؟ » .

واجاب ايفان فيودوروفتش : « أجل ياسيدى » .

« لقد تغيرت كثيرا مذ رأيتك آخر مرة » ، ومضى يقول : «وى! انى لأذكرك ولما تشب فى الطول عن هذا ! » ، ورفع يده عنالأرض

باردة ، « ان أباك رحمة الله عليه كان من الرجال النادرين ، لا تقصده الا رايت عنده بطيخا لا تجد له الآن نظيرا فى أى مكان»، واسترسل يقول وهو ينتحي به جانبا : « وهاك شاهدا على ما اقول ، فانهم سيضعون امامك على المائدة بطيخا ، اجل بطيخا حقا! ولن تحفل بالنظر اليه » ، ثم هتف فى شيء من الغموض والخفاء باسطا ذراعيه كما لو كان على وشك أن يعانق جذع شجرة ضخما: « أو تصدق ياسيدى انه كان عنده من البطيخ ما يبلغ هذا الحجم والله على ما أقول شهيد ؟ » .

وقال جريجورى جريجوريفتش وهو يأخذ بذراع ايفان فيودوروفتش : « تعال نتناول الغداء » .

ومضت الجماعة الى غرفة المائدة .

وجلس جريجورى جريجوريفتش فى مكانه المالوف من طرف المائدة وقد لف نفسه بمفرش ضخم من مفارش المائدة جعله يبدو للأنظار شبيها بالأبطال الذين ينقشهم الحلاقون على واجهات محالهم ، وجلس ايفان فيودوروفتش فى المكان الذى أجلسوه فيه قبالة الشابتين وقد علت وجهه حمرة الخجل ، ولم يدع ايفان ايفانوفتش فرصة الجلوس الى جواره تفلت من يده ، فقد سر فى قرارة نفسه اذ وجد انسانا يستطيع ان يفضى اليه بما فى جعبته من جوامع الأخبار واشتاتها .

وقالت السيدة العجوز موجهة الخطاب الى ايفان فيودوروفتش اذ رأت الخادم الريفى الذى يرتدى سترة للسهرة رمادية اللون تغشاها رقع سود يقدم له صفحة من الطعام ، « دع الزمك يا ايفان فيودوروفتش فانه ديك رومى ! وعليك بالأوراك ! » .

وعلق جريجورى جريجوريفتش على قولها هاتفا : « أماه ، دعيه وشأنه ! واعلمى ان ضيفنا يعرف كيف يأخذ ما يحلو له عليك بجناح يا ايفان فيودوروفتش ، وليكن الجناح الذى عليه الحوصلة! وى ! انك لم تصب منه الا القليل ! فخذ ساقا ! يا غلام ، ما بالك ؟ اعزم عليه ! واجث على ركبتيك ايها الوغد ! وبادره بقولك: خذ ساقا يا ايفان فيودوروفتش ! » .

وصاح الخادم الذى يحمل الطبق وهو يجثو : « خـذ سـاقا يا ايفان فيودوروفتش ! »

وغمغم ايفان ايفانوفتش فى صوت خفيض وهو يلتفت الى جاره مستهزئا : « ايه ! أو تسمى هذا ديكا روميا ؟ اهيئة ديك رومى تلك ؟ آه لو رأيت ديكتى الرومية ! انها لتحمل من الشحم ما لا يحمله اثنا عشر ديكا من هذا القبيل ، لعمرى ياسيدى ، ان منظرها وهى تتميح فى الفناء من فرط ما تحمل من شحم ولحم لشىء تنفر منه النفس ! » .

فهتف جريجورى جريجوريفتش اذ وصل الى سمعه هذا التعليق: « انك تـكذب يا ايفان ايفانوفتش ! » .

ومضى ايفان ايفانوفتش يقول لجاره ، وقد تظاهر بأنه لم يسمع ما قاله جريجورى جريجوريفتش : « ولا اخفيـك اننى بعثت بها الى جادياخ فى العام الماضى لعرضها فى السوق ، فبلغ ثمن الواحد منها خمسين كوبكا ، ولكننى رفضت هذا الثمن المرتفع » .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، وقد علا صـوته علوا ، وراح يشد على كل مقطع من كلماته زيادة فى البيان : « ايفان ايفانوفتش! أقول لك انك تـكذب » .

ومضى ايفان ايفانوفتش على سنته كأنما كان هذا الـكلام لا يعنيه من قريب أو بعيد ، وراح يتحدث فى لهجته المعهودة وقد خفض من صوته كثيرا : « اجل ياسيدى ، لم اقبل ذلك الثمن ، فما من سيد فى جادياخ ... »

وصاح جريجورى جريجوريفتش : « لعمرى انك لأحمق يا ايفان ايفانوفتش ! ان ايفان فيودوروفتش ليعلم من الأمر كله ما لاتعلم، وأنا واثق انه لن يصدقك ! » .

وبوغت ايفان ايفانوفتش هذه المرة حقا ، فلم ينبس ببنت شـفة بل أقبل على الديك يزدرده على الرغم من انه لم يكن يحمل من الشحم ما تحمله تلك الديكة السمينة التى تنفر النفس من منظرها.

وتعطلت لغة الكلام لحظة وحلت محلها قعقعة السكاكين والملاعق والصحاف ، وغاب على ذلك كله ما احدثه جريجورى جريجوريفتش من صوت وهو يمصمص النخاع من عظم الضأن .

وران السكون برهة ثم انبعث ايفان ايفانوفتش يسأل جاره على المائدة مبرزا رأسه من بنيقته الشبيهة بالعربة : «هل قرأت رحلات كوروبيينيكوف الى الارض المقدسة ؟ انه لمتعة للقلب والنفس حقا ! وهيهات أن ينشر مثل هذا الكتاب فى أيامنا هذه ، ولشد مايؤسفنى اننى لم ألحظ السنة التى كتب فيها ! » .

وما أن سمع ايفان فيودوروفتش اسم كتاب يذكر حتى اقبل على المرق المتبل بهمة ونشاط .

« انك لتعجب حقا ياسيدى اذا علمت ان مواطنا رقيق الحال كهذا استطاع زيارة كل هذه الأماكن . لقد قطع فى رحلته تلك ياسيدى أكثر من ثلاثة آلاف فيرست ! ولاشك أن فضل الله هو الذى أتاح له أن يبلغ فلسطين وبيت المقدس » .

وقال ايفان فيودوروفتش ، وكان قد سمع الكثير عن بيت المقدس من الجندى الذى كان يقوم على خدمته : « اذن فأنت تقول : انه زار بيت المقدس » .

وسأل جريجورى جريجوريفتش من طرف المائدة : « ماذا تقول يا ايفان فيودوروفتش ؟ » .

وقال ايفان فيودوروفتش : « لقد تهيأت لى الفرصة لمعرفة ما فى العالم من بلاد قاصية ! » وافعم قلبه بالسرور اذ أفلح فى النطق بمثل هذه العبارات المطنبة العسيرة .

وقال جريجورى جريجوريفتش ، ولم يكن قد ميز كل ماقيل : « لا تصدقه يا ايفان فيودوروفتش ! انه يكذب دائما ! » .

وفرغ القوم من تناول غذائهم فى هذه الاثناء ، وأوى جريجورى جريجوريفتش الى غرفته كشأنه ليغفو قليلا ، وتبع الضيفان مضيفتهما العجوز والشابتين الى غرفة الاستقبال فوجدوا المائدة المعهودة التى تركوا عليها الفودكا عندما مضوا لتناول الغذاء وكأنما مستها يد ساحر ، فحفلت بأطباق صغيرة من المربى على اختلاف انواعها وصحاف الكرز وانواع شتى من البطيخ .

وكان غياب جريجورى جريجوريفتش ملحوظا فى كل شىء ، فقد جنحت العجوز الى الاسراف فى الكلام ، وانطلقت بمحض اختيارها ومن غير اثارة ولا سؤال تفشى كثيرا من الأسرار عن صنع فطيرة

التفاح وتجفيف الكمثرى ، ولم يقتصر الأمر على المرأة العجوز، بل لقد انحلت عقدة لسان الشابتين ولو ان الشقراء آثرت الصمت ، وبدا من مظهرها انها تصغر اختها بست سنوات وقد كانت على ما يلوح فى الخامسة والعشرين من عمرها .

على ان ايفان ايفانوفتش كان أكثر القوم كلاما ونشاطا ، ذلك انه اطمأن الى ان أحدا لن يزجره أو يقاطعه ، فراح يتحدث عن الخيار وزراعة البطاطس ويقول : ان عدد العقلاء فى الأيام الخالية يزيد على عددهم اليوم زيادة لا تجدى معها المقارنة ! وان كل شىء يتحسن بمرور الزمن وتكتشف من الاختراعات أدقها وأشـــدها تعقيدا . وما من شك ان الرجل كان من أولئك الأشـــخاص الذين يجدون فى مواصلة الحديث لذة عظيمة ، فلا ينفكون عن الخوض فى كل ما يمكن أن يخوض النـــــاس فيه ، حتى اذا مس الحديث موضوعات خطيرة أو مسائل من مسائل الدين الفيت ايفان ايفانوفتش يتنهد بعد كل كلمة ويومىء براسه قليلا . اما اذا تطرق الحديث الى امور وثيقة الصلة بالشئون المنزليـة فلا تلبث ان تجـده يبرز راسه من بنيقته التى تشبه العربة ، ويقلب وجهه تقليبا يكاد يفصح عن كيفية صنع شراب الكمثرى المسكر ومبلغ ما يصـل اليه حجم انبطيخ الذى كان يتشدق به ، ومقدار ما يحمل الاوز الذى يجول فى فنائه من شحم ولحم .

واخيرا افلح ايفان فيودوروفتش فى الاستئذان بعد جهد ، على أن يغادر القوم عند حلول المساء ، ومع ان الرجل كان قد ألف أن يستسلم للرجاء ، فانهم لم يستطيعوا استبقاءه حتى المساء الا بشق الأنفس ، فقد صمم على رأيه ثم مضى .

ـ ٥ ـ

خطة جديدة تدبرها الخالة العزيزة ..

«هل انتزعت وثيقة الهبة من الآثم العجوز ؟» ، وهكذا ابتدرت الخالة ايفان فيودوروفتش بالتحية ملقية عليه هذا السؤال ، وكانت قد ظلت تنتظره بضع ساعات على الدرج ، ولم تستطع آخر الأمر أن

تقاوم ما تملكها من رغبة فى الخروج الى الباب .

وقال ايفان فيودوروفتش وهو يترجل عن العربة الخفيفة : «كلا ياخالتي العزيزة ، فليس عند جريجورى جريجوريفتش وثيقة » .

« أو صدقته ؟ لقد كان ذلك المخبول يكذب عليك ! لسوف يقع فى قبضتي يوما فأضربه بيدى هاتين ضربا مبرحا ، آه ، لو تم لى ذلك لخلصته من بعض شحمه ! ولعل من حسن الرأى ان نشاور فى الأمر أولا مساعد القاضي فى ناحيتنا ، لنرى هل يحق لنا أن نستمدى القانون عليه ؟ ولكن ليس هذا بيت القصيد الآن ، هل كان الغذاء شهيا ؟ » .

« شهيا جداً ــ بل رائعا أيتها الخالة العزيزة » .

« فماذا أصبت اذن من الوان الطعام ؟ خبرنى ، فانى لأعلم ان السيدة العجوز تتقن الطهى » .

« عجين قد قلى بالجبن عليه قشدة مخثرة أيتها الخالة العزيزة ، وحمام محشو فى مرق متبل ... »

وسالته خالته : « وديك رومي بالقراصية ؟ » ، ذلك انها كانت هى نفسها بارعة فى اعداد ذلك الطبق .

« أجل ، كان من الوان الطعام ديك رومي ايضا ، الا ما أملح اختى جريجورى جريجوريفتش وبخاصة الشقراء ! » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وتفرست فى وجه ايفان فيودوروفتش فأرخى بصره ، واحمر وجهه خجلا ، ثم طرات على ذهنها فكرة جديدة ، فراحت تقول فى غيرة وفضول : « تعال حدثنى ، ما شكل حاجبيها ؟ »

ولا يفوتنا أن نقول : ان الخالة العزيزة كانت ترى ان جمال الحاجبين هو اهم ما تتميز به ملامح المرأة .

« ان حاجبيها أيتها الخالة العزيزة يطابقان كل المطابقة ما وصفت به حاجبيك عندما كنت شابة فى مقتبل العمر ، ويغشى وجهها كله نمش صغير » .

وهتفت الخالة قائلة : « آه ! » ، وقد سرنها الملاحظة التى أبداها ايفان فيودوروفتش غاية السرور ، وان كان لم يخطر بباله أن يطربها ، ثم أردفت : « أى ثوب كانت ترتدى ؟ ولو ان من

المتعذر اليوم الحصول على نسيج من نوع جديد كالذى صنعت منه ردائى هذا مثلا ، ولكن ليس هذا بيت القصيد ، أو تحدثت اليها فى أمر من الأمور ؟ » .

« اتحدث اليها ؟ ماذا تعنين ايتها الخالة المزيزة ؟ لعلك تظنين. »

« واى ضير فى هذا ؟ لو فعلتما ما عجب لذلك أحد ، فلا اعتراض على مشيئة الله ! ومن يدرى ؟ لعله كتب عليكما منذ ولادتكما ان تكونا زوجا وزوجة ! » .

« لست ادرى كيف يرد مثل هذا القول على لسانك ايتها الخالة المزيزة ! يبدو لى من قولك انك لا تفهميننى على الاطلاق » .

فردت الخالة : « وى ! وى ! لقد تضايق الفتى ، ولا عليه فانه لايزال طفلا » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « انه لايدرى شيئا ، فلأجمعن بينهما ولأسعين الى تعريف كل منهما بالآخر » .

وما ان فرغت الخالة من قولها هذا حتى خرجت لتلقى نظـــرة على المطبخ وتركت ايفان فيودوروفتش وحيــدا ، ومن يومها وهى لاتفكر الا فى شيء واحد هو أن ترى ابن أختهــا وقد تزوج بأسرع ما يمكن . واخذت هى تدلل اطفاله الصغار . وشغل الاستعداد للزفاف عقلها حتى لوحظ انها زادت نشاطا وانطلقت تروح وتغدو صاخبة مضوضية ، ولو ان ذلك اساء الى العمل أكثر مما أحسن اليه ، وآية ذلك انها كانت تقوم فى كثير من الأحيان بصنع كمكة ، وهو عمل لم تكن لتتركه قط للطاهية ، فتنسى كل شيء وتتخيل أن ابن اختها قد رزق ولدا صغيرا وقف الى جانبها يسألها قطعة من الكمكة ، فتمد له يدها بأطيب ما فيها شاردة اللب ، وينتهز كلب الفناء هذه الفرصة فيخطف هــذه القطعة الطيبة ، ولايوقظها من سباتها الا صوت أسنانه تقمقع ، فينال جزاءه المعهود : لطمة من محراك النار ! ولم يقف بها الأمر عند هذا الحقد ، ذلك انها نبذت هوايتها المحبوبة ، وانقطعت عن الصيد وخاصة بعد ان اخطـأت ، فصادت غرابا ظانة انه حجل ، وهو أمر لم يحدث لها من قبل قط .

وبعد اربعة ايام راى الناس آخر الأمر عربتها تخرج من الحظيرة الى الفناء ، وكان اوميلـكو الحوذى الذى جمع فى بردته صـــفتى البستانى والحارس أيضا ، يدق منذ الصــباح الباكر منبتا الجلد

بالمسامير ويواصل مطاردته للكلاب التي كانت تلعق العجلات ،واني لأحسب ان الواجب يقتضيني ان أقول لقرائي : « ان هذه العربة كانت هي هي العربة التي ألف ابونا آدم ان يركبها ! فاذا اجترأ احد وزعم ان آدم كان يركب عربة اخرى كان فى زعمه هذا كذابا اشرا ، وكانت عربته هذه مزيفة بلا ريب ، على اننا لا ندرى :كيف بقيت العربة بعد الطوفان ؟ ولا حيلة لنا الا ان نفترض انه كان لها حظيرة خاصة فى فلك نوح ، ولشد ما يؤسفني انني لا استطيع ان ارسم لقرائي صورة حية لها .

وحسبنا أن نقول ان فاسيليا كاشبوروفنا كانت راضية عن صنعة عربتها كل الرضا ، لا تمل من ابداء أسفها على ان الطراز القديم من العربات اصبح فى نظر الناس عتيقا باليـا ، وروعى فى تركيب العربة أن تميل قليلا على جانب منها بحيث يعلو الجانب الايمن عن الأيسر كثيرا ، وقد سرها ذلك أبلغ السرور بصفة خاصة ، زاعمة ان الشخص القصير يستطيع أن يركبها من جانب على حين يركبها الطويل من الجانب الآخر ، على ان العربة لم تكن تتسع لأكثر من خمسة أشخاص قصار القامة أو ثلاثة فى مثل قامة الخالة العزيزة نفسها .

وفرغ أوميلكو من عمله فى العربة قرب الظهيرة ، واخرج من الحظيرة ثلاثة جياد أقل عمرا من العربة بقليل ، وبدأ يشدها بحبل الى العربة الفخمة ، وركب ايفان فيودوروفتش من الجانب الأيسر وخالتـه العزيزة من الجانب الأيمن ، ومضـت العربة فى طريقهـا ، ورأى الفلاحون الذين صادفوهما فى الطريق هـذا الموكب الضخم « وقلما كانت فاسيليا كاشبوروفنا تخرج فى العربة » ، فوقفوا فى خشوع ، وخلعوا قبعاتهم ، وانحنوا انحناء كبيرا .

ووقفت العربة بعد مسيرة ساعتين عند الباب الأمامى ، ولاحاجة الى القول بأنه باب منزل ســـــــــــــتورتشنكو ، وكان جريجورى جريجوريفتش خارج الدار. وخفت امه العجوز واختاه الشابتان الى غرفة المائدة لاســـتقبال الضيفين ، ودخلت الخالة الغرفة فى مهـابة وجلال ، وخطت خطوة فى براعة كبيرة ، ثم قالت بصوت مرتفع :

« يسعدنى ياسيدتى أن أتشرف بتقديم احترامى شخصيا ، وان

اشكرك فى الوقت نفسه على الكرم الذى لقيه ابن أختى منكم ، مما الهج لسانه بالثناء عليكم . ان حنطتكم السوداء لغاية فى الجودة ياسيدتى ، وقد رأيتها ونحن نجتاز القرية فهل لى ان أسألك عن مقدار ما تغله فى الدسياتين (١) الواحد ؟ » .

واعقب ذلك تبادل القبلات ، وما ان استقر الجميع فى غرفة الاستقبال حتى بدات السيدة العجوز الحديث قائلة : « اما عن الحنطة السوداء فلست أعلم امرها شيئا ، فان هذا من شأن جريجورى جريجوريفتش ، وقد انقطعت صلتى بهذه الشئون منذ زمن طويل ، ولا أستطيع ان أتولاها الآن ، فقد تقدمت بى السن، وانى لأذكر ان الحنطة السوداء كانت فيما مضى ترتفع حتى تبلغ قامة الانسان ، اما الآن فالله اعلم بأمرها ، وان كانوا يقولون : ان كل شىء قد تحسن فى الوقت الحاضر » وزفرت العجوز زفرة قد يرى بعض المراقبين فيها انها تنم عن قرن مضى ، هو القرن الثامن عشر .

وقالت فاسيليا كاشبوروفنا : « لقد علمت ياسيدتى ان جواريك بارعات فى صنع الطنافس » ، وبهذا القول ضربت الخالة على الوتر الحساس ، فبدا الاشراق على وجه السيدة العجوز ، وانطلقت تتحدث عن كيفية صباغة النسيج واعداد الخيط .

وانتقل الحديث فى يسر من الطنافس الى تخليل الخيار وتجفيف الكمثرى .

وصفوة القول انه ما ان مضت ساعة حتى استغرقت السيدتان فى الحديث كانما ربطت بينهما صداقة العمر ، وكانت فاسيليا كاشبوروفنا قد حدثتها فعلا فى صوت هامس تعذر على ايفان فيودوروفتش أن يسمع كلمة واحدة منه .

وقالت السيدة العجوز وهى تنتصب واقفة : « أجل ، اتحبين ان تلقى نظرة عليها ؟ » ونهضت الآنستان هما وفاسيليا لتمضين جميعا الى غرفة الجوارى ، على ان الخالة العزيزة اشارت الى ايفان فيودوروفتش بأن يبقى ، وأسرت شيئا الى السيدة العجوز .

---

(١) الدسياتين : قطعة من الارض مقدارها نحو فدانين ونصف الفدان.

وقالت السيدة العجوز وهى تنتصب واقفة : « أجل ، ابقى ياماشنكا مع ضيفنا وحدثيه حتى لا يشعر بالسأم ! » .

وجلست الآنسة الشقراء على الأريكة ، واستوى ايفان فيودوروفتش على كرسيه كأنما يستوى على الأشواك ، وأحمرت وجنتاه خجلا وأرخى بصره ، ولم يبد على الفتاة انها لاحظت ذلك ، وجلست على الأريكة لا تحفل بشىء ، وراحت تتفرس فى النوافذ والجدران ، أو ترقب القط وهو يدور واثبا تحت المقاعد فى تهيب ووجل .

وتشجع ايفان فيودوروفتش قليلا وأحس بأن الأمر يقتضيه أن يبدأ الحديث ، على ان كلماته جميعا كانت فيما يظهر قد ندت منه وهى فى الطريق الى لسانه ، ولم تطرأ بباله فكرة واحدة .

ودام الصمت بينهما قرابة ربع ساعة ، وظلت الآنسة جالسة فى مكانها لا تريم .

واستجمع ايفان فيودوروفتش شجاعته آخر الأمر ، واستطاع أن يقول فى صوت تخالطه رجفة :

« لشد ما يكثر الذباب فى الصيف ياسيدتى ! »

واجابت الشابة : « ما أكثره حقا ! لقد صنع أخى مذبة لأمى من خف قديم تقتل به الذباب ، ومع ذلك فقد بقيت منه حشود وحشود » .

وبهذا انقطع الحديث ، ولم يستطع ايفان فيودوروفتش أن يجد شيئا يقوله .

وعادت السيدة العجوز آخر الأمر هى وخالته والآنسة السمراء ، وواصلوا الحديث هونا ، ثم استأذنت فاسيليا كاشبوروفنا من السيدة العجوز وابنتيها بالرغم من توسلاتهن بأن يقضيا الليلة معهن ، وخرجت السيدات الثلاث الى الدرج يودعن الضيفين ، وظللن وقتا يومئن برءوسهن الى الخالة وابن أختها وهما يطلان من العربة .

وسألته الخالة فى طريقهما الى المنزل : « قل لى يا ايفان فيودوروفتش ، فيم كان حديثكما عندما انفردت بالفتاة ؟ » .

فقال ايفان فيودوروفتش : « ان ماريا جريجوريفنا لفتاة مهذبة راجحة العقل » .

« انصت الى يا ايفان فيودوروفتش ، فانني لأود أن احدثك حديثا جديا ، هأنت ذا قد جاوزت السابعة والثلاثين ، وحصلت فى خدمة الجيش على رتبة حسنة ، وقد آن لك ان تفكر فى الأطفال ويجب أن تتزوج » .

وصاح ايفان فيودوروفتش فى فزع : « ماذا ترددين أيتها الخالة العزيزة ؟ زوجة ! كلا ياخالتى بالله عليك ! انك لتقتليننى خجلا، فما عرفت الزواج بعد ، ولست ادرى ماذا افعل اذا أصبحت لى زوجة ! » .

وقالت الخالة وهى تبتسم : « لتعرفن هذا يا ايفان فيودوروفتش، لتعرفنه ! » ، ثم قالت بينها وبين نفسها : « وى ! ياله من طفل واى طفل ! انه لايدرى من امره شيئا ! » ، ومضت تقول بصوت مرتفع : « أجل يا ايفان فيودوروفتش ، لن نجد لى زوجة خيرا من ماريا جريجوريفنا ، ثم انك تميل اليها كل الميل ، وقد تحدثت الى السيدة العجوز مليا فى الأمر ، ولسوف يسرها أن تصبح زوجا لابنتها ، صحيح اننا لا نعرف ماعسى أن يقول ذلك الفاجرجريجورى جريجوريفتش ، ولكننا لن نحفل به ، فاذا ركب راسه ولم يمهرها استعنا عليه بالقانون ! »

ودخلت العربة الفناء فى هذه الأثناء وازداد نشاط الجياد المتقدمة فى السن ، اذ احست باقتراب حظيرتها .

« استمع الى يا اوميلكو ، ودع الجياد تصب أولا كفايتها من الراحة ، ولا تأخذها لتستقى لحظة ان تخلع عنها سروجها ، فانها لا تزال تتوقد » .

واردفت الخالة وهى تترجل من العربة : « اما انت يا ايفان فيودوروفتش ، فانى أنصح لك بأن تفكر فى الامر مليـا ، ولأعجل الآن بالذهاب الى المطبخ ، فقد نسيت أن احدث سولوخا بما تعده لنا من عشاء ، واغلب الظن ان المراة المسكينة لايمكن أن تفكر فى الأمر من تلقاء نفسها » .

ووقف ايفان فيودوروفتش كمن نزلت به صاعقة . صحيح ان ماريا جريجورفنا كانت فتاة بهية الطلعة فائقة الحسن ، ولكن هذا شىء والزواج شىء آخر ! ذلك ان الأمر بدا له عجيبا كل العجب،

غريبا ممعنا فى الغرابة ، لا يفكر فيه الا انتــابه الخوف والفزع . يعيش مع زوجة ! ياله من امر لايجوز التفكير فيه ! وكيف يصبر على حال تمنعه عن الانفراد بنفسه فى غرفة تخصه وتقتضــيه ان يعيش فى صحبة شخص آخر دائما ؟ وتصبب العرق منه وهو يزداد امعانا فى هذا الأمر .

وأوى الى فراشه وبكر فى ذلك اكثر مما الف ، فعز عليه النوم على الرغم مما بذله من جهد جهيد ، ثم زاره النوم ، ذلك الملاذ الذى يسكن اليه الناس جميعا ، وما كان اعجبه من نوم ! ذلك انه لم ير فى حياته من الأحلام المهوشة المهلهلة مثلما راى فى منـــامه هذا ، فقد تراءى له أول ما تراءى ان كل شيء يدور حوله صاخبا مضوضيا ، وانه انطلق يجرى ويجرى بقدر ما تحمله ساقاه ، ثم اخذ يلهث مبهور الأنفاس ، واذا بشخص يمسك بأذنه فيصـــيح فجاة هاتفا : « اف ! من هــذا ؟ »

ودوى فى اذنه صوت يقول : « اننى انا زوجتك ! » ، فاستيقظ من نومه ، ثم خيل اليه انه قد تزوج ، وان كل شيء فى منزلهما الصغير كان غريبا كل الغرابة ، عجيبا غاية العجب ، وقد مد فى غرفته فراش لشخصين بعد ان كان فيها فراش لايسع الا شخصا واحدا ، واستوت زوجته جالسة على كرسى وانتابه شعورعجيب، فقد احس بانه لايعرف كيف يقترب منها ؟ وبماذا يحدثها ؟ ثم بدا له ان وجهها وجه اوزة ، ثم التفت مصادفة الى الناحيــــة الأخرى فوجد زوجة اخرى وجهها وجه أوزة ، والتفت مرة ثانية فوجد زوجة ثالثة ، فرابعة من خلفه ، فامتلأ قلبه رعبا وهرع الى الحديقة ولكنه شعر بحرارة الجو فخلع قبعته فاذا بزوجة غيرهؤلاء تجلس فيها ، فتصبب العرق من وجهه ودس يده فى جيبه ليخرج منديلا فوجد زوجة سادسة فى جيبه ايضـا ، ثم اخرج من اذنه شيئا من القطن فوجد زوجة سابعة تجلس فيها ! ثم انبعث يقفز فجأة على ساق واحدة ، وقالت له خالته ، وهى تنظر اليه ، فى لهجة وقور :

« اجل ، يجب ان تقفز الآن على ساق واحدة ، فقد أصبحت رجلا متزوجا » ، ومضى اليها ، ولكن الخالة تبدلت غير الخالة ،

وانقلبت برجا لناقوس ، واحس ايفـــان شخصا يشده بحبل الى برج الناقوس ، فسأل ايفان فيودوروفتش فى لهجة حزينة : « من ذا الذى يشدنى ؟ » ، « انى زوجتك ، اشدك لأنك ناقوس » ، فصاح : « كلا ، لست ناقوسا ، بل انا ايفان فيودوروفتش » ، وتصادف ان كان قائد المشاة يمر بالمـكان فقال له : « بل انت ناقوس » ، ثم تراءى له فجأة ان الزوجة لا تمت للبشر بسبب ، وانما هى ضرب من النسيج الصوفى ، وراى انه دخـل حانوتا فى موجيليوف ، فسأله صاحب الحانوت : « اى نوع من النســيج تحب ؟ خير لك ان تأخذ زوجة فانها أحدث طراز من النســيج ! فهو شديد الاحتمال وما من احد الا يتخذ منه اليوم معطفا» ، وقاس صاحب المحل النسيج، وقص له زوجة، تابطها ايفان فيودوروفتش، وذهب بها الى خياط يهودى ، وقال اليهودى : « كلا ، انه نسيج ردىء ، وما من أحد يصنع من هذا النسيج معاطف اليوم » .

وافاق ايفان فيودوروفتش من حلمه فزعا ، لايدرى أين هو ، وأخذ العرق البارد يتصبب منه .

وما ان اســتيقظ فى صبيحة اليوم التالى حتى هرع الى كتابه الذى يتحدث عن الطوالع ، وكان بائع كتب فاضل قد دفعه صلاحه واستقامته الى تذييله بحاشية مختصرة فى الأحلام ، ولـكنه لم يجد فى هذه الحاشية شيئا ما يمت من بعيد الى هذا الحلم المهوش.

وكان عقل الخالة العزيزة قد تفتق فى هذه الأثناء عن خطة جديدة سوف تزدادون بها علما فى الفصل التالى .

مكان مسحور



مكان مسحور

قصة حقيقية رواها قندلفت

اقسم ان نفسي قد زهدت رواية القصص ! عجبا ! وما الذى كنتم تنتظرونه منى ؟ ان رواية القصص امر شاق حقا ، فهى تقتضى من المرء أن يظل يحكى ويحكى حتى يعز عليه ان يجد لنفسه مخرجا مما هو فيه ، وما دمتم تلحون فلا حيلة لى ، ولأقصن عليكم قصة ، وكل ما ارجوه أن تذكروا انها القصة الأخيرة : لقد وقف بنا الحديث عند القول باستطاعة الانسان ان يتغلب على الروح الشريرة أو قل الشيطان كما يسميه الناس . لما وقد بلغنا هذا فاعلموا ان هذا العالم يجوز فيه كل شيء ، وخير لنا الا نفصح هذا الافصاح ، فان الشيطان اذا شاء ان يمكر بك فعل ، والله على ما اقول شهيد .

لتذكروا ان ابى قد رزق أربعة أولاد انا واحد منهم ، وقدكنت وقتئذ طفلا غريرا لا اتجاوز الحادية عشرة او دونها بقليل ، وانى لأذكر ما سأقص نباه عليكم كانه قد وقع بالأمس ، أجل اذكر كيف انطلقت اجرى على اربع وانبح نباح الكلاب ، فصاح ابى ينهرنى وهو يهز راسه : « استمع الى يا فوما ، لقد بلغت من السن ما يسمح لك بالزواج ، ولكنك تلح فى الحمق كالمهرالصغير!» وكان جدى ــ يسر الله فواقه فى العالم الآخرــ لايزال على قيد الحياة يدب على رجليه دبيبا لابأس به ، وتتملكه من حين الىحين نزوات وصبوات .

ولكن ما هكذا تقص القصص ! فقد ظل احدكم ساعة يحرك نار الموقد ملتمسا جذوة يشعل بها غليونه ، وهرع احدكم الى خلف مخزن الحبوب يبحث عن شيء ، فما هذا ؟ لو اننى حملتكم على الانصات الى لكنتم فى حل من أن تفعلوا ما يحلو لكم ، ولكنكم ابيتم الا ان تلحوا على وتمعنوا فى الالحاح حتى اروى لكم قصة ،

فان شئتم أن تنصتوا فأنصتوا ، واحسنوا الانصات ! ..

فى باكورة الربيع وسق أبى بعض العربات تبغا قصد به الى بلاد القريم ليبيعه ، ولكنني لا اذكر عدد ما وسق من عربات ، وهل كانت اثنتين او ثلاثا ؟ ذلك ان ثمن التبــغ كان مرتفعــا فى تلك الايام ، وحمل ابى معه اخي الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات يعلمه التجارة، وتركنى فى العراء أنا وجدى وأمى وأخا ثانيا وثالثا، وكان جدى قد زرع بعضالبطيخ فى قطعة من الأرض بجانبالطريق، ومضي يعيش فى كوخ هناك ، وحملنا معه لنطرد الغربان والعصافير من الحديقة . ولست ازعم ان ذلك كان على غير ما نحب ونشتهى، فقد كنا فى بعض الأحيان نصيب من الخيــار والبطيــخ واللفــت والبصل والبازلاء حتى يخيل اليك ، والحق يقال ، أن بعض الديكة اخذت تصيح فى بطوننا ، زد على ذلك ان ما فعله كان فيه كسب لنا ، فقد كان المسافرون يجتازون الطريق وكلمنهم يريد الحصول على بطيخة ، ثم ان القوم كانوا يحملون اليـنــا من المزارع المجاورة الدجاج والديكة الرومية والبيض لقــاء ما نعطيهم من خضراوات ، وكان نجاحنا عظيما .

ولكن امرا واحدا كان يستهوى جدى اكثر من اى امر ، ذلك ان خمسين حوذيا او نحوهم كانوا يمرون بنا كل يوم وقد وسقوا عرباتهم بالأحمال ، وأولئك هم الناس الذين شــاهدوا العالم ، فاذا بدا أحدهم يروى لك قصة أرهفت اذنيك متطلعا ، وكان فرح جدى بهذه القصص كفرح الجائع بلقيمات القاضى ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يلقى جدى اصــدقاءه القدماء ــ وما من احد يجهــل جدى ــ وانك لتعلم كيف تكون الحال اذا اجتمع شمل الشــيوخ معا ، فهم يتحدثون فى هذا وذاك من الأمور ، ويقلبون من الحوادث كيت وكيت ، وهكذا يمضى بهم الحديــث ، فيذكرون امورا لا يعلم الا الله متى وقعت ؟ ..

وقد حدث ذات مــساء ــ وانى لأذكر ذلك كأنه قد وقع اليوم ــ ان أخذت الشمس فى الغروب ، وراح جدى يجول فى الحديقة ينزع أوراق الشجر التى كان قد غطى بها البطيــخ اثناء النــهــار حتى لا تلفحه حرارة الشمس .

وقلت لأخى : « انظر يا أوستاب ، هاك بعض الحوذية قد اقبلوا علينا » .

وقال جدى وهو يضع علامة على بطيخة كبيرة حتى لايأكلها الغلمان : « اين الحوذية ؟ » .

وكان ستة من الحوذية يضربون فى الطريق يتقدمهم حوذى كلل المشيب شاربه ، وكان لايزال على مسيرة — ماذا أقول — عشر خطوات منا عندما وقف .

« طاب صباحك يا ماكسيم . اذن فقد شاءت ارادة الله أن نعود فنلتقى هنا » .

وزر جدى عينيه .

« آه طاب صباحك ، من أين انت قادم ؟ وبولياشكا هنا ايضا! طاب صباحك يا أخى ! يا للشيطان ! انهم جميعا هنا : كروتوتريشنكو ايضا وبيشيريتسيا ! وكوفيليك ! وستيتسكو ! طاب صباحكم ! » وراحوا يقبل بعضهم بعضا .

وفكوا سروج الثيران واطلقوها ترعى ، وتركوا العربات فى الطريق، وجلسوا فى حلقة أمام الكوخ وأشعلوا غلايينهم ، ولو انهم لم يفكروا فيها ، فما أظن انهم كانوا يستطيعون أن يدخنوا فى اطمئنان وهدوء وقد استغرقوا فى رواية القصص وفضول الحديث .

وتناول الضيوف العشاء ثم اتحفهم جدى بالبطيخ ، فأخذ كل منهم بطيخة وامسك بسكين وراح يزيل عنها القشر فى اناقة «وكانوا جميعا من الرجال المحنكين الذين خبروا العالم وتعلموا كيف يأكلون جماعة ، ولست اغالى اذا قلت : انه لم يكن من العسير عليهم ان يجلسوا الى مائدة سيد مهذب من أفاضل الناس » وما أن انتهى كل منهم من تقشير بطيخته جيدا حتى ضرب فيها بأصبعه وشرب العصير من الثقب ، وأخذ يقطعها قطعا يضعها فى فمه .

وقال جدى : « مابالكما تقفان هكذا مشدوهين أيها الصبيان ؟ ارقصا أيها الجروان ! اين مزمارك الغاب يا أوستاب ؟ علينا بالرقصة القوزاقية ! فوما ، ضع ذراعيك فى خاصرتك ، هلم ! أصبت ! والآن ! »

وقد كنت فى تلك الأيام فتى نشيطا خفيف الحركة ، الا لعنة الله

على الشيخوخة ! فقد اصبحت اليوم لا استطيع الخطو فى رشاقة كما كنت افعل فى شبابى ، وقد كانت ساقاى تطفران وتقفزان ، اما اليوم فهما لا تعرفان الا الزلل والعثار ، وظل جدى يراقبنا وقتا طويلا وهو جالس مع الحوذية ، ولاحظت ان ساقيه لا تسكنان تحته ، كأنما كان هناك ما يجذبهما .

وقال اوستاب : « لترين يا فوما ان العجوز لن يلبث حتى يرقص » .

وما أن انتهى أوستاب من قوله حتى فرغ صبر العجوز، فقد كان يتوق كما ترى الى اظهار براعته للحوذية .

فقال وهو ينتصب واقفا ويبسط ذراعيه وينقر بكعبيه : « ايه أيها الفلامان ! أهكذا يكون الرقص ؟ انما الرقص هو هذا ! » .

ولاشك انه كان يستطيع ان يرقص خيرا من ذلك لو انه كان يصاحب زوجة شيخ القوزاق ، واخلينا له السبيل ، وانطلق العجوز يدور بساقيه فى البقعة الملساء التى تجاوز أحواض الخيار ، وما ان بلغ وسط البقعة واراد ان يأتى بخير ما عنده فيقفز بعض القفزات وساقاه تدوران فى الهواء حتى أبت ساقاه ان تبارحا الأرض على الرغم من كل ما بذل من جهد !

يا للبلاء ! لقد اخذ العجوز يتحرك مرة أخرى الى الخلف ثم الى الأمام ، وبلغ وسط البقعة ، ولكن هيهات ! لقد عجز الرجل عن الاتيان بهذه الحركة ، وظلت ساقاه ساكنتين كأنما قدتا من خشب : « انظروا ، لاشك ان هذا المكان مسحور ، وتلك مكيدة من مكايد الشيطان! ان هيرودس عدو البشرية له يد فى هذا الأمر!» .

ولاريب ان الرجل لم يكن يرضى لنفسه هذا العار أمام الحوذية، وكيف يرضى بذلك ؟ اذن فليبدأ من جديد ، وراح يقفز قفزات صغيرة تافهة كانت متعة للناظرين ، ثم مضى الى وسط البقعة من جديد فعجز مرة اخرى عن الرقص !

« عجبا لك ، ايها الشيطان الملعون ! الا فليغص حلقك بطيخة فاسدة ، ليتك هلكت وانت بعد صغير ، يابن الكلب ، انظروا أى عار جللنى به فى شيخوختى ! » . والحق ان شخصا اطلق ضحكة من خلف ظهره .

وتلفت حوله فلم ير حديقة البطيخ ولا الجوذبة ؛ بل لم ير شيئا ، فقد الفى حقلا ينبسط من أمامه ومن خلفه ومن جانبيه ، فهتف : « وى ! هذا مستحيل ! » ؛ وبدا يزر عينيه فتراءى له ان المكان ليس غريبا عليه كل الغرابة ، فالى جانبه اجمة ، وخلف الأجمة عمود يرتفع فى الفضاء حتى ليبدو للأنظار من بعيد. الا لعنة الله على هذا كله ! فقد كان هذا الذى الى جانبه هو برج الحمام فى حديقة خضر القس ! وذاك الذى على الجانب الآخر شيئا يضرب الى السمرة ، وامعن العجوز فى النظر. فوجد ان هذا الشيء هو مخزن دراسة كاتب الناحية ، اذن فقد ساقته الروح الشريرة الى هذا المكان . وطفق الرجل يدور ويدور فوقع على طريق صغير، ولم يكن القمر ظاهرا ، وانما حلت محلة بقعة بيضاء تتألق من خلف غمامة سوداء .

وقال جدى يحدث نفسه : « لتكونن الريح شديدة غدا » ، ولم يلبث ان ظهر وميض شمعة فوق قبر على بعد قليل من الطريق، « وى ! وى ! » ، ووقف جدى لايبدى حراكا ، ووضع ذراعيه فى خاصرته واخذ يتفرس فيما راى ، وانطفأ الضوء ، وتلألأ ضوء آخر على بعد كبير، فيما وراء الضوء الأول بقليل ، فهتف جدى : «كنز! اراهن بأى شيء انه كنز!» ، وهم بأن ينفخ فى يديه استعدادا للحفر، واذا به يتذكر انه لم يحمل معه مجرفا ، آه ! ما اشد اسفى ! لقد كنت خليقا بالا اتكلف من الجهد اكثر من ازاحة العشب فأجد الكنز النفيس تحت موطىء قدمى ! ولكن لاحيلة لى فى الامر الآن ، وحسبى ان اشير الى مكانه بعلامة حتى لاتخوننى ذاكرتى».

ثم جذب غصنا كبير الحجم لاشك ان الريح أطاحت به من شجرة ووضعه على القبر حيث راى الشمعة تتألق ، ثم مضى فى الطريق. وخفت كثافة اجمة السنديان القصيرة العود ، ولمح سياجا ، فراح يحدث نفسه قائلا : « انظروا ! الم اقل انها حديقة القس ؟ ها هو ذا سياجه ، وليس بيننا الآن وبين بستان البطيخ الا مسافة تقل عن الفيرست » .

على انه عاد الى المنزل فى الهزيع الأخير من الليل وابى ان يتناول شيئا من لقيمات القاضى ، وأيقظ اخى أوستاب وساله : أو قد

انصرف الحوذية منذ وقت طويل ؟ ثم التف بغطائه المصنوع من جلد الماعز، وسأله أوستاب : « أين استبقاك الشياطين اليوم ياجدى؟» فأجابه وهو يحكم الغطاء حوله : « لاتسلنى ، لاتسلنى ياأوستاب، والا شاب شعرك ! » .

وأخذ يغط غطيطا عاليا أفزع العصافير التى كانت قد حطت فى بستان البطيخ ، فطارت وجلة مذعورة ، ولكن كيف كان يستطيع أن ينام ؟ على ان الشيخ كان ، رحمة الله عليه ، رجلا داهية يستطيع دائما ان يفلت من اى مأزق ، فيلفق فى بعض الأحيان قصة يقف لها شعر رءوسنا .

وما أن حل الظلام فى اليوم التالى حتى ارتدى جدى سترته وتمنطق بحزامه وتأبط مجرفا ووضع قبعته على رأسه وشرب ابريقا من الجعة ومسح شفتيه بنفسه ، ثم مضى الى حديقة بطيخ القس لايلوى على شيء ، ومر بالسياج وبأجمة السنديان القصيرة العود ، وكان يمتد فى هذا الموضع طريق يلتف بين الأشجار ثم يبرز فى الأرض المنبسطة ، فخيل اليه انه الطريق المعهود ، وخرج الشيخ من الأجمة وتراءى له ان المكان هو هو ، مكان الأمس ، وراى برج الحمام واضحا ، ولكنه لم يستطع رؤية مخزن الدراسة، « كلا ، ليس هذا هو المكان ، ولاشك انه يبعد عن هذا الموضع قليلا ، ويخيل الى ان الأمر يقتضى أن انعطف قليلا ناحية مخزن الدراسة » ، وقفل راجعا ومضى فى طريق آخر ، فاستطاع أن يرى المخزن ، ولكنه لم ير برج الحمام ، فانعطف مرة اخرى ، فرأى المخزن مختفيا على مقربة من برج الحمام ، وكأنما أرادت السماء ان تكيد له ، فأخذت تمطر رذاذا ، وجرى ثانية صوب المخزن فاختفى برج الحمام ، وجرى شطر برج الحمام ، فاختفى المخزن!

فصاح : « أيها الشيطان الملعون ، تمنيت ألا تعيش حتى ترى اولادك ! » .

ثم انهمر المطر فخلع حذاءه الجديد ولفه فى منديل يقيه المطر ، وجرى كالرهوان سواء بسواء ، ثم دلف الى الكوخ وقد نفذ المطر الى جسده وتغطى بجلد الماعز ، وراح يتمتم بصوت خفيض ويسب الشيطان سبابا لم أسمع له مثيلا فى حياتى قط ، ولو اننى سمعت

هذا السباب فى وضح النهار لاحمر وجهى خجلا بلا شك .

واستيقظت فى صباح اليوم التالى فرايت جدى يجول فى بستان البطيخ كأن لم يحدث شيء ، وراح الرجل يغطى البطيخ بورق الأرقطيون ، ثم عاد يتحدث اثناء الغذاء ويخيف أخى الأصغر قائلا: « انه سيعدل عن مقايضة البطيخة بدجاجة ويتخذ منه بديلا عن البطيخة . وصنع بعد الغذاء مزمارا من قطعة من الخشب ، وأخذ ينفخ فيه ،ثم أراد ان يروح عنا فأعطانا بطيخة التفت ثلاث لفات كأنها الأفعى ، واطلق عليها اسم البطيخة التركية ، ولست أرى الآن لها مثيلا فى اى مكان ، والحق انه حصل على بذور هذا النوع من بلاد بعيدة .

وفى المساء خرج جدى بعد تناول العشاء ، وحمل معه مجرفا يحفربه مهدا جديدا لليقطين المتاخر ، ومر بذلك المكان المسحور فلم يتمالك نفسه من القول مغمغما :« يا له من مكان ملعون ! » ومضىالى وسطه حيث البقعة التى لم يستطع أن يتم فيها رقصته بالأمس ، وضربها بالمجرف غاضبا ، فلم يلبث أن راى الحقل المعهود يحيط به مرة أخرى من كل جانب ، ووجد برج الحمام الىجانبه باديا للعيان وعلى الجانب الآخر مخزن الدراسة ، « مرحى ، لقد كان من حسن التوفيق اننى فكرت فى حمل المجرف معى ، فهاهو ذا الطريق ، وهاهوذا القبر! وهاهوذا الغصن الملقى عليه ، وهاهى ذى الشمعة المعهودة ، آه ! لو كنت قد وقفت ولم أقع فىخطأ!» .

وجرى متسللا وهو يرفع المجرف فى الهواء كأنه يهم بضرب خنزير ولغ بخطمه فى بستان للبطيخ ، ثم وقف أمام القبر، وانطفأت الشمعة ، وقام فوق القبر حجر غطته الأعشاب ، وراح الشيخ يحدث نفسه قائلا : « يجب أن أرفع هذا الحجر» ، وحاول أن يحفر حوله الا ان الحجر اللعون كان ضخما ، فثبت قدميه فى الأرض ودفعه عن القبر ، وتجاوب الوادى بصوته وهو يهتف : « أوه ! » ، ثم أردف : « ان هذا هو الطريق الصحيح الذى يجب ان تسلكه ! ولسوف تسير الأمور من بعد فىسهولة ويسر!» .

ووقف جدى عند هذا الحد ، واخرج صندوق سعوطه ونثر قليلا من السعوط فى يده ، وهم بانيرفعه الى انفه ، واذا بشيء

يعطس فوق رأسه عطسة اهتزت لها الأشجار وتلطخ وجه جدي كله.

وقال جدي وهو يمسح عينيه : « لقد كان أجدر بك أن تدير وجهك على الأقل ان شئت أن تعطس » ، والتفت حوله ولكنه لم ير احدا ، فمضى يقول وهو يضع صندوق السعوط فى صدره ويتناول مجرفه : « يبدو ان الشيطان لايحب السعوط ، يا له من أحمق! فما اصاب جده ولا ابوه شيئا من مثل هذا السعوط!».

وبدا يحفر، وكانت الارض رخوة غاص فيها المجرف ، ثم قعقع شيء ، فأزاح التراب فرأى قدرا كبيرة .

وصاح جدي وهو يدفع المجرف تحتها : « آه ! اذن فهذه انت ! »

وصاح منقار عصفور كان ينقر القدر : « آه ! اذن فهذه انت ! » .

وتنحى جدي فسقط منه المجرف .

وثغى راس شاة من اعلى شجرة : « آه ، اذن فهذه انت ! »

وجأر الدب وهو يطل بأنفه من خلف شجرة : « آه ، اذن فهذه انت ! »

وسرت رعدة فى ظهر جدي .

وغمغم يقول بينه وبين نفسه : « وى ! لشد ما يخشى المرء ان ينطق بكلمة هنا ! »

فصاح منقارالعصفور: « لشد مايخشى المرء ان ينطق بكلمة هنا!»

وثغى راس الشاة : « يخشى ان يقول كلمة هنا ! »

وجأر الدب : « ان ينطق بكلمة هنا ! »

وقال جدي : « هم ! » ، واحس بالفزع يغشى قلبه .

وصاح المنقار : « هم ! » .

وثغت الشاة : « هم ! » .

وجأر الدب : « هم ! » .

وتلفت جدي حوله فى فزع ، تباركت يا الله ! يا لها من ليلة !

غابت نجومها واختفى قمرها ، ولم يجد فيها الا حفرا تكتنفه وهوة سحيقة عند قدميه ، وصخرة شامخة تشرف عليه ، ولا تلبث أن تنحط فى اية لحظة فتهوى فوق راسه ، وتراءى لجدى ان راسا بشعا يطل من ورائها ، « أوه ! أوه ! » ، ويمتـد أنف كمنفـاخ الحداد ، يلقى بسطل من الماء فى كل فتحة فيفيب فيه ! وشفتان كانهما كتلتان من الخشب ! وعينان حمراوان ناتئتان مستشرفتان ولسان برز من الفم ساخرا متهكما .

وهتف جدى متخليا عن القـدر : « فليأخذك الشيطان ! الا لعنة الله عليك وعلى كنزك ! يا له من خطم كريه ! » ، وهم الشيخ بالهرب مكتفيا من الغنيمة بالاياب لولا انه تلفت حوله وتوقف ، فقد راى كل شىء يعود الى سيرته الأولى ، « انما هى الروح الشريرة تحاول أن تخيفنى ! »

وراح يرفع القدر مرة أخرى ، فوجـدها ثقيلة اشـد الثقل ! فماذا يصنع ؟ وكيف يتركها بعد ؟ وبذل العجوز غاية ما فى وسعه وقبض على القدر بكلتا يديه .

وهتف وهو يشدها شدا : « هيـلاهوب ! هيلاهوب ! اف ، فلأروحن عن نفسى بشىء من السـعوط ! » ، وأخرج صنـدوق سعوطه وتريث قليلا قبل أن ينشر من السعوط شيئا ، فقد بدا له ان يلقى حوله نظرة فاحصة ليستوثق من ان احدا لايراه ، وخيل اليه ان المكان قد خلا من كل احد ، واذا بجذع الشجرة يبدو وكأنه يلهث وينفخ ثم برزت منه أذنان ثم عينـــان حمراوان ومنخران ينفثان ، وأنف مجعد تراءى له انه على وشك أن يعطس ، فقال جدى بينه وبين نفسه ، وهو يدس صندوق السعوط فى صـدره : « كلا ، لن أصيب شيئا من السعوط ، فان الشيطان سوف يبصق فى عينى مرة أخرى » ، وبادر الى القدر فخطفها خطفا وانطلق يسابق الريح ، الا انه شعر بشىء من خلفه يخدش ساقيه بالعساليج ، فلم يجد فى طوقه الا أن يقول : « آه ! آه ! » وهو منطلق بأقصى سرعته ، فلما بلغ حديقة القس تنفس الصعداء .

ورحنا نتساءل : « ترى اين ذهب جدى؟ » ، بعد ان انتظرناه ثلاث ساعات ، وكانت أمى قد عادت من المزرعة منـذ وقت طويل

وجاءت معها بقدر من لقيمات القاضى الساخنة ، على اننا لم نسمع بأى خبر عن جدى ! وتناولنا العشاء مرة اخرى دونه ، وغسلت أمى القدر بعد العشاء فلما وجدت مهاد البطيخ تحيط بها من كل جانب راحت تبحث عن مكان تلقى فيه ماء الغسيل ، واذا بها ترى برميلا يندفع نحوها راسا ! وكان الظلام قد بدا يرخى سدوله ، فايقنت ان غلاما يتخابث مختفيا وراءه ويدفع به نحوها فقالت : « هذا خير ، ولالقين بالماء فيه » ، واردفت القول بالفعل ، وقذفت بما فى يدها من الماء الساخن .

وصاح صوت يهتف : « اواه ! » فاعجبوا ما شاء لكم العجب ، فان هذا البرميل لم يكن الا جدى ، وى ! من كان يتصور هذا ! تالله لقد ظنناه برميلا مندفعا نحونا ، ولست انكر ، على ما فى قولى هذا من اثم ، ان منظر جـــدى وقد غرق راسه الأشيب فى ماء الغسيل ورصعه قشر البطيخ ، كان مسليا يثير الضحك .

وقال جدى وهو يمسح راسه بهدب سترته : « ايتها المرأة الملعونة ! يا للحمام الساخن الذى جدت به على ، حتى لكانى خنزير اعد للذبح قبل عيد الميلاد ! اما انتما ايها الصبيان فسوف تنالان شيئا آخر غير حلقات الخبز! ثم لترفلان ايها الجروان فى الحلل الذهبية » ، ثم قال وهو يفتح القدر : « انظروا ماجئتكم به ! »

فأى شيء انطوت عليه القدر فيما تظنون ؟ هلموا فكروا جيدا ، وحذروا ، اتقولون : انه ذهب ؟ كلا ، لم يكن فيها ذهب ، بل انى لأخجل اذ اقول : ان ما فيها كان وسخا وقذارة ، وبصق جدى وطوح بالقدر ثم غسل يديه .

ومن يومها حملنا جدى على القسم بالا نثق بالشيطان .

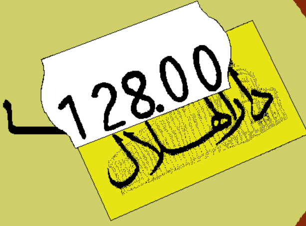
وكان يهيب بنا فى كثير من الاحيان قائلا : « لا تصدقوه ! فان هذا العدو للمسيح لايقول الا كذبا ، فلا تصدقوه ، ابن الكلب ! فليس فيما يقول خردلة من صدق ! »

وكان الشيخ اذا سمع ان الامور قد اضطربت فى بقعة من الارض هتف : « هلما ياولدى ، ولنرسم اشارة الصليب على الشيطان! احسنتما ! احسنتما ! ولترسماها على الوجه الصحيح ! » ، ثم يبدأ فى رسم اشارة الصليب . أما تلك البقعة الملعونة التى عجز

فيها عن ان يتم رقصته فقد سورها ، وامرنا ان نلقى فيها بكل الفضلات والأعشاب والقمامة التى كان يجمعها من بستان البطيخ .

ارايتم كيف تسيطر الروح الشريرة على البشر ؟ انى لأعرف تلك القطعة من الارض حق المعرفة ، وقد استاجرها بعض الجيران من القوزاق من بعد ليزرعوها بطيخا ، انها لأرض عظيمة تجود دائما بمحصول وافر ، أما هذا المكان المسحور فلم ينبت قط نباتا طيبا ، وقد يلقى القوم فيه بالبذور فيحسنون ، ثم لا يعلم أحد كيف يكون نبتها ، على انها لا تنبت فى الحق بطيخا ولا يقطينا ولا خيارا وانما تنبت شيئا لا يعلمه الا الشيطان وحده .

« النهاية »



هذه الرواية

الجزء الثاني وهو مكمل للجزء الاول ، وقد قدم له بانكو مربي النحل أيضا بمقدمة طريقة أعقبها بقصة ليلة عيد الميلاد ، وقصة انتقام رهيب ، وقصة ايفان فيودورفتش شبونكا وخالته ، وقصة مكان مسحور .

وفي هذا الجزء يواصل جوجول وصفه النابض بالحياة الحافل بالسخرية لاخلاق الشعب الروسي وأهل الريف فيه ونوادر الاسلاف والاجداد ، وتقاليد القوزاق ومرحهم وصخبهم ، وتندر فيه باهل الطبقة العليا .

وحسبنا أن نصف فضل جوجول على الادب الروسى فنردد ما قيل من أن جميع قصاصي روسيا خرجوا من تحت « معطف » جوجول .

وصفه تورجنيف فقال : « أنه فى رأينا أكثر من كاتب ، فقد كشف لانفسنا عن أنفسنا » . وقال عنه دوستوفسكي : « لقد ضحك طول حياته من نفسه ، وضحكنا نحن معه ، وأطلنا الضحك حتى بدأنا نبكي فى النهاية ...